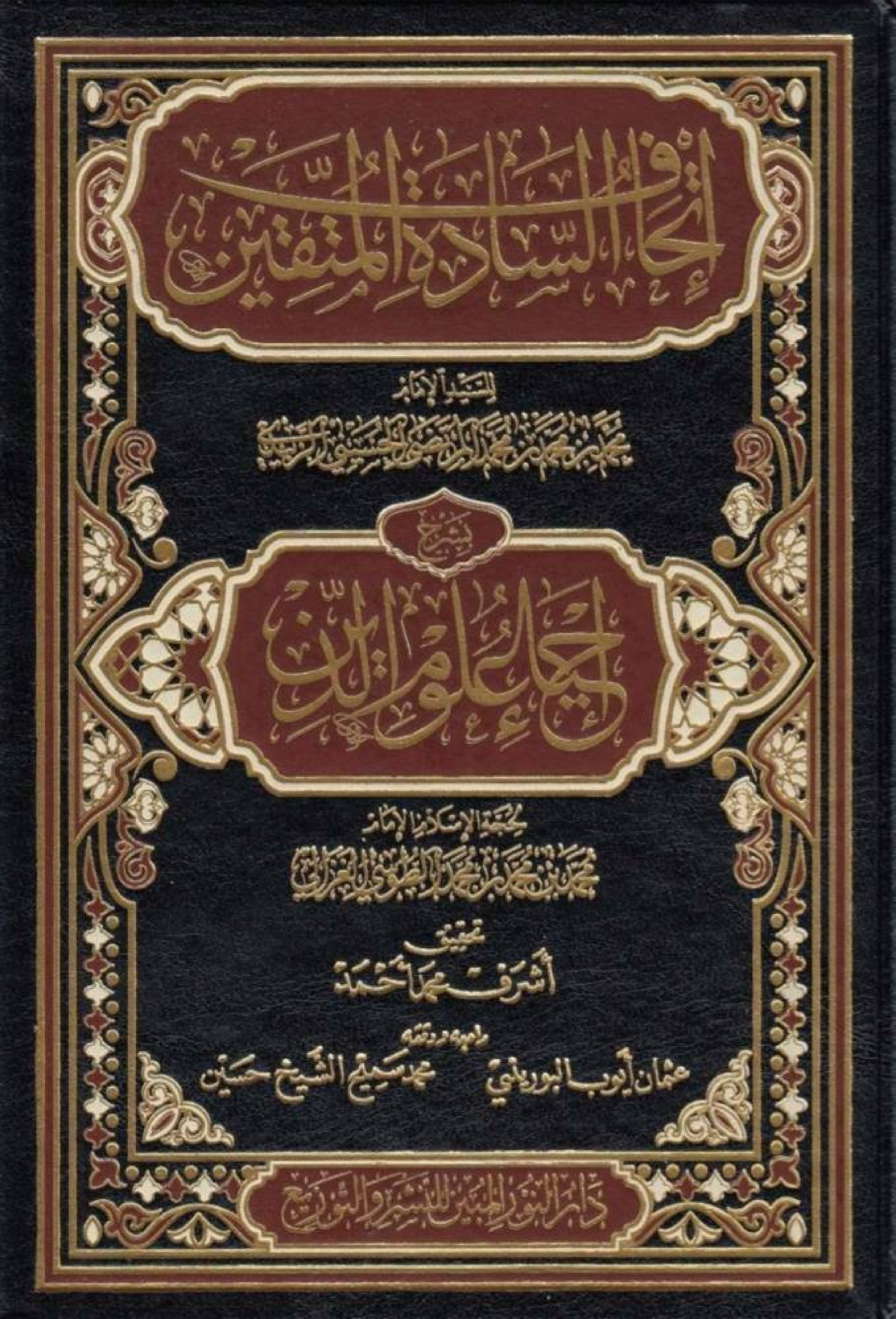
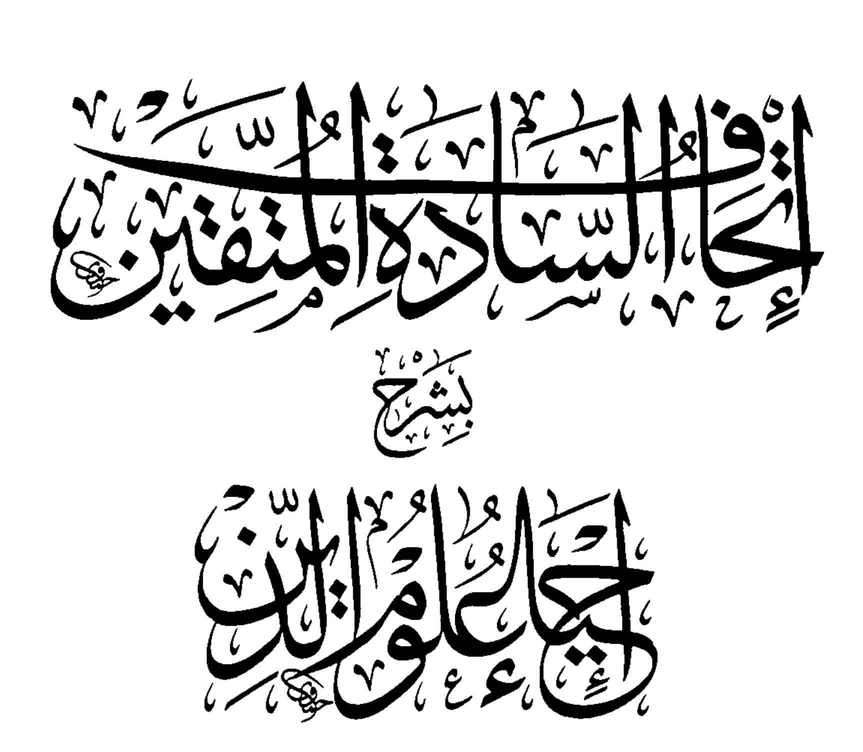

إتحاف السادة المتقين
للسيد الإمام
محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي
بشرح
إحياء علوم الدين
لحجة الإسلام الإمام
محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي
تحقيق
أشرف محمد أحمد
راجعه ودققه
عثمان أيوب البوريني
محمد سميح الشيخ حسين
دار النور المبين للنشر والتوزيع


إتحاف السادة المتقين
بشرح
إحياء علوم الدين

إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين

تحقيق: أشرف محمد أحمد، عثمان النابلسي، محمد الشيخ حسين

الطبعة الأولى: 2024م

جميع الحقوق محفوظة لدار النور المبين باتفاقٍ وعقد



يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح



لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

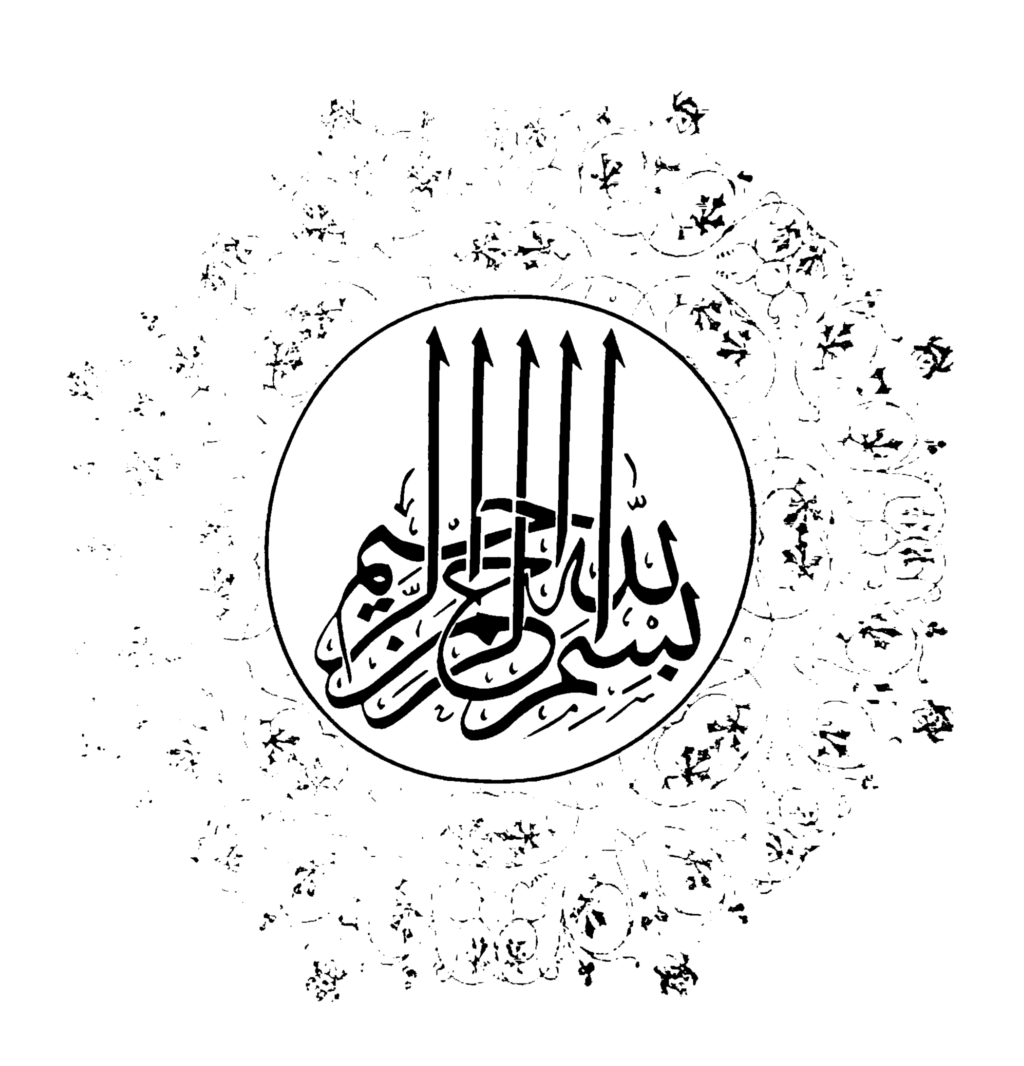
عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين



2024

المجلد الأول وفيه مقدمات التحقيق ومقدمة الإمام الزبيدي للإتحاف


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشـر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أتحف قلوب المتقين بإحياء علوم الدين، وأقام من عباده مَن شرح به صدورَ المُهتدين، فجالت أفكارهم في ملكوته فكانوا ربانيين، وأورثهم من مشكاة النُّبوَّة قبساً فحملوها فصحَّت نسبتهم للمبعوث رحمةً للعالمين، فأضحوا أشدَّاء على الكفار رحماء للمسلمين.

والصلاة والسلام على هادي الخلق أجمعين سيدنا ومولانا محمد سيِّد الأولين والآخرين، البحر العذب الفرات الذي ما أمّه أحدٌ بصدقٍ إلا وارتوى، وما أعرض عنه قلبٌ إلا وغوى، فهو الذي طوى الله السماوات والأرض له حتى عاين ورأى، ثم تدلَّى لهداية الخلق وزكّاه بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣-٤].

فإن غاية ما يثني به العاقل على ما يستحسنه أن يقول : ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، فلولا فضل الله ما كان ما كان، ولولا نعمة الله ما استحسنت عينٌ كائناً ما كان، وهذا الكتاب الذي أصله إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الإمام الغزالي وشرحه إتحاف السادة المتقين للإمام الزبيدي ﷺ، هو الموسوعة الإسلامية التي ما تركت فناً إلا وضمَّته ولا علماً إلا وحقَّقته، فإن رمت الأصول ففيه تدقيقات قلَّما توجد في غيره، وإن رمت الفقه وفروعه فهو أهله، وإن رمت علوم اللغة والبيان فدونك الكنوز لأهل العيان، وإن رمت التصوّف والمعاملة فهو الدليل الصادق والصاحب

الناصح، مع تحقيقات وتدقيقات قلَّما توجد إلا فيه، وحل إشكالات لم تُحلُّ إلا لقاريه، فهو جوهرة بين جوهرتين ونورٌ بين نورين، كيف لا! وأصله حجة الإسلام الإمام الغزالي وثمرته واحد الأنام الإمام الزبيدي ﷺ ونفعنا بعلومهما، فمكانته كالشمس بين النجوم، ورفعته كالأصول بين العلوم، أينما قلّبت نظرك فيه وجدت وجهـًا حسنـًا وعلمـًا نافعـًا، كسا الأئمة فيه جليل المعاني بلطيف عباراتهم، وأخرجوا كنوز اللآلي بحُسن اختياراتهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيرًا، وجمعنا بهم بحضرة سيدنا محمد ﷺ خير الورىٰ.

امتدَّ العمل في هذا السفر المبارك أحد عشر عامـًا، من بداية عمل التحقيق إلىٰ نهاية إخراجه، فقدَّمَه للدار في نسخته الأولىٰ الشيخ أشرف حفظه الله ورعاه وقد جدَّ غاية الجد، واجتهد عليه غاية الجهد في ضبط الكتاب ومقابلته، والتعليق عليه، وحلِّ العويص، وتيسير الممتنع، حتىٰ أتىٰ عليه كاملاً بفضل الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم عكفت الدار علىٰ مراجعة الكتاب وتدقيقه ومقابلته، واستعنتُ علىٰ ذلك بأخي الشيخ عثمان النابلسي حفظه الله، حتىٰ استوىٰ إلىٰ الثناء والقبول لإخراجه لطلبة العلم والقرَّاء الكرام.

وقد حاولنا بقدر المستطاع التخفيف من التعليق لحجم الكتاب الكبير دون إخلال في خدمته وضبطه، والله يتقبل منا أحسن ما عملنا فيه، ويكتب أجر كل مشتغل وقارئ فيه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

محمد الشيخ حسين

عمّان- الأردن، في أيام المجد والتمكين في غزّة العزة

بدر ربيع الثاني ١٤٤٥ هـ

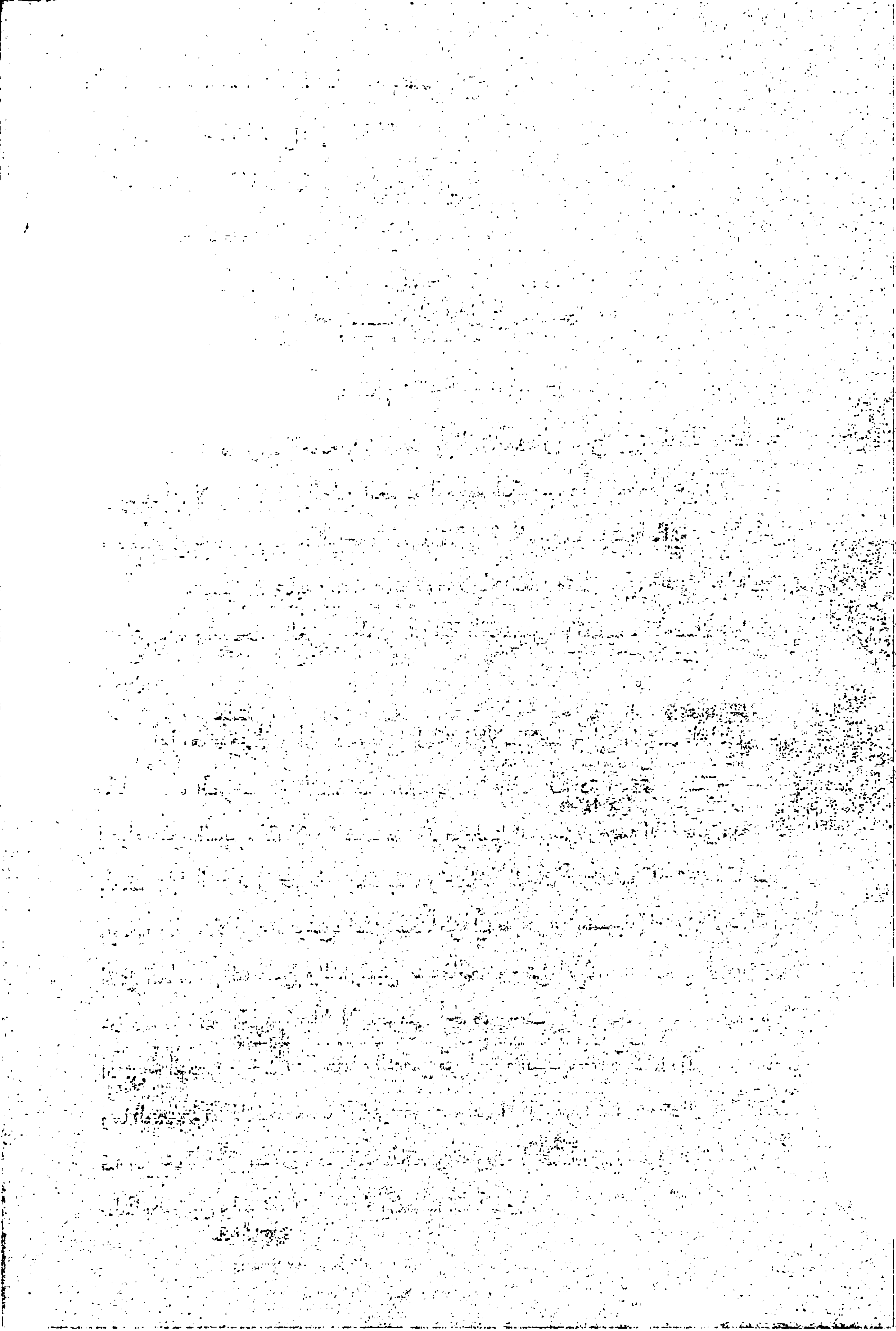
٢٩/ ١٠/ ٢٠٢٣م

مقدمة التحقيق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيد فضله وعطائه. وأشهد أن لا إله إلا الله العلي العظيم الحليم الكريم، وأن محمدًا عبده ورسوله وصفيُّه من خلقه وحبيبه، الرحمة المهداة إلىٰ العالَمين، وسيد ولد آدم من الأولين والآخِرين، صلىٰ الله عليه وسلم صلاةً وسلامًا دائمينِ متلازمينِ، وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغُر الميامين الهُداة المهديين، وتابعيهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد، فيسرني أن أقدِّم إلىٰ المكتبة الإسلامية وإلىٰ طلاب العلم في كل مكان هذه الموسوعة الإسلامية الكبرىٰ: إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للعلامة السيد محمد مرتضىٰ الزبيدي رحمه الله تعالىٰ، بعد أن بذلت غاية الجهد في ضبطه وتحقيقه، راجيًا بذلك أن أكون قد قدمت عملاً يليق بأهمية هذا الكتاب النفيس، الذي يُعَدُّ من المصادر الأساسية للعلوم الإسلامية لدىٰ العلماء والباحثين والدارسين منذ تأليفه وحتىٰ الآن. وأسأل الله أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن لا يحرمني أجره، وحسبي أني بذلت فيه وسعي، ولا أدَّعي خلوه من الخطأ، فالخطأ والنقص من لوازم البشر، وما الكمال إلا لله وحده، وما العصمة إلا للأنبياء، فما كان فيه من صواب فذلك من فضل الله تعالىٰ، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان. والله يهدينا جميعًا إلىٰ سبيل الرشاد ويمنُّ علينا بالتوفيق والسداد في أقوالنا وأفعالنا ... آمين.



بين يدي الكتاب

مكانة الإحياء واهتمام العلماء به:

لستُ هنا بصدد الحديث عن كتاب الإحياء مفصلاً، فقد سبقني إلىٰ ذلك كثيرون، ولكني أقول: إن مما لا شك فيه أن الإحياء من أهم المصادر التي يزخر بها تراثُنا الإسلامي العظيم، ومن الكتب التي طار ذِكرها في الآفاق وطبّقت شهرتُها ما بين المشرق والمغرب، وقد طُبع عشرات المرات في أنحاء العالم، ولا تكاد تخلو منه مكتبة، وما من أحد من طلبة العلم إلا وقد قرأه واستفاد منه منذ أن خرج الكتاب إلىٰ الوجود وإلىٰ يومنا هذا، وقد صنَّفه الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ بعد أن وصل إلىٰ قمة نضجه العلمي، وبعد أن زهد في الدنيا وعزفت نفسه عنها وقطع العلاقة بينه وبين الناس وعكف علىٰ العبادة وتلاوة القرآن. قال عنه حاجي خليفة[1]: «وهو من أجل كتب المواعظ وأعظمها، حتىٰ قيل فيه: إنه لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنىٰ عما ذهب».

وقال السبكي[2]: «لا ينبغي لعالِم أن ينكر مكانته في الحُسن والإفادة، ولقد قال بعض المحققين: لو لم يكن للناس في الكتب التي صنَّفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفىٰ. وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها ليهتدي بها كثير من الخلق، وقلَّما ينظر فيه ناظر إلا وتيقظ به في الحال».

---

(١) كشف الظنون ١/ ٢٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٢٥٢.

وقد صنف الشيخ عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس اليمني رسالة في مدحه سماها: تعريف الأحياء بفضائل الإحياء. قال في أولها: «إن الكتاب العظيم الشأن المسمىٰ بإحياء علوم الدين، المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين وأهل طريق الله السالكين، المشايخ العارفين، المنسوب إلىٰ الإمام الغزالي رضي الله عنه، عالم العلماء، وارث الأنبياء، حجة الإسلام، حسنة الدهور والأعوام، تاج المجتهدين، سراج المتهجدين، مقتدىٰ الأئمة، مبين الحل والحرمة، زين الملة والدين، الذي باهىٰ به سيِّدُ المرسلين صلىٰ الله عليه وسلم، لما كان عظيمَ الوقع، كثيرَ النفع، جليل المقدار، ليس له نظير في بابه، ولم ينسج علىٰ منواله، ولا سمحت القريحة بمثاله، مشتملاً علىٰ الشريعة والطريقة والحقيقة، كاشفًا عن الغوامض الخفية، مبينًا للأسرار الدقيقة، رأيت أن أضع رسالة تكون كالعنوان والدلالة علىٰ صبابة من فضله وشرفه، ورشحة من فضل جامعه ومصنفه».

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب فقد اهتم به العلماء قديمًا وحديثًا، وتمثَّل اهتمامهم به في صور عديدة، فقام زين الدين العراقي بتخريج أحاديثه المرفوعة في كتاب سمَّاه: المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار. وهو تخريج مختصر اقتصر فيه علىٰ ذكر طرفه وصحابيه ومخرِّجيه وبيان درجته من الصحة أو الضعف. واستدرك عليه شمس الدين الداودي وابن حجر العسقلاني بعض ما فاته، وقد أورد الزبيدي بعض هذه الاستدراكات.

كما صنَّف ابن قطلوبغا الحنفي كتابًا سمَّاه: تحفة الأحياء فيما فات من تخاريج الإحياء.

واختصره أخوه أحمد بن محمد الغزالي في كتاب سماه: لُباب الإحياء.

واختصره أيضًا أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب سماه: منهاج القاصدين ومفيد الصادقين. وحذف منه الأحاديث الموضوعة، وزاد فيه أشياء كثيرة. وقد اختصر ابن قُدامة المقدسي هذا المختصر في كتاب سماه: مختصر منهاج القاصدين.

واختصره أيضًا شمس الدين محمد بن علي العجلوني البلالي (المتوفى سنة ٨١٢) في نحو عُشر حجمه.

واختصره أيضًا كلٌّ من: محمد بن سعيد اليمني (المتوفى سنة ٥٩٥)، ويحيىٰ بن أبي الخير اليمني، وجلال الدين السيوطي.

ولأبي العباس أحمد بن موسىٰ الموصلي (المتوفى سنة ٦٢٢) مختصرين، أحدهما كبير، والآخر صغير.

واختصره محمد بن عثمان البلخي (المتوفى سنة ٨٣٠) باسم: عين العلم. وهذا المختصر شرحه الملاَّ علي القاري وسماه: فهم المعلوم.

واختصره أخيرًا الشيخ محمد جمال الدين القاسمي باسم: موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين. في مجلد.

أهمية كتاب الإتحاف وسبب تأليفه

قد أشرنا آنفًا إلىٰ اهتمام العلماء بكتاب الإحياء تخريجًا واختصارًا، لكن هذا الاهتمام لم يصل إلىٰ درجة الإقدام علىٰ شرحه رغم الحاجة الماسة إلىٰ ذلك، وبقي الإحياء دون شرح لقرون عديدة، حتىٰ جاء السيد مرتضىٰ الزبيدي فتصدَّىٰ لهذه المهمة الشاقة التي تتطلَّب وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا متواصلاً ومصادر متنوعة كثيرة، وقد أشار الزبيدي في مقدمة شرحه إلىٰ إعراض العلماء عن شرح الإحياء وضبط ألفاظه وتبيين مشكلاته، وبيَّن سبب تأليفه لهذا الشرح ومنهجه فيه بقوله: «هذه تقريرات شريفة، وتحريرات منيفة، أمليتها علىٰ كتاب الإحياء للإمام الغزالي حين سُئلتُ في إقرائه، جانحًا فيه إلىٰ حل عباراته، مشيرًا إلىٰ كشف الغموض عن رموزه وإشاراته، مخرِّجًا أحاديثه علىٰ طريقة حفَّاظ المحدِّثين، مبيِّنًا لأسانيد ما فيه من أقوال العلماء والعارفين ... علىٰ أني لم أرَ أحدًا من العلماء قديمًا وحديثًا مع كثرة تداول هذا الكتاب بين أيديهم وتبرُّكهم بقراءته في سائر الأقطار - خصوصًا في قُطر اليمن المأنوس بالأخيار - اعتنىٰ بضبط ألفاظه المشكلة، ولا فصَّل بنود عقوده المجملة، وقد شرح الله صدري لشرحه بإلهام، وسعىٰ يعبوب فكري لتحصيله باهتمام ...».

وقال عند ذِكر مَن خدم الإحياء: «لم أرَ مَن شرح هذا الكتاب، ولا تعرَّض أحد لإيضاح سياقه المستطاب».

وقد فُهم من كلام الزبيدي السابق أنه قصد بتصنيف هذا الشرح أن يسد ذا النقص الذي تركه مَن قبله من العلماء، ورأىٰ أن الإحياء جدير بوضع شرح ليه يوضح ألفاظه، ويبيِّن عباراته ويكشف اللثام عن درجة أحاديثه. وعلىٰ هذا،

فإن الإتحاف هو الشرح الوحيد للإحياء، وهنا تظهر أهميته وقيمته بين كتب التراث الإسلامي، لا سيما وأن مؤلفه قد جمع بين التبحر في التصوف والتبحر في الفقه والحديث واللغة، ولو لم تكن للإتحاف ميزة سوىٰ ذلك لكفىٰ. فرغم أهمية الإحياء لم يفكر أحد من العلماء في شرحه رغم أن هناك كتبًا كثيرة أقل منه شأنًا قد وُضعت عليها شروح عديدة، وكان الإحياء أَولىٰ بذلك منها، نظرًا لكثرة علومه وفوائده ودقائق عباراته، واشتماله علىٰ كثير من الألفاظ الغريبة والمواضع المشكلة والمسائل العويصة التي تحتاج إلىٰ بيان، ورغم ما بذله بعضهم في التخريج والاختصار من جهد مشكور إلا أن ذلك قليل الفائدة بالنسبة إلىٰ الشرح، فإن حاجة الناس خاصتهم وعامتهم إلىٰ شرح الكتب أشد من حاجتهم إلىٰ المختصرات التي قد لا يهتم بها أحد، وليس أدل علىٰ ذلك من شهرة الإتحاف ورجوع الناس إليه واعتمادهم عليه خاصةً في الفقه والحديث. أما تلك المختصرات العديدة فلم تشتهر وقلَّ اهتمام الناس بها؛ لأنها لم تقدِّم جديدًا سوىٰ حذف بعض نصوص الإحياء.

وليست هذه الميزة الوحيدة لهذا الكتاب القيم، بل هناك ميزة أخرىٰ تتجلَّىٰ فيه، وهي أنه قد حوىٰ نصوصًا كثيرة عن كتب سابقة عليه هي الآن في عِداد المفقودات، كـ«شرح المحرَّر» للأصفهاني، و«مقاصد منجيات الإحياء» لمحمد بن إسحاق الصوفي، وكتاب «المتفجعين» لمحمود بن محمد بن الفضل الأديب ... وغيرها كثير، فصار الإتحاف هو المصدر الوحيد لهذه النصوص التي لا تكاد توجد في غيره من الكتب.

منهج الزبيدي في شرحه

قبل أن يشرع أيُّ مؤلف في تأليف كتاب ما، فإنه يرسم لنفسه منهجًا يسير عليه من أول الكتاب إلىٰ آخره، حتىٰ يكون عمله متناسقًا لا خلل فيه، لا سيما إذا كان عملاً ضخمًا كهذا الشرح، ويمكننا تلخيص منهج الزبيدي في هذا الكتاب في النقاط التالية:

١ - اختار أن يشرح الإحياء بطريقة الشرح المزجي، فهناك نوعان من الشروح، النوع الأول: الشرح بالقول أو الشرح الموضعي، وفيه لا يذكر الشارح كل كلام صاحب المتن، بل يقتصر علىٰ العبارات التي يريد شرحها وبيانها، ويبدأها بـ (قوله ...)، ومن أمثلة هذا النوع: «فتح الباري» لابن حجر. النوع الثاني: الشرح المزجي، وهو أن يذكر الشارح كل كلام صاحب المتن ويمزجه بكلامه هو بحيث يكون السياق متصلاً والجمل مترابطة، وكان الشرَّاح قديمًا يميزون المتن المشروح بالمِداد الأحمر، فلما ظهرت الطباعة تعذَّر ذلك لعدم وجود إمكانية الطباعة بالألوان، فكانت المطابع تضع المتون داخل قوسين هكذا ( ) وتضع الشروح خارجهما، فلما تطورت عمليات الطباعة وُضعت الشروح داخل قوسين كذلك ولكن تم تمييز المتون أكثر بخط أسود عريض، وإبقاء الشروح كما هي بالخط العادي. والطريقة المزجية هي الطريقة التي سادت بين الشرَّاح المتأخرين، حيث رأوا أنه من الأفضل ذِكر متون الكتب كاملة وليس الاقتصار علىٰ عبارات بعينها.

٢ - بدأ الكتاب بترجمة مطوَّلة جدًّا للغزالي في إحدىٰ وعشرين فصلاً، ذكر فيها

كل ما يتعلق به.

٣ – من عادة الزبيدي بعد فراغه من شرح كل كتاب من كتب الإحياء أن يذكر تاريخ فراغه منه تفصيلاً: السنة والشهر واليوم والساعة. فقال بعد فراغه من شرح كتاب العلم وهو أول كتب الإحياء: «نجز ذلك في يوم الجمعة بعد الصلاة لخمس بقين من محرم افتتاح سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف». وقال في آخر الكتاب: «وكانت مدة إملائه إحدىٰ عشر عامًا إلا أيامًا، آخرها في الخامسة من نهار الأحد خامس جمادىٰ الثانية من شهور سنة إحدىٰ بعد المائتين وألف». وهذا يدل علىٰ أنه شرع في شرح الإحياء سنة ١١٩٠، بعد انتهائه من تصنيف «تاج العروس» بسنتين، وكان عمره إذ ذاك ٤٥ سنة، وفرغ منه قبل وفاته بأربع سنين.

٤ – ذكر الاختلافات الواقعة بين نسخ الإحياء في بعض المواضع.

٥ – لم يكتفِ بشرح كلام الغزالي، وإنما زاد عليه أشياء كثيرة وفوائد رأىٰ إلحاقها بالكتاب تتميمًا لكلام الغزالي، وقد ختم كثيرًا من كتب وأبواب الإحياء بفصول مطوَّلة هامة نقلها من كتب أخرىٰ.

٦ – من المعلوم أن كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي هو أحد المصادر الأساسية التي اعتمد عليها الغزالي في تصنيف الإحياء، غير أن الغزالي في الغالب لا يلتزم بعبارة صاحب القوت، بل يتصرف فيها بالزيادة والنقص والتغيير، فكان الزبيدي يذكر الاختلافات بين عبارة الغزالي وعبارة صاحب القوت ويقارن بينهما، وكذلك فعل مع الكتب الأخرىٰ التي ينقل منها الغزالي كالرسالة القشيرية وحلية الأولياء.

٧ – فسر الآيات القرآنية التي استشهد بها الغزالي.

٨ – شرح الألفاظ اللغوية الغريبة والمصطلحات والمفاهيم التي تحتاج إلىٰ بيان.

٩ – اقتصر في عرض المسائل الفقهية علىٰ ذِكر المذهب الحنفي الذي هو مذهبه والمذهب الشافعي الذي هو مذهب الغزالي، ولا يذكر المذهبين الحنبلي والمالكي إلا عَرَضًا من خلال إشارات يسيرة ينقلها عن «طرح التثريب» للعراقي أو «اختلاف الأئمة العلماء» لابن هبيرة.

١٠ – ترجم للأعلام الذين ذكرهم الغزالي من الصحابة والتابعين والمحدِّثين والعلماء ومشايخ الصوفية، لكن معظم هذه التراجم مختصرة جدًا، ولم يخرج الزبيدي عن منهج الاختصار إلا في تراجم قليلة جدًا كترجمة الواقدي وترجمة أبي نعيم الأصفهاني.

١١ – ذكر كثيرًا من المسائل والفوائد المتعلقة بعلم الفلك، وعلم الطب والأغذية، وعلم التشريح، وعلم الحيوان، وأطال في ذلك، كما تجده في كتاب الصلاة (عند الكلام عن المواقيت) وكتاب السفر، وكتاب الأكل، وكتاب النكاح، وكتاب عجائب القلب، وكتاب التفكر.

١٢ – خرَّج أحاديث الإحياء تخريجًا مفصلاً، فهو يذكر متن الحديث كما أورده الغزالي، وبعض الأحاديث يتخللها بشرح مختصر أو مطوَّل يبيِّن فيه معاني ألفاظه وعباراته والفوائد المستفادة منه والتعريف براويه، وبعض الأحاديث الأخرىٰ يكتفي بذكر متونها دون شرح. ثم يُتبِع ذلك بتخريج العراقي الذي يكون مختصرًا في الغالب، وقد ذكر العراقي منهجه في مقدمة المغني بقوله: «واختصرته غاية الاختصار؛ ليسهُل تحصيله وحملُه في الأسفار، فاقتصرت فيه علىٰ ذِكر طرف الحديث وصحابيه ومخرِّجيه وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه، وأبيِّن ما ليس له أصل في كتب الأصول. فإن كان الحديث

في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه، وإلا عزوته إلىٰ مِن خرَّجه من بقية الستة. وحيث كان في أحد الستة لم أعزُه إلىٰ غيرها إلا لغرض صحيح بأن يكون في كتاب التزم مخرِّجه الصحة أو يكون أقرب إلىٰ لفظه في الإحياء، وحيث كرَّر المصنِّف ذِكر الحديث، فإن كان في باب واحد منه اكتفيتُ بذكره أول مرة، وربما ذكرتُه فيه ثانيًا وثالثًا لغرض أو لذهول عن كونه تقدم، وإن كرَّره في باب آخر ذكرته ونبَّهت علىٰ أنه تقدم، وربما لم أنبِّه علىٰ تقدُّمه لذهول عنه، وحيث عزوتُ الحديث لمَن خرَّجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ بعينه، بل قد يكون بلفظه، وقد يكون بمعناه أو باختلاف علىٰ قاعدة المستخرجات، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت ما يغني عنه غالبًا، وربما لم أذكره». ا.هـ.

وقد استدرك علىٰ تخريجات العراقي بعضُ مَن جاءه بعده، منهم تلميذه ابن حجر العسقلاني، وشمس الدين الداودي أحد تلاميذ الجلال السيوطي، حيث ذكروا بعض ما فاته أو صحَّحوا بعض ما غلط فيه، وقد أورد الزبيدي كثيرًا من هذه الاستدراكات عقيب كلام العراقي. كما استدرك الزبيدي نفسه بعض الأحاديث التي قال عنها العراقي إنه لا أصل لها. وفي بعض المواضع يكتفي الزبيدي بتخريج العراقي، وفي أكثرها يزيد علىٰ تخريجه بذكر مصادر وطرق وشواهد أخرىٰ للحديث، وينقل حكم العلماء عليها بالصحة أو الضعف. ومن مآثر الزبيدي التي يكاد ينفرد بها بين علماء عصره أنه يسوق أحاديث بسنده الطويل إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ويذكر طرق الحديث المتعددة، لا سيما في الأحاديث المشهورة، وشيخه في غالب هذه الأحاديث هو عمر بن أحمد بن عقيل المكي. وبعد أن يفرغ الزبيدي من شرح وتخريج أحاديث الإحياء يورد كثيرًا من الأحاديث التي لم يذكرها الغزالي وهي علىٰ شرطه ولها تعلُّق بالموضوع الذي هو بصدده،

وهو في الغالب ينقل هذه الأحاديث من كتاب «الجامع الكبير» للسيوطي أو غيره من كتبه. وهو يعتمد اعتمادًا شِبه كلي فيما يورده من علم الحديث اصطلاحًا وتخريجًا وشرحًا علىٰ كتب العلماء المصريين كالعراقي وابن حجر والسيوطي والسخاوي والمناوي.

مصادر الزبيدي

لا ريب في أن مَن رام الشروعَ في عمل ضخم كشرح الإحياء فعليه أن يحشد له المصادر الكثيرة المتنوعة التي تعينه علىٰ إنجاز هذا العمل، لا سيما مع كثرة موضوعات الإحياء وغزارة مادته العلمية، وتبحُّره في فنون كثيرة من العقيدة والتفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف والأدب وغير ذلك، وقد ذكر الزبيدي في خلال شرحه مئات المصادر التي استقَىٰ منها مادة هذا الشرح. لكن الحق أن الزبيدي لم ينقل عن جميع هذه المصادر مباشرةً، بل نقل عن أكثرها بواسطة كتب أخرىٰ. فمثلاً يذكر «فتح الباري» لابن حجر، وإنما ينقل عنه بواسطة «فيض القدير» للمناوي. ويذكر أيضًا «تهذيب اللغة» للأزهري، وإنما ينقل عنه بواسطة «المصباح المنير» للفيومي. ويذكر أيضًا «التمهيد» لابن عبد البر، وإنما ينقل عنه بواسطة «طرح التثريب» للعراقي ... وهكذا. كما أنه لم يرجع إلىٰ كتب الحديث المسندة إلا قليلاً، وإنما يعتمد علىٰ كتب التخريج والشروح، ويُستثنَىٰ من ذلك: صحيح البخاري، وحلية الأولياء، وأجزاء من مصنَّف ابن أبي شيبة، وكتاب المتفجِّعين، وربما بعض كتب ابن أبي الدنيا.

ويمكننا أن نجمل المصادر التي نقل عنها الزبيدي مباشرةً وأكثرَ من الاعتماد عليها فيما يلي:

* فمن مصادره في العقيدة: «الأسماء والصفات» لأبي منصور البغدادي، و«تحرير المطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب» للبكي، و«شرح لُمَع الأدلة» لابن التلمساني، وشرح العقيدة الكبرىٰ والصغرىٰ للسنوسي، و«شرح العمدة»

لأبي البركات النسفي، و«المسامرة شرح المسايرة» للكمال ابن أبي شريف، و«الشريعة» للآجري.

* ومن مصادره في التفسير: «أنوار التنزيل» للبيضاوي، و«الدر المنثور» للسيوطي.

* ومن مصادره في علوم القرآن: «الإتقان» للسيوطي.

* ومن مصادره في تخريج الأحاديث: «المغني» للعراقي، و«الجامع الكبير» للسيوطي، و«التلخيص الحبير» و«نتائج الأفكار» كلاهما لابن حجر، و«المقاصد الحسنة» للسخاوي.

* ومن مصادره في شرح الأحاديث: «فيض القدير» للمناوي، و«طرح التثريب» للعراقي، و«أشرف الوسائل» لابن حجر الهيتمي.

* ومن مصادره في الفقه الشافعي: «فتح العزيز» للرافعي، و«روضة الطالبين» للنووي، و«مغني المحتاج» للشربيني، و«شرح المحرر» للأصفهاني.

* ومن مصادره في الفقه الحنفي: «تبيين الحقائق» للزيلعي، و«الهداية» للمرغيناني، و«شرح النقاية» لأحمد بن محمد الشمنِّي، و«إمداد الفتاح» للشرنبلالي، و«شرح معاني الآثار» للطحاوي.

* ومن مصادره في فقه المذاهب الأربعة: «اختلاف الأئمة العلماء» لابن هبيرة.

* ومن مصادره في اللغة: «المصباح المنير» للفيومي، و«بصائر ذوي التمييز» للفيروزآبادي، و«التوقيف» للمناوي.

* ومن مصادره في التصوف: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، و«الفتوحات المكية» لمحيي الدين ابن عربي، و«عوارف المعارف» للسهروردي، و«إحكام الدلالة بشرح الرسالة القشيرية» لزكريا الأنصاري، و«مقاصد منجيات

الإحياء» لمحمد بن إسحاق الصوفي، و«دستور الطريقة النقشبندية» لتاج الدين النقشبندي.

* ومن مصادره في التراجم: «الرسالة القشيرية»، و«طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي، و«تهذيب الكمال» للمزي، و«تقريب التهذيب» و«الإصابة» كلاهما لابن حجر، و«لُباب الأنساب» لابن الأثير، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن.

* ومن مصادره في التاريخ: «خلاصة التواريخ» لأكمل الدين الشرواني الحنفي.

* ومن مصادره العلمية: «الأنواء» لأبي حنيفة الدينوري، و«شفاء الأسقام ودواء الآلام» لحاجي باشا، و«حياة الحيوان» للدميري.

* ومن مصادره في موضوعات أخرىٰ: «شرح الصدور» للسيوطي، و«الثبات عند الممات» لابن الجوزي، و«المتفجعين» لمحمود بن محمد الأديب الأنطاكي، و«القِرىٰ لقاصد أم القُرىٰ» للمحب الطبري، و«الأزهية في أحكام الأدعية» للزركشي، و«المدخل» لابن الحاج، و«الذريعة» للراغب الأصفهاني، و«الذهب الإبريز» لأحمد بن مبارك السجلماسي، و«الزواجر عن اقتراف الكبائر» لابن حجر الهيتمي، و«نهج البلاغة» للشريف الرضي، و«مصارع العشّاق» للسراج، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني، و«الإمتاع في أحكام السماع» لكمال الدين الإدفوي، و«المقامات» للحريري.

* أما كتب الغزالي التي أكثرَ من النقل عنها فهي: «المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ»، و«مشكاة الأنوار»، و«المعارف العقلية»، و«الأربعين في أصول الدين»، و«الإملاء في إشكالات الإحياء».

مزايا الإتحاف وما انتقد عليه

* أما المزايا فنلخِّصها في النقاط التالية:

١ – أنه الشرح الوحيد لكتاب الإحياء.

٢ – أنه كتاب موسوعي ضخم حوىٰ من كل علم وفن، ففيه العقيدة والتفسير والحديث والفقه وأصوله والأخلاق والآداب والتصوف والحكمة والتراجم والتاريخ واللغة والأدب والشعر والطب والتشريح والفلك، وقد لا أبالغ إذا قلتُ: إنه يقوم مقام مكتبة بأكملها ويغني عنها.

٣ – أنه توجد فيه نصوص كثيرة جدًّا عن كتب سابقة عليه هي الآن في عِداد المفقودات، ولا تكاد هذه النصوص توجد في غيره من الكتب، فكان الإتحاف هو المصدر الوحيد الذي يمكن من خلاله الاطِّلاع علىٰ هذه النصوص.

٤ – أنه يُعَدُّ موسوعة حديثية هامة، فقد زاد في التخريج عما ذكره العراقي زيادات كثيرة مهمة، وذكر أحاديث كثيرة سوىٰ ما ذكره الغزالي، ولذلك كان وما زال أحد المراجع الحديثية المعتبَرة لدىٰ العلماء والباحثين، ولا عجب في ذلك فقد كان الزبيدي من كبار علماء عصره في الحديث.

* أما ما انتقد علىٰ الإمام الزبيدي فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ – أنه قد ينقل النصوص من أصحابها فيتابعهم في أخطائهم دون التنبُّه لها أو التنبيه عليها، والاولىٰ أنه يمحصها ويدققها.

٢ – أنه قد يخطئ في عزو بعض الأحاديث والآثار إلىٰ مخرِّجيها، وربما خلط

بين الأحاديث أو أوردها بغير سياقها الذي رواها به أصحاب الكتب الذين يعزوها إليهم.

٣ - أنه ربما يورد تراجم مختصرة جدًّا للأعلام الذين يذكرهم الغزالي بما لا يكفي للتعريف بهم جيدًا. كما أنه أخطأ في تحديد بعض الأعلام المذكورين، وذلك إما لعدم رجوعه إلىٰ الأصول، أو للتشابه بين الأسماء، وقد نبَّهت علىٰ ذلك في حواشي الكتاب.

٤ - أنه عادةً ما يغفل نسبةَ الأشعار إلىٰ قائليها، إلا في بعض أشعار المتنبي، والأولىٰ نسبتها لقائليها.

طبعات الإتحاف

فإن الإتحاف قد طُبع من قبل ثلاث طبعات، وهي:

١ – طبعة مدينة فاس المغربية عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، في ١٤ مجلدًا. وهذه الطبعة لم يتسنَّ لي الاطلاع عليها.

٢ – طبعة المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، في ١٠ مجلدات. وهي أشهر طبعات الكتاب، وعليها يعوِّل العلماء والباحثون والدارسون ومحققو الكتب.

٣ – طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، في ١٤ مجلدًا. وليس لهذه الطبعة ميزة عن الطبعتين السابقتين سوىٰ جودة الطبع ووضع علامات الترقيم، مع سقطٍ وأخطاء لا تُحصىٰ.

ومما يؤسف له حقًّا أن هذا الكتاب الموسوعي القيم لم ينلْ حظه من الاهتمام من قِبَل المحققين ودُور النشر والمؤسسات الكبرىٰ، فبقي دون ضبط وتحقيق، وامتلأت طبعاته بالسقط والتحريف والتصحيف، وهذا ما دفعني إلىٰ تحقيقه أملاً في إخراج هذا الكتاب بالشكل الذي يليق بمكانته بين كتب التراث الإسلامي.

عملي في الكتاب

١ – اعتمدت في تحقيق الكتاب علىٰ نسختين، إحداهما مطبوعة، والأخرىٰ مخطوطة:

* أما النسخة المطبوعة فهي تلك التي طبعت في المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م، بتصحيح محمد الزهري الغمراوي، في ١٠ مجلدات كبار، وقد ذكر مصححها أنها طبعت علىٰ نسخة واحدة بخط المؤلف، ووُضع بهامشها متن الإحياء كاملاً. وهذه الطبعة كثيرة الأخطاء، وهذه الأخطاء تعود إلىٰ أخطاء في الطباعة، أو في قراءة المخطوطة. وفي كثير من المواضع وجدنا هذه الأخطاء في المخطوطة أيضًا، بمعنىٰ أنها من المؤلف نفسه. وتم وضع متن الإحياء داخل قوسين ( ) لتمييزه عن الشرح وبخط غامق.

* أما النسخة الخطية فلم نعثر منها إلا علىٰ أجزاء متفرقة، وقد استفدنا منها في تصحيح بعض أخطاء المطبوعة واستدراك ما وقع فيها من نقص، ولذا أهملنا ذكر معظم الفروق بين المطبوعة والمخطوطة. وهذه النسخة بخط الزبيدي، ومكتوبة بخط فارسي جيد، وعدد الأسطر في كل صفحة يتراوح بين ٢٠ – ٢٥ سطراً، وبها ضرب علىٰ أسطر كثيرة، بالإضافة إلىٰ ما استدركه أو زاده المؤلف في الحاشية. وقد ميز الشارح متن الإحياء بوضع خط فوقه.

٢ – قارنت بين نص الزبيدي وبين نصوص المصادر التي ينقل عنها، وذكرت الفروق بينهما عند الضرورة. وقد ساعدني في ذلك أن أكثر مادة الكتاب هي

نقول عن الكتب الأخرىٰ. وما استدركته من نقصٍ أو سقطٍ من هذه المصادر ورأيته ضروريا للسياق أثبته بين معقوفين [ ].

٣ - ذكرت في الهوامش المصادر التي نقل عنها الزبيدي أو ذكرها أثناء شرحه ووثَّقت نصوصها، واقتصرت علىٰ المطبوع من الكتب دون المخطوط، وذكرت رقم الجزء والصفحة واسم الطبعة؛ ليسهُل الرجوعُ إليها عند الحاجة.

٤ - خرجت الآيات القرآنية داخل النص.

٥ - خرَّجت الأحاديث النبوية المرفوعة وآثار الصحابة وأقوال التابعين ومَن بعدهم. أما الأحاديث المرفوعة فاقتصرت غالبًا علىٰ المصادر التي يذكرها الزبيدي، ولم أزدْ عليها إلا ما تدعو الحاجة إليه، كالعزو إلىٰ مصدر مفقود أو وجود فائدة زائدة أو غير ذلك. واكتفيت برقم الجزء والصفحة دون اسم الكتاب والباب ورقم الحديث قصدًا للاختصار. أما آثار الصحابة وأقوال التابعين والحكماء ومشايخ الصوفية وغيرهم والحكايات الواردة في الكتاب، فأعزوها إلىٰ مصادرها المسندة غالبًا، أو غير المسندة قليلاً. وكثير من هذه الآثار والأقوال والحكايات لم أقف عليها في غير الإحياء.

٦ - خرَّجت الأشعار سواء تلك التي استشهد بها الغزالي أو زادها الزبيدي عليه، فإن كانت في ديوان مشهور اكتفيت بعزوها إليه، فإن كان الشاعر معروفًا ولم يُجمَع شعره في ديوان أو كان الشعر مختلفًا في نسبته خرَّجته من كتب اللغة والأدب والتاريخ والتراجم. فإن كان قائله مجهولاً قلت: لم أقف علىٰ قائله.

٧ - شرحت كثيرًا من المصطلحات العلمية وأسماء البلدان الواردة في الكتاب إتمامًا للفائدة واتباعًا للمنهج العلمي الحديث. ومما يُستغرَب أن معظم المحققين يشرحون هذه المصطلحات ويتكلمون علىٰ أسماء البلدان من خلال النقل

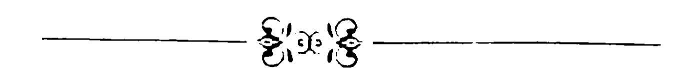
عن الكتب القديمة التي تجاوزها الزمن مثل لسان العرب ومعجم البلدان وغيرهما، وتجدهم يستروحون في ذلك ولا يكلِّفون أنفسهم عناء الرجوع إلىٰ الموسوعات العامة والمتخصصة أو المراجع العلمية الحديثة.

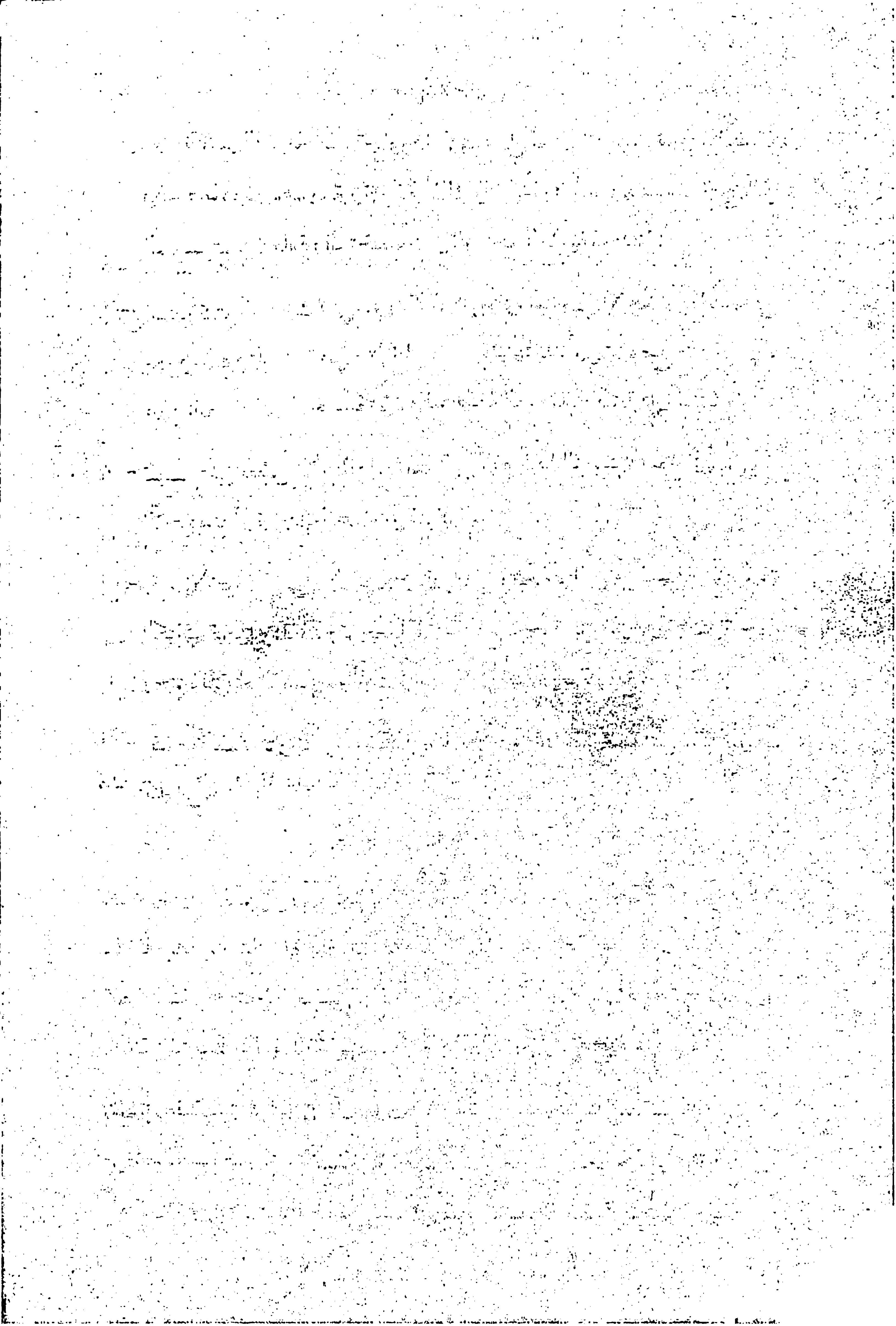
٨ – استدركت العبارات التي لم يذكرها الزبيدي من متن الإحياء، وذلك حتىٰ يكون المتن تاما لا نقص ولا خلل فيه. وقد اعتمدت في تصحيح متن الإحياء علىٰ النص الذي في حاشية الإتحاف بطبعة الميمنية، وطبعة دار المنهاج.

٩ – نبَّهت علىٰ بعض الأخطاء العلمية التي وقع فيها الزبيدي، سواء في تخريج الأحاديث أو تراجم الأعلام أو غير ذلك.

١٠- قام الأخوان الكريمان، عثمان النابلسي ومحمد الشيخ حسين، بمراجعة الكتاب كاملاً ودققاه، وترجموا للغزالي مع ترجمة الزبيدي. وقدمت بترجمة وجيزة للإمام الزبيدي، وأثبتُّ ترجمتين له لمن أراد التوسع.

١١- كما قامت الدار بفهرسة الكتاب كاملاً فجزاها الله خيراً عن هذا الجهد النفيس.





ترجمة الإمام الغزالي رضي الله عنه وأرضاه

اسمه ونسبه:

هو حجة الإسلام المتفرّد بلقبه، ومحجة الدين المتحقق بحسَبه، وزبدة عصره والأعصار اللاحقة ويتيمة الدهر بأنوار الاصطفاء السابقة، الإمام محمد ابن محمد بن محمد[1] بن أحمد الطوسي، قلم الشريعة والحقيقة، الجامع للعلوم

---

(١) وتكرار اسم الحبيب الأعظم ﷺ في اسم الابن والأب والجد كثير إلىٰ عصرنا هذا، ومن محاسن الأقدار وأسراره تطابق اسم الإمام الغزالي صاحب الإحياء والإمام الزبيدي الشارح، فكلاهما اسمه محمد بن محمد بن محمد، ولا أظن هذا إلا من بركات اسم سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله صلىٰ الله عليه وآله وصحبه ومن والاه، وقد عدّ الإمام تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرىٰ ثلةً من العلماء ورجال الأسانيد ممّن تشرفوا بهذه التسمية، ومنهم:

١ ـ محمَّد بن مُحَمَّد بن الْحُسَيْن أَبُو تَغْلَب الوَاسِطِيّ القَاضِي، تفقه علىٰ أبي إِسْحَاق الشِّيرَازِيّ، مَاتَ بواسط فِي شهر رَمَضَان سنة ثَلَاثِينَ وَخَمْسمِائَة.

٢ ـ محمد بن مُحَمَّد الشَّيْخ فَخر الدّين الصّقليّ، مُصَنف التَّنْجِيز فِي الْفِقْه وَهُوَ التَّعْجِيز إِلَّا أَنه يزِيد فِيهِ تَصْحِيح الْخلاف وَبَعض قيود، كَانَ فَقِيها دينا ورعا تفقه علىٰ الشَّيْخ قطب الدّين السنباطي، وَولي الْقَضَاء بِبَعْض جَوَانِب الْقَاهِرَة، وَمَات فِي خَامِس عشر ذِي الْقعدَة سنة سبع وَعشْرين وَسَبْعمائة.

٣ ـ محمد بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن عبد الله بن مُحَمَّد ابْن يحيىٰ بن سيد النَّاس، الْحَافِظ الأديب فتح الدّين أَبُو الْفَتْح بن الْفَقِيه أبي عَمْرو بن الْحَافِظ أبي بكر الْيَعْمرِي الأندلسي الأشبيلي ثمَّ الْمصْرِيّ، أجَاز لَهُ النجيب الْحَرَّانِي وَحضر علىٰ الشَّيْخ شمس الدّين بن الْعِمَاد الْحَنْبَلِيّ، وَسمع من قطب الدّين بن الْقُسْطَلَانِيّ، إلىٰ أخر ترجمته. =

والحكم أبو حامد الغزالي، أعلى الله ذكره في العالمين ومكّن في قلوبنا محبّته إلى يوم الدين.

مولده ونشأته:

وُلد بقرية طوس من أعمال نيسابور (٤٥٠هـ)، وَكَانَ وَالِده يغزل الصُّوف ويبيعه فِي دكانه بطوس، فَلَمَّا حَضرته الْوَفَاة وصّى بِهِ وبأخيه أَحْمد إِلَى صديق لَهُ متصوف من أهل الْخَيْر وَقَالَ لَهُ إِن لي لتأسفًا عَظِيمًا على تعلم الخط، وأشتهي استدارك مَا فَاتَنِي فِي وَلَدي هذَيْن، فعلِّمهما وَلَا عَلَيْك أَن تنفذ فِي ذَلِك جَمِيع مَا أخلفه لَهما، فَلَمَّا مَاتَ أقبل الصُّوفِي على تعليمهما إِلَى أَن فنى ذَلِك النزر الْيَسِير الَّذِي كَانَ خَلفه لَهما أَبوهُمَا، وَتعذر على الصُّوفِي الْقيام بقوتهما، فَقَالَ لَهما: اعلما أَنِّي قد أنفقت عَلَيْكُمَا مَا كَانَ لَكمَا، وَأَنا رجل من الْفقر والتجريد بِحَيْثُ لَا مَال لي فأواسيكما بِهِ، وَأصْلح مَا أرى لَكمَا أَن تلجآ إِلَى مدرسة كأنكما من طلبة الْعلم، فَيحصل لَكمَا قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذَلِك وَكَانَ هُوَ السَّبَب فِي سعادتهما وعلو درجتهما، وَكَانَ الْغَزالِيّ يَحْكِي هَذَا وَيَقُول: طلبنا الْعلم لغير الله فَأبى أَن يكون إِلَّا لله[1]!

ذكر الإمام تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى في ترجمة الإمام حجة الإسلام الغزالي: قَرَأَ فِي صباه طرفًا من الْفِقْه بِبَلَدِهِ على أَحْمد بن مُحَمَّد الراذكاني، ثمَّ سَافر إِلَى جرجان إِلَى الإِمَام أبي نصر الْإِسْمَاعِيلِيّ وعلق عَنهُ التعليقة، ثمَّ رَجَعَ

= ٤ ـ مُحَمَّد بن أَحْمد بن الْعَبَّاس الْفَارِسِي القَاضِي أَبُو بكر الْبَيْضَاوِيّ، كَانَ إِمَامًا جَلِيلًا لَهُ الرُّتْبَة الرفيعة فِي الْفِقْه وَله معرفَة بالأدب صنف فِي كل مِنْهُمَا وَكَانَ يعرف بالشافعي، وَأَبُو بكر هَذَا هُوَ مُصَنف التَّبْصِرَة فِي الْفِقْه. إلىٰ آخر ترجمته.

(١) الطبقات الكبرىٰ للإمام تاج الدين السبكي ﷺ.

إِلَى طوس، قَالَ الإِمَام أسعد الميهني فَسَمعته يَقُول: قطعت علينا الطَّرِيق وَأخذ العيارون جَمِيع مَا معي ومضوا، فتبعتهم، فَالْتَفت إليّ مقدمهم وَقَالَ: ارْجع وَيحك وَإِلَّا هَلَكت، فَقلت لَهُ: أَسأَلك بِالَّذِي ترجو السَّلامَة مِنْهُ أَن ترد عليّ تعليقتي فَقَط، فَمَا هِيَ بِشَيْء تنتفعون بِهِ، فَقَالَ لي: وَمَا هِيَ تعليقتك، فَقلت كتبي فِي تِلْكَ المخلاة، هَاجَرت لسماعها وكتابتها وَمَعْرِفَة علمهَا، فَضَحِك وَقَالَ: كَيفَ تَدعِي أَنَّك عرفت علمهَا وَقد أخذناها مِنْك فتجردت من مَعْرفَتهَا وَبقيت بِلَا علم، ثمَّ أَمر بعض أَصْحَابه فَسلم إِلَى المخلاة، قَالَ الْغَزالِيّ: فَقلت: هَذَا مستنطق أنطقه الله ليرشدني بِهِ فِي أَمْرِي، فَلَمَّا وافيت طوس أَقبلت على الِاشْتِغَال ثَلَاث سِنِين حَتَّى حفظت جَمِيع مَا علقته، وصرت بِحَيْثُ لَو قطع عليّ الطَّرِيق لم أتجرد من علمي.

وَقد روى هَذِه الْحِكَايَة عَن الْغَزالِيّ أَيْضا الْوَزير نظام الْملك كَمَا هُوَ مَذْكُور فِي تَرْجَمَة نظام الْملك من ذيل ابْن السَّمْعَانِيّ.

ثمَّ إِن الْغَزالِيّ قدم نيسابور ولازم إِمَام الْحَرَمَيْنِ، وجدَّ واجتهد حَتَّى برع فِي الْمَذْهَب وَالْخلاف والجدل والأصلين والمنطق، وَقَرَأَ الْحِكْمَة والفلسفة وَأحكم كل ذَلِك، وَفهم كَلَام أَرْبَاب هَذِه الْعُلُوم وتصدى للرَّدّ على مبطليهم وَإِبْطَال دعاويهم، وصنف فِي كل فن من هَذِه الْعُلُوم كتبا أحسن تأليفها وأجاد وَضعهَا وترصيفها، كَذَا نقل النقلَة، وَأَنا لم أر لَهُ مصنفا فِي أُصُول الدّين بعد شدَّة الفحص إِلَّا أَن يكون قَوَاعِد العقائد وعقائد صغرى، وَأما كتاب مُسْتَقل على قَاعِدَة الْمُتَكَلِّمين فَلم أره، وسأعقد فصلاً لأسماء مَا وقفت عَلَيْهِ من تصانيفه.

وَكَانَ ﷺ شَدِيد الذكاء، سديد النّظر، عَجِيب الْفطْرَة مفرط الْإِدْرَاك قوي الحافظة، بعيد الْغَوْر، غوَّاصًا على الْمعَانِي الدقيقة، جبل علم، مُنَاظراً مِحجاجًا. (اهـ).

جلس للدرس في النظامية في بغداد بعدما ضاقت نيسابور على علومه، وحوله مئات العمائم من العلماء والطلبة، ثم لما وافته نسمة الاصطفاء، ترك كل ما كان فيه، وساح في البلدان، فدخل القدس الشريف ودمشق والخليل ومكة والمدينة، ورجع لقريته ولازم الخانقاه إلى أن مات، وصنّف الإحياء وغيره من كتبه بعد تلك الجذبة الربانية.

وأما ثناء العلماء عليه فمشهور كثير، ننتقي منها هذه الأربعة.

قال عنه شيخه إمام الحرمين إنه بحرٌ مُغدق.

وَقَالَ عنه الإمام الفقيه أسعد الميهني(ت٥٢٧ هـ): لَا يصل إِلَى معرفَة علم الْغَزالِيّ وفضله إِلَّا من بلغ أَو كَاد يبلغ الْكَمَال فِي عقله. وهذا من أكمل المديح.

ونقل الإمام ابن عطاء الله السكندري في لطائف المنن عن الإمام سيدي أبي الحسن الشاذلي ﷺ أنه قال: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد.

ونقل الإمام ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب عن الإمام الإسنوي أنه قال: الغزالي إمام، باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المحابر وتهتز الطروس، وبسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس. وهو قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود، وروح خلاصة أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن، يتقرب إلى الله به كل صديق ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق.

مصنفاته:

لَهُ فِي المذْهَب: الْوَسِيط والبسيط وَالْوَجِيز وَالخلَاصَة. وَفِي سَائِر الْعُلُوم:

* كتاب إِحْيَاء عُلُوم الدّين.

* كتاب الْأَرْبَعين.
* كتاب الْأَسْمَاء الْحسنى.
* المستصفى فِي أصُول الْفِقْه.
* المنخول فِي أصُول الْفِقْه، أَلَّفه فِي حَيَاة أستاذه إِمَام الْحَرَمَيْنِ.
* بداية الْهِدَايَة
* المآخذ فِي الخلافيات.
* تحصين المآخذ.
* كيمياء السَّعَادَة بِالْفَارِسِيَّةِ.
* المنقذ من الضلال.
* اللباب المنتخل فِي الجدل.
* شفاء الغليل فِي بَيَان مسالك التَّعْلِيل.
* الاقتصاد فِي الِاعْتِقَاد.
* معيار العلم.
* مِحَكُّ النّظر.
* بَيَان الْقَوْلَيْنِ للشَّافِعِيّ.
* مشكاة الْأَنْوَار.
* المستظهري، فِي الرَّد على الباطنية.
* تهافت الفلاسفة.

* المقاصد فِي بَيَان اعْتِقَاد الْأَوَائِل، وَهُوَ مَقَاصِد الفلاسفة.
* الغاية القصوى.
* جواهر الْقُرْآن.
* بَيَان فضائح الإمامية.
* غور الدّور فِي الْمَسْأَلَة السرجية، وَهُوَ الْمُخْتَصر الْأَخير فِيهَا، رَجَعَ فِيهِ عَن مُصَنفه الأول فِيهَا الْمُسَمّى بغاية الْغَوْر فِي دراية الدّور.
* كشف عُلُوم الْآخِرَة.
* الرسالة القدسية.
* الفتاوى.
* ميزان الْعَمَل.
* قواصم الباطنية وَهُوَ غير المستظهري فِي الرَّد عَلَيْهِم.
* حَقِيقَة الرّوح.
* كتاب أسرار معاملات الدّين.
* عقيدة الْمِصْبَاح.
* المنهج الْأَعْلَى.
* أخلاق الْأَنْوَار.
* المعراج.
* حجَّة الْحق.
* تنبيه الغافلين.

* إلجام الْعَوام عن علم الْكَلَام.
* المكنون فِي الْأُصُول.
* رسالة الأقطاب.
* مُسلم السلاطين.
* القانون الْكُلِّي.
* القربة إِلَى الله.
* معيار الْعلم.
* مفصل الْخلاف فِي أصُول الْقيَاس.
* أسرار اتِّبَاع السّنة.
* تلبيس إِبْلِيس.
* المبادئ والغايات.
* الأجوبة.
* كتاب عجائب صنع الله.
* رسالة الطير.
* الرَّد على من طَغى.

وقد نشر الأستاذ عبد الرحمن بدوي كتابه «مؤلفات الغزالي» سنة (١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م)، وذكر فيه (٤٥٧) مصنفاً يُنسب إلى الغزالي، وقسّمه على النحو التالي:

من (١) إلى (٧٢): كتب مقطوع بصحة نسبتها إلى الغزالي.

من (٧٣) إلى (٩٥): كتب يدور الشك في صحة نسبتها إلى الغزالي.

من (٩٦) إلى (١٢٧): كتب من المرجح أنها ليست للغزالي.

من (١٢٨) إلى (٢٢٤): أقسام من كتب الغزالي أفردت كتبًا مستقلة، وكتب وردت بعنوانات مغايرة.

من (٢٢٥) إلى (٢٧٣): كتب منحولة.

من (٢٧٤) إلى (٣٨٠): كتب مجهولة الهوية.

من (٣٨١) إلى (٤٥٧): مخطوطات موجودة ومنسوبة إلى الغزالي.

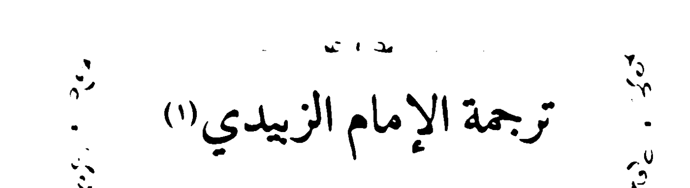
واستدرك الباحثون عليه، وهذا من عظيم شأنه وقوة تأثيره ﷺ.

وفاته:

تُوفي بطوس سنة (٥٠٥هـ). ودفن فيها بمقبرة طابران في مشهد ما زال هناك. روى أبو الفرج بن الجوزي في كتابه «الثبات عند الممات»، عن أحمد (أخو الغزالي): «لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلّى، وقال: «عليّ بالكفن»، فأخذه وقبّله، ووضعه على عينيه وقال: «سمعًا وطاعة للدخول على الملك»، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار»، وقد سأله قبيل الموت بعضُ أصحابه، فقالوا له: أوصِ، فقال: «عليك بالإخلاص» فلم يزل يكررها حتى مات، رحمه الله وأجرى بفضله على قبره أنهار الرضى والقبول[1].

---

(١) تم اقتباس ترجمة الإمام الغزالي من كتاب الاقتصاد في الاعتقاد بتحقيق محمد الشيخ حسين، طبعة دار النور المبين، وسيترجم لحجة الإسلام الإمام الغزالي بترجمة واسعة حضرة الشارح في مقدّمته.



ترجمة الإمام الزبيدي[1]

اسمه وكنيته:

هو محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق بن عبد الغفار. يرتفع نسبه إلىٰ زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. واشتهر بالسيد مرتضَىٰ الحسيني، وتكنَّىٰ بأبي الفيض، وذكر الكتاني كنية أخرىٰ له وهي: أبو الوقت، وكناه تلميذُه علي بن عبد الله الحَسَني بأبي الجود.

---

(١) مصادر الترجمة:

* عجائب الآثار في التراجم والأخبار، لعبد الرحمن الجبرتي ٢/ ٣٠٣ - ٣٢١ (ط - مطبعة دار الكتب المصرية).
* حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، لعبد الرزاق البيطار ص ١٤٩٢ - ١٥١٦ (ط - مجمع اللغة العربية بدمشق).
* فهرس الفهارس والأثبات، لمحمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ١/ ٥٢٦ - ٥٤٩ (ط - دار الغرب الإسلامي).
* أبجد العلوم، لصديق حسن خان ٣/ ١١ - ٢٤ (ط - دار الكتب العلمية).
* الخطط التوفيقية، لعلي مبارك ٣/ ٩٤ - ٩٦ (ط - المطبعة الأميرية ببولاق).
* الأعلام، لخير الدين الزركلي ٧/ ٧٠ (ط - دار العلم للملايين).
* مقدمة كتاب تاج العروس، لعبد الستار أحمد فراج (ط - الكويت).
* مقدمة كتاب التكملة والذيل والصلة، لمصطفىٰ حجازي (ط - الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية).

وقد صنف محمد إبراهيم فني المصري جزءًا صغيرًا في ترجمته سماه: «الجوهر المحسوس في ترجمة صاحب شرح القاموس»، كما ذكره الكتاني في فهرسه.

أصله ومولده:

لا خلاف في أن الزبيدي قد وُلد في سنة ١١٤٥ هـ (١٧٣٢ م)، وقد أرَّخ الزبيدي نفسه لمولده شعرًا في إجازة كتب بها إلىٰ محمد بن بدير المقدسي الشافعي فقال:

كتبت له اسمي وخطِّي محمد وبالمرتضَىٰ عُرفت والله يرعاني
وُلدتُ بعام أرَّخوا «فك ختمه» وبالله توفيقي وبالله تكلاني

ولم يذكر الجبرتي مكان ولادة الزبيدي، وذكر غيره أنه وُلد ببلجرام (أو واسطية بلجرام): إحدىٰ مدن الهند، وكانت مركزًا من مراكز الثقافة الإسلامية في عصره.

وذكر الكتاني أن الزبيدي: واسطي عراقي الأصل، هندي المولد، زبيدي العلم والشهرة، مصري الإقامة والوفاة، حنفي المذهب، قادري الإرادة، نقشبندي السلوك، أشعري العقيدة. وهذا يدل علىٰ أن أسرة الزبيدي عراقية الأصل من واسط العراق لا من واسطية بلجرام، وأنها ارتحلت إلىٰ الهند حيث وُلد الزبيدي هناك. وقد أشار عبد الستار فراج في مقدمة «تاج العروس» إلىٰ أنه تتبع المواد التي يظن أن تَرِدَ فيها بلجرام في «تاج العروس» وهي (بلجرم، ملكرم، بلج، بلك، بلجر، بلكر) فلم يجد لها ذكرًا في أيٍّ منها. وفي مادة (وسط) ذكر الزبيدي أماكن كثيرة تسمَّىٰ واسط، ولكنه لم يُشِرْ في أيٍّ منها إلىٰ أن أصله منها.

وذكر صديق خان في «أبجد العلوم» أن أصل الزبيدي من السادة الواسطية من قصبة بلجرام، وهي علىٰ خمسة فراسخ من قنوج، وراء نهر الجانج، قال: وقد أقام رحمه الله بزبيد حتىٰ قيل له: الزبيدي، واشتهر بذلك، وخفيَ علىٰ كثير من الناس كونُه من الهند ومن بلجرامها، وقد ذكر في برنامجه الذي كتبه للسيد باسط علي بن

السيد علي بن السيد محمد بن السيد قادري بمصر نحوًا من ثلاثمائة شيخ له من الذين أخذ عنهم العلم، وسمَّىٰ منهم من علماء الهند: محمد فاخر بن محمد يحيىٰ الإله آبادي المتخلِّص بالزائر، ومسند الوقت ولي الله الدهلوي صاحب كتاب «حجة الله البالغة». وقد أجاز له مشايخ المذاهب الأربعة وعلماء البلاد الشاسعة، ولقي الشيخ أبا الحسن بن محمد صادق السِّندي المدني صاحب الشروح علىٰ الصحاح الستة، والمولوي خير الدين السورتي بن محمد زاهد، وغيرهما.

وأورد الكتاني مكتوبًا للزبيدي بتاريخ ١١٩٧ هـ يقول فيه: «وكتبه العبد الفقير إلىٰ الله أبو الفيض محمد مرتضىٰ بن محمد بن محمد الحسيني الواسطي العراقي الأصل، الزبيدي، نزيل مصر». ففيه تقرير أن أصله من العراق، ولكنه في آخر حرف الصاد من التاج يقول: «من خط مؤلفه محمد مرتضىٰ الحسيني اليماني». وفي آخر حرف الزاي كتب أحد تلاميذه: «قال شيخنا مؤلف هذا الشرح أبو الجود وأبو الفيض محمد بن محمد بن محمد الحسيني العلوي الزبيدي اليمني الواسطي الحنفي».

وهكذا لا نجد نصًّا للزبيدي يذكر فيه أن مولده في الهند.

حياته قبل مجيئه إلىٰ مصر:

الذي يظهر من سيرة الزبيدي وسلسلة نسبه أنه نشأ في بيت علم وفضل، وعندما بلغ سن الطلب أخذ العلم عمَّن أدركه من آبائه وأقرانهم، كما جرت العادة في مثل هذه البيوتات من تنشئة أبنائها علىٰ حب العلم وطلبه، وقد بدأ في تحصيل العلم وهو في حدود السابعة من عمره، فقد ذكر في مادة (صنع) من التاج أن شيخه عبد الخالق المزجاجي أنشده شعرًا، وقد توفي المزجاجي هذا في سنة ١١٥٢ هـ. وقد أخذ الزبيدي عن شيوخ آخرين باليمن، منهم: محمد بن علاء الدين بن عبد

الباقي المزجاجي، وأحمد بن محمد مقبول الأهدل، وإبراهيم بن خليل الشافعي، وأبو بكر يحيىٰ الزبيدي المدني، وإسماعيل بن محمد الحنفي، وسليمان بن يحيىٰ بن عمر الأهدل، وسليمان بن أبي بكر الهجام، وسليمان بن مصطفىٰ المنصوري الحنفي، وسعيد بن محمد الكبودي، وعبد الله بن سليمان الجوهري، وعبد الله بن أحمد بن وائل الحسني، وعبد الله بن الحسن الشريف صاحب الوادي.

وفي سنة ١١٦٣ رحل إلىٰ الحجاز، وعمره يومئذٍ ثمانية عشر عامًا، ويبدو أنه خرج للحج ولطلب العلم معًا، فاجتمع في مكة بعبد الرحمن العيدروس، وعبد الله بن إبراهيم الميرغني الطائفي، وعمر بن أحمد بن عقيل. وفي المدينة التقىٰ بمحمد بن الطيب الفاسي، وعبد الله السِّندي، وسليمان بن يحيىٰ، وعبد الله السقَّاف.

وفي سنة ١١٦٤ عاد إلىٰ اليمن، فنزل الحُديدة، وسمع «صحيح البخاري» من مشهور بن المستريح الحسيني الأهدل.

ثم عاد إلىٰ الحجاز مرة أخرىٰ سنة ١١٦٦، فنزل الطائف، وأخذ عن عبد الرحمن العيدروس وقرأ عليه ولازمه، فألبسه الخرقة، وأجازه بمروياته ومسموعاته. كما التقىٰ بعبد الله الميرغني، وأخذ عنه الفقه وغيره.

قدومه إلىٰ مصر واستقراره وشهرته فيها:

لم يكتفِ الزبيدي بما حصَّله من علوم في اليمن والحجاز، فعزم علىٰ الذهاب إلىٰ مصر، وقد حكىٰ الجبرتي عن الزبيدي أنه قال: «وهو - يعني شيخه العيدروس - الذي شوَّقني إلىٰ دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها وما فيها من المشاهد الكرام، فاشتاقت نفسي لرؤياها، فحضرت مع الرَّكْب».

يقول الجبرتي: ورد إلىٰ مصر في تاسع صفر سنة ١١٦٧ (أي إن عمره يومئذٍ كان إحدىٰ وعشرين سنة) وسكن بخان الصاغة، وأول مَن عاشره وأخذ عنه علي

المقدسي الحنفي. وحضر دروس أشياخ الوقت، وتلقَّىٰ عنهم وأجازوه، وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه. وسافر إلىٰ الصعيد ثلاث مرات، واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه، وأكرمه شيخ العرب همام بن يوسف وإسماعيل أبو عبد الله وأولاد نصير وأولاد وافي، وهادوه وبرُّوه. وارتحل مرارًا إلىٰ الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة، وأكرمه الجميع، واجتمع بأكابر النواحي وأرباب العلم والسلوك وتلقَّىٰ عنهم وأجازهم وأجازوه، وصنَّف عدة رحلات في انتقالاته في الصعيد والبلاد البحرية تحتوي علىٰ لطائف ومحاورات ومدائح نظمًا ونثرًا.

وفي رسالة للزبيدي بعث بها إلىٰ أحد شيوخه أوردها صديق خان في «أبجد العلوم» ذكر أنه رحل إلىٰ بعض مدن فلسطين لطلب العلم كبيت المقدس والرملة ويافا.

ولم يزل الزبيدي يخدم العلم ويرقىٰ في درج المعالي ويحرص علىٰ جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون كعلم الأنساب وعلم الأسانيد وتخريج الأحاديث واتصال طرائق المحدِّثين المتأخرين بالمتقدمين، وحين صار له من العلم ما يؤهله للتصدِّي للدرس والإقراء أُجيزَ بتدريس علم الحديث.

ثم انتقل إلىٰ منزل بسويقة لالا تجاه جامع محرَّم أفندي بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي، وذلك في أوائل سنة ١١٨٩، وكانت تلك الخطة إذ ذاك عامرة بالأكابر والأعيان، فأحدقوا به، وتحبَّب إليهم، واستأنسوا به وواسوه وهادوه، وهو يُظهِر لهم الغنىٰ والتعفُّف، ويعظهم، ويفيدهم بفوائد وتمائم ورُقىٰ، ويجيزهم بقراءة أوراد وأحزاب، فأقبلوا عليه من كل جهة، وأتوا إلىٰ زيارته من كل ناحية، ورغبوا في معاشرته؛ لكونه غريبًا وعلىٰ غير صورة العلماء المصريين وشكلهم، ويعرف اللغة التركية والفارسية، بل وبعض لسان الكرج، فانجذبت قلوبهم إليه،

وتناقلوا خبره وحديثه.

ثم شرع في إملاء الحديث علىٰ طريقة السلف في ذكر الأسانيد والرواة والمخرِّجين من حفظه علىٰ طرق مختلفة، وكل مَن قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأوَّلية - وهو حديث الرحمة - برُواته ومخرِّجيه، ويكتب له سندًا بذلك وإجازة وسماع الحاضرين، فيَعجبون من ذلك. ثم إن بعض علماء الأزهر ذهبوا إليه وطلبوا منه إجازة، فقال لهم: لا بد من قراءة أوائل الكتب. واتفقوا علىٰ الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة الاثنين والخميس تباعُدًا عن الناس، فشرعوا في «صحيح البخاري» بقراءة السيد حسين الشيخوني، واجتمع عليهم بعض أهل الخطة، والشيخ موسىٰ الشيخوني إمام المسجد وخازن الكتب، وهو رجل كبير معتبَر عند أهل الخطة وغيرها، وتداول الناس سعي علماء الأزهر مثل الشيخ أحمد السجاعي والشيخ مصطفىٰ الطائي والشيخ سليمان الأكراشي وغيرهم للأخذ عنه، فازداد شأنه وعظُم قدرُه، واجتمع عليه أهل تلك النواحي وغيرها من العامة والأكابر والأعيان، والتمسوا منه تبيين المعاني، فانتقل من الرواية إلىٰ الدراية، وصار درسًا عظيمًا، فعند ذلك انقطع عن حضوره أكثر الأزهرية، وقد استغنىٰ هو أيضًا عنهم، وكان يملي علىٰ الناس - بعد قراءة شيء من الصحيح - حديثًا من المسلسلات أو فضائل الأعمال، ويسرد رجال سنده من حفظه، ثم يتبع ذلك بأبيات من الشعر.

وافتتح درسًا آخر لإقراء «الشمائل» للترمذي في مسجد الحنفي بعد العصر في غير الأيام المعهودة، فازدادت شهرته، وأقبل عليه الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدته؛ لكونه علىٰ خلاف هيئة العلماء المصريين وزيِّهم وطريقة درسهم.

وهكذا كان يقضي الزبيدي حياته ما بين الطلب والتحصيل والرواية والإقراء

والتدريس والإملاء وجمع الكتب ونسخها، فإذا عاد إلىٰ بيته عكف علىٰ القراءة والتصنيف.

شيوخه:

صنَّف الزبيدي في أسماء شيوخه معجمين، أحدهما المعجم الكبير، اشتمل علىٰ نحو ٦٠٠ ترجمة لمشايخه والآخذين عنه. والآخر المعجم الصغير، اشتمل علىٰ نحو ٣٠٠ شيخ. كما نظم ألفية السند في ١٥٠٠ بيت، وشرحها في عشر كراريس.

وقد ذكرنا آنفًا عددًا من الشيوخ الذين أخذ عنهم في الهند واليمن والحجاز.

أما في مصر فمن أبرز شيوخه: أحمد بن عبد الفتاح الملَّوي، وأحمد بن حسن الجوهري، وحسن بن علي المنطاوي المدابغي، وعلي بن أحمد الصعيدي العدوي، ومحمد بن محمد البليدي، وشمس الدين الحفني الخلوتي الشافعي، وعبد الله بن محمد الشبراوي، وعبد الحي بن حسن البهنسي، ومحمد بن أحمد بن حجازي العشماوي، والشهاب أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، وعمر بن علي بن يحيىٰ الطحلاوي المالكي، والقطب عبد الوهاب بن عبد السلام المرزوقي العفيفي المالكي، وعلي بن موسىٰ الحسني المقدسي الحنفي، ومحمد بن سالم الحنفي، وأحمد الدردير، وحسن الجدَّاوي، وعطية الأجهوري، وأحمد البيلي، وحسن الهواري، وعلي القناوي، ومحمد بن عيسىٰ بن يوسف الدنجاوي، ومصطفىٰ بن عبد السلام المنزلي.

وأعلىٰ مَن لقيه بمصر سندًا هو المعمر سابق بن رمضان بن عرام الزعبلي الشافعي، وكان له درس لطيف بالجامع الأزهر يحضر عليه الأفراد، ولم يتنبَّه لعلو سنده إلا القليل لاشتغالهم بأحوالهم. ومع ذلك فقد أهمل الزبيدي ذِكره في معظم

معاجمه وأثباته، كما لم يذكره في ألفية السند.

قال الكتاني: ومع كثرة شيوخ المترجَم كثرة مهولة بالنسبة إلىٰ مشايخه ومعاصريه كان غير مكتفٍ بما عنده، بل دائم التطلُّب والأخذ ومكاتبة مَن بالآفاق، حتىٰ إني رأيت بخطه في كناشة ابن عبد السلام الناصري استدعاء كتبه لمَن يلقاه ابن عبد السلام المذكور، ونصه بحروفه: «الحمد لله علىٰ جزيل أفضاله وعميم نواله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وصحبه وآله، وبعد فالمؤمَّل من صدقات موالينا السادات العلماء الأعلام - أدام الله لهم العز والاحتشام، وأتمَّ بهم نظام الإسلام - الإجازة لهذا العبد الفقير إلىٰ مولاه، الكاتب اسمه أدناه، بما تجوز لهم وعنهم روايته في معقول أو منقول أو فروع أو أصول، مع ذكر مشايخهم علىٰ قدر الإمكان، وذكر أسانيدهم إن تيسَّر، وكتب العبد الفقير إلىٰ الله أبو الفيض محمد مرتضىٰ بن محمد بن محمد الحسيني الواسطي العراقي الأصل الزبيدي نزيل مصر غفر الله له بمَنِّه يوم الخميس ١٦ ربيع سنة ١١٩٧ حامدًا مصليًا».

وإن تعجب فاعجبْ لهذه الهمة والحرص من هذا الحافظ العظيم الشأن وعدم شبعه وكثرة نهمه، فإنه عاش بعد كَتْب هذا الاستدعاء نحو الثمان سنوات، وهذا نظير ما وجدته من كَتْب اسم الحافظ ابن الأَبَّار في استدعاء مؤرَّخ بقريب من سنة وفاته، ومنهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا، كما وقفت علىٰ استدعاء كتبه السيد مرتضىٰ لشيخه مفتي زبيد سليمان الأهدل يستجيز منه فيه لنفسه ولجماعة من أصحابه سماهم قال: «ومنهم فتاي بلال الحبشي، وزوجتي زبيدة بنت المرحوم ذو الفقار الدمياطي، وفتاتَي سعادة ورحمة الحبشيتان».

وكان الزبيدي يفخر بكثرة شيوخه وبكثرة الكتب التي اطَّلع عليها، حيث يقول في ألفيته:

وقـلَّ أن تـرىٰ كـتـابـا يُعتمَـد إلا ولـي فيـه اتـصـال بالسند
أو عـالِـمًـا إلا ولـي إلـيـه وسـائـط تـوقـفـنـي عـلـيـه

تلاميذه:

أما تلاميذه فهم كُثُرٌ، فمن مصر: عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ، ومحمد بن أحمد البهي الطندتائي، ومحمد بن مصطفىٰ العشابي.

ومن الحجاز: إبراهيم الرئيس الزمزمي المكي، وعبد الحفيظ العجيمي قاضي مكة، وعمر بن عبد الرسول العطَّار المكي.

ومن الشام: شمس الدين محمد البخاري النابلسي، وحمزة بن النقيب الدمشقي، وعبد اللطيف بن حمزة فتح الله.

ومن العراق: عمر الآمدي الدياربكري، وعثمان بن محمود الهزاري القادري البغدادي.

ومن الجزائر: أبو رأس المعسكري، وشيخ الجماعة بمستغانم محمد بن الجندوز، ومصطفىٰ بن عبد القادر الراشدي.

ومن طرابلس الغرب: أحمد بن عبد الرحمن الطبولي الطرابلسي، وشمس الدين محمد بن خليل بن محمد بن غلبون الخولاني الأندلسي الأصل.

ومن تونس: عمر بن المؤدب الشاذلي، وأولاد شيخه الغرياني الذين أجازهم بثبت مخصوص سماه «العقد المكلَّل بالدر العقياني في إجازة أولاد شيخنا الغرياني»، ومحمد بن حمودة الحسني التونسي الشهير بالصفَّار.

ومن المغرب: عبد العزيز بن حمزة المراكشي، وابن عبد السلام الناصري الدرعي، والمعمر محمد المختار بن محمد بن علي بن عثمان المعطاوي الشهير

بالدمراوي، ومحمد بن عبد الرحمن بصري المكناسي.

ومن اليمن: شمس الدين محمد بن إسماعيل الربعي الأشعري، وأولاد سليمان الأهدل.

زواجه:

لما بلغ الزبيدي مبلغًا عظيمًا من العلم والشهرة وحُسن الحال عزم علىٰ الزواج، ويذكر الجبرتي أن الزبيدي حضر في رحاب السادة الوفائية يوم المولد المعتاد لهم، فكنَّاه أبو الأنوار ابن وفا بأبي الفيض، وذلك يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ١١٨٢، ثم تزوج زبيدة بنت ذي الفقار الدمياطي، وسكن بعطفة الغسَّال، مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة. وقد دام هذا الزواج ١٤ سنة، حيث توفيت زبيدة في سنة ١١٩٦، وكان إذ ذاك في الخمسين من عمره، فحزن عليها حزنًا شديدًا، ودفنها عند مشهد السيدة رقية، وبنىٰ علىٰ قبرها مقامًا ومقصورة، وجعل له ستورًا وفرشًا وقناديل، ولازم قبرها أيامًا كثيرة، وكان يجتمع عنده القراء والمنشدون وعامة الناس، فكان يقدم لهم الأطعمة الفاخرة، ويسقيهم القهوة والشربات، واشترىٰ مكانًا بجوار قبرها وبنىٰ به بيتًا صغيرًا وفرشه وأسكن به أمَّها، وكان يبيت به أحيانًا، ورثاها بعض الشعراء فأجازهم.

ثم تزوج امرأة أخرىٰ، وهي التي مات عنها فحازت هي وأقاربها كل ما تركه من أموال وكتب وأمتعة. ولم يذكر مترجموه اسم هذه الزوجة، ولا تاريخ زواجه بها.

ولم يُرزق الزبيدي أولادًا من زوجته الأولىٰ ولا الثانية.

تقدير الملوك والأكابر له:

في سنة ١١٨٩ انتقل الزبيدي إلىٰ منزل بسويقة لالا بالقرب من مسجد الحنفي، وأقبل عليه الأكابر والأعيان من كل ناحية وتحبَّب إليهم، وواسوه وهادوه، ورغبوا في معاشرته، ودعوه إلىٰ بيوتهم، وعملوا من أجله الولائم الفاخرة، فكان يذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرئ والمستملي وكاتب الأسماء، فيقرأ لهم شيئًا من الأجزاء الحديثية أو بعض المسلسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأولاده، وبناته ونسائه من خلف الستائر، وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة، ثم يختمون ذلك بالصلاة علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم علىٰ النسق المعتاد، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين بما في ذلك أسماء النساء والصبيان، مع ذكر اليوم والشهر والسنة، ويكتب الزبيدي تحت ذلك: «صحيح ذلك».

واعتنىٰ بشأنه إسماعيل كتخدا عزبان ووالاه بِره حتىٰ راج أمرُه وترونق حاله واشتهر ذِكرُه عند الخاص والعام.

وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفىٰ الإسكندراني وأيوب الدفتردار، فسعوا إلىٰ منزله، وحضروا مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة والغلال، فاشترىٰ العبيد والجواري، ولبس الملابس الفاخرة، وركب الخيول المسوَّمة، وعمل الولائم الكبيرة للضيوف، وأكرم الوافدين عليه من البلاد البعيدة.

وحضر عبد الرزاق أفندي الرئيس من تركيا إلىٰ مصر وسمع به، فحضر إليه، والتمس منه الإجازة وقراءة مقامات الحريري، فكان يذهب إليه بعد فراغه من درس شيخون ويطالع له ما تيسَّر من المقامات ويفهِّمه معانيها اللغوية.

ولما حضر محمد باشا عزت الكبير رفع شأنه وأصعده إليه، وخلع عليه فروة

سمُّور، ورتَّب له تعييناً لكفايته من اللحم والسمن والخبز والحبوب والحطب، وأنهىٰ إلىٰ الدولة شأنه، فأتاه مرسوم بمرتَّب جزيل بدار سك العملة قدره ١٥٠ نصفًا فضة في كل يوم، وذلك في سنة ١١٩١.

ولم تقتصر شهرة الزبيدي وإكرام العامة والخاصة له علىٰ مصر فقط، بل تعدَّت إلىٰ البلاد القريبة والبعيدة، وكاتبه ملوك الترك والحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والسودان والجزائر، وطُلب إلىٰ عاصمة الخلافة العثمانية في سنة ١١٩٤، فأجاب ثم امتنع. وكثرت عليه الوفود من كل ناحية، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلات والأشياء الغريبة، وأرسلوا إليه من أغنام فَزَّان، وهي عجيبة الخلقة، عظيمة الجثة، يشبه رأسها رأس العجل، وأرسلها إلىٰ أولاد السلطان عبد الحميد، فوقع لهم موقعًا، وكذلك أرسلوا إليه من طيور الببغاء والجواري والعبيد والطواشية، فكان يرسل من طرائف الناحية إلىٰ الناحية المستغرَب ذلك عندها، ويأتيه في مقابلها أضعافُها، وأتاه من طرائف الهند واليمن وبلاد سِرْت وغيرها أشياء نفيسة وماء الكادي والمربيات والعود والعنبر والعِطرشاه بالأرطال. وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد، وربما اعتقدوا فيه القُطبانية العظمىٰ، حتىٰ إن أحدهم إذا ورد إلىٰ مصر حاجًّا ولم يزره ولم يصله بشيء لا يكون حجه كاملاً، فإذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده، وحفظ ذلك أو كتبه، ويستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقَّة، فإذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده، فيقول له: فلان من بلدة كذا. فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقًا أو عرف جاره أو قريبه، فيقول له: فلان طيب؟ فيقول: نعم سيدي. ثم يسأله عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته، ويشير له باسم حارته وداره وما جاورها، فيقوم ذلك المغربي ويقعد ويقبِّل الأرض تارة ويسجد تارة، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح،

فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين علىٰ بابه من الصباح إلىٰ الغروب، وكل مَن دخل منهم قدَّم بين يدي نجواه شيئًا إما فضة أو تمرًا أو شمعًا، علىٰ قدْر فقره وغناه، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها ويلتمسون منه الأجوبة، فمَن ظفر منهم بقطعة ورق ولو بمقدار الأنملة فكأنَّما ظفر بحسن الخاتمة، وحفظها معه كالتميمة، ويرىٰ أنه قد قُبِل حجه، وإلا فقد باء بالخيبة والحسرة والندامة، وتوجَّه إليه اللوم من أهل بلاده.

ولما حضر حسن باشا علىٰ الصورة التي حضر فيها إلىٰ مصر لم يذهب إليه، بل حضر هو لزيارته، وخلع عليه فروة تليق به، وقدَّم له حصانًا معدودًا مرختًا بسرج وعباءة قيمتها ألف دينار، أعدَّ ذلك وهيَّأه قبل زيارته له. وكانت شفاعته عنده لا تُرَدُّ، وإن أرسل إليه إرسالية في شيء تلقَّاها بالقبول والإجلال، وقبَّل الورقة قبل أن يقرأها، ووضعها علىٰ رأسه، ونفَّذ ما فيها في الحال.

وأرسل مرةً إلىٰ أحمد باشا الجزَّار رسالة وذكر له فيها أنه المهدي المنتظر وسيكون له شأن عظيم، فوقع عنده بموقع الصدق؛ لميل النفوس إلىٰ الأماني، ووضع تلك الرسالة في حجابه المقلَّد به مع الأحراز والتمائم، فكان يُسِرُّ بذلك إلىٰ بعض مَن يَرِدُ عليه ممَّن يدَّعي المعارف في الجفور والزايرجات ويعتقد صحته بلا شك، ومَن قدم عليه من مصر سأله عن الزبيدي، فإن أخبره وعرَّفه أنه اجتمع به وأخذ عنه وذكره بالمدح والثناء أحبه وأكرمه وأجزل صلته، وإن وقع منه خلاف ذلك قطب منه وأقصاه عنه وأبعده ومنع عنه بِره ولو كان من أهل الفضائل، واشتهر ذلك عنه عند مَن عرف منه ذلك بالفراسة، ولم يزل علىٰ حسن اعتقاده في الزبيدي حتىٰ انقضىٰ نحبهما.

قال صديق حسن خان: واستجاز منه الملك الأعظم أبو الفتح نظام الدين

عبد الحميد خان سلطان الروم لكَتْب الحديث، فكتب له الإجازة وسند الحديث المسلسل المأثور المشهور: «الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالىٰ» مع غيره من الإجازات، أولها: الحمد لله الذي رفع مقام أهل الحديث مكانًا عليًّا ... الخ. وكان ذلك في سنة ١١٩٣، وأتحف معها إلىٰ السلطان قصيدة نظمها في مدحه. وكتب إجازة أخرىٰ للدستور الأعظم أبي المظفَّر محمد باشا صدر الوزارة ونظام الملك أولها: الحمد لله الذي دلَّ علىٰ الخيرات ... الخ.

زهده في الدنيا وانقطاعه عن الناس:

لما بلغ الزبيدي ما لا مزيد عليه من الشهرة وعِظَم القدْر والجاه عند الخاصة والعامة وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها، زهد في ذلك كله، ولزم داره، وأغلق عليه بابه، واحتجب عن أصحابه إلا نادرًا لغرض من الأغراض، وترك التدريس والإقراء، وردَّ الهدايا التي كانت تأتيه من الأعيان. وكان السلطان محمد بن عبد الله سلطان المغرب يصله بصلات كثيرة، فكان يقبلها ويدعو له، فاتفق أنه أرسل إليه في سنة ١٢٠١ صلة ذات قدْر فردَّها الزبيدي ولم يقبلها، فضاعت ولم ترجع إلىٰ السلطان، وعلم السلطان ذلك من جوابه، فأرسل إليه رسالة يعاتبه فيها علىٰ ردِّ صلته ويقول له: «إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين، وليتك حيث تورَّعت عنها كنت فرَّقتها علىٰ الفقراء والمحتاجين فيكون لنا ولك أجر ذلك». وفي ضمن تلك الرسالة يلومه السلطان علىٰ تضييع وقته في شرح كتاب «إحياء علوم الدين» ويقول له: «كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك».

وقد ذكر الكتاني قصة هذه الرسالة بسياق آخر فقال: وكان صاحب الترجمة بعث له سلطان المغرب محمد بن عبد الله صلة جزيلة مع شيخ الحجيج، فلما بلغته الرسالة ومكَّنه منها قال له: إني سائلك: هل علماء المغرب يستوفون حقهم

من بيت المال؟ قال: نعم. قال: فهل أشرافهم وضعفاؤهم ليس بهم خصاصة فسكت، فقال: لا يحل لي أخذُ شيء من ذلك، وإني في غير إيالته. ثم رحل لمحلِّه، وبعد شهر أو أكثر طلبه وقال له: ادفع المال لرجل، عيَّنه. وأمره أن يبني مسجدًا، ففعل، ويُعرَف بزاويته إلىٰ الآن يقام به الذكر ونوافل الخيرات.

صفته:

وصفه تلميذه الجبرتي بقوله: كان ربعة، نحيف البدن، ذهبي اللون، متناسب الأعضاء، معتدل اللحية قد وخطه الشيبُ في أكثرها، لطيف الشكل والذات، حسن الصفات، بشوشًا، بسومًا، وقورًا، محتشمًا، مستحضرًا للنوادر والمناسبات، ذكيًّا، فطنًا، لوذعيًّا، ألمعيًّا، روض فضله نضير، وما له في سعة الحفظ نظير، مترفِّهًا في ملبسه، ويعتمُّ مثل أهل مكة بعمامة منحرفة بشاش أبيض ولها عذبة مرخيَّة علىٰ قفاه ولها حبكة وشراريب حرير.

شعره:

للزبيدي أشعار كثيرة وصفها الجبرتي بأنها «جوهرية النفثات صحاح، وعرائس أبيات ذات وجوه صِباح». وقد نظم هذه الأشعار في أغراض متعددة كالمدح والرثاء والحكمة.

منها قوله من قصيدة يمدح بها شمس الدين أبا الأنوار محمد بن وفا ويذكر فيها نسبه الشريف:

مدحتُ أبا الأنوار أبغي بمدحه ... وفور حظوظي من جليل المآرب

نجيبًا تسامَىٰ في المشارق نورُه ... فلاحتْ بَواديه لأهل المغارب

محمد الباني مشيد افتخاره ... بعز المساعي وابتذال المواهب

ربيب العلا المخضل سيب نواله　　سماء الندىٰ المنهل صوب السحائب
كريم السجايا الغُر واسطة العلا　　بسيم المحيَّا الطلق ليس بغاضب

وله أيضًا:

قد عدَّ قومٌ في الشتاء لذائذَ　　كافية تكفي لدىٰ الأنواء
كالكيس والكانون والكن الذي　　يأوي له العاني وكأس طلاء
ثم الكتاب وسادس الكافات من　　شمس تضيء دنت وكاف كساء
ولديَّ أن الكيس يجمع كل ما　　ذكروا من الأفراد والأجزاء

ومن كلامه أيضًا:

توكلْ علىٰ مولاك واخشْ عقابه　　وداوِمْ علىٰ التقوىٰ وحفظ الجوارح
وقدِّم من البر الذي تستطيعه　　ومن عمل يرضاه مولاك صالح
وأقبِلْ علىٰ فعل الجميل وبذله　　إلىٰ أهله ما اسطعتَ غير مكالح
ولا تسمع الأقوال من كل جالب　　فلا بد من مثنٍ عليك وقادح

وله في رثاء زوجته زبيدة أشعار كثيرة، منها قوله:

زبيدة شدَّت للرحيل مطيَّها　　غداة الثلاثا في غائلها الخضر
وطافت بها الأملاك من كل وجه　　ودق لها طبلُ السماء بلا نُكر
تميس كما ماست عروس بدلِّها　　وتخطر تيهًا في البرانس والأزر
سأبكي عليها ما حييت وإن أمتْ　　ستبكي عظامي والأضالع في القبر
ولست بها مستبقيًا فيض عَبرة　　ولا طالبًا بالصبر عاقبةَ الصبر

وقوله:

أعاذل مَن يرزأ كرزئي لا يزل ... كئيبًا ويزهد بعده في العواقب

أصابت يد البين المشت شمائلي ... وحاقت نظامي عاديات النوائب

وكنت إذا ما زرت زبدًا سحيرةً ... أعود إلىٰ رحلي بطين الحقائب

أرىٰ الأرض تُطوَىٰ لي ويدنو بعيدها ... من الخفرات البِيض غير الكواعب

فتاة الندىٰ والجود والحلم والحيا ... ولا يكشف الأخلاق غير التجارب

فديت لها ما يستذم رداؤها ... عميدة قوم من كرام أطايب

عليها سلام الله في كل حالة ... ويصحبه الرضوان فوق المراتب

مدىٰ الدهر ما ناحت حمامة أيكة ... بشجو يثير الحزن من كل نادب

وقوله:

يقولون لا تبكي زبيدة واتئدْ ... وسلِّ هموم النفس بالذكر والصبر

وتأتي لي الأشجان من كل وجهة ... بمختلف الأحزان بالهم والفكر

وهل لي تسلٍّ من فراق حبيبة ... لها الجدث الأعلىٰ بيشكر من مصر

أبىٰ الدمعُ إلا أن يعاهد أعيني ... بمحجرها والقدر يجري إلىٰ القدر

فأما تروني لا تزال مدامعي ... لدىٰ ذكرها تجري إلىٰ آخر العمر

وله في أسماء أهل الكهف، علىٰ الخلاف الوارد فيهم:

بتمليخ مكسلمين مشلين بعده ... دبرنوش مرنوش أشداء للكهف

وخذ شادنوشا سادس الصحب ذاكرًا ... كغشططيوش في رواية ذي العرف

نوانس سانينوس مع بطينوشهم ... مكرطونش تلك الروايات فاستوفِ

وكشفوطط كندسلططنوس هكذا روينا وأرنوش علىٰ حسب الخلف

وبنيونس كشنيطط أربطانس ومرطوكش عند الأجلَّة في الصحف

وكلبهم قطمير سابع سبعة فخذْ وتوسل يا أخا الكرب والرجف

وكان نقش خاتمه الذي يطبع به إجازاته ومكاتيبه بيت شعر نصه:

محمد المرتضىٰ يرجو الأمان غدًا بجده وهو أوفىٰ الخلقِ بالذمم

مصنفاته:

يُعَدُّ الزبيدي من المكثرين من التصنيف، فقد ترك لنا أكثر من مائة مصنَّف ما بين كتاب ورسالة، تفاوتت في أحجامها وتنوَّعت في فنونها وموضوعاتها، فبعضها في الفقه، وبعضها في الحديث وعلومه، وبعضها في التاريخ والأنساب والطبقات، وبعضها في التصوف، وبعضها في اللغة.

وهذه أسماء أشهر مؤلفاته:

١ – الابتهاج بختم صحيح مسلم بن الحجاج.

٢ – إتحاف الأصفياء بسلاسل الأولياء.

٣ – إتحاف الإخوان في حكم الدخان (أو: هدية الإخوان في شجرة الدخان).

٤ – إتحاف بني الزمن في حكم قهوة اليمن.

٥ – إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين. وهو كتابنا هذا.

٦ – إتحاف سيد الحي بسلاسل بني طي.

٧ – الاحتفال بصوم الست من شوال.

٨ – إرشاد الإخوان إلىٰ الأخلاق الحسان.

٩ – الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة.

١٠ – الإسعاف بالحديث المسلسل بالأشراف.

١١ – إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام.

١٢ – إقرار العين بذكر مَن نُسب إلىٰ الحسن والحسين.

١٣ – إكليل الجواهر الغالية في رواية الأحاديث العالية.

١٤ – الأمالي الحنفية.

١٥ – الأمالي الشيخونية.

١٦ – إنالة المنىٰ في سر الكنىٰ.

١٧ – الانتصار لوالدَي النبي المختار.

١٨ – إنجاز وعد السائل في شرح حديث أم زرع من الشمائل.

١٩ – أنساب العرب.

٢٠ – إيضاح المدارك عن نسب العواتك.

٢١ – بذل المجهود في تخريج حديث شيَّبتني هود.

٢٢ – بلغة الأريب في مصطلح آثار الحديث.

٢٣ – تاج العروس من جواهر القاموس. شرح به القاموس المحيط للفيروزآبادي، وهو أشهر وأكبر كتبه علىٰ الإطلاق.

٢٤ – التحبير في الحديث المسلسل بالتكبير.

٢٥ – تحفة أهل الزلفة في التوسل بأهل الصُّفَّة.

٢٦ – تحفة الودود بختم سنن أبي داود.

٢٧ – تخريج أحاديث الأربعين النووية.

٢٨ – ترويح القلوب بذكر ملوك بني أيوب.

٢٩ – التعريف بضروري علم التصريف.

٣٠ – الفوائد الجليلة علىٰ مسلسلات ابن عقيلة.

٣١ – التغريد في الحديث المسلسل بيوم العيد.

٣٢ – التفتيش في معنىٰ لفظ «درويش».

٣٣ – تفسير سورة يونس.

٣٤ – تكملة علىٰ شرح الفاكهي لحزب البكري.

٣٥ – التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة.

٣٦ – تنبيه العارف البصير علىٰ أسرار الحزب الكبير.

٣٧ – جذوة الاقتباس في نسب بني العباس.

٣٨ – حديقة الصفا في والدَي المصطفىٰ.

٣٩ – حسن المحاضرة في آداب البحث والمناظرة.

٤٠ – حكمة الإشراق إلىٰ كُتَّاب الآفاق.

٤١ – حلاوة الفانيد في إرسال حلاوة الأسانيد.

٤٢ – الدرة المضيَّة في الوصية المرضية.

٤٣ – رسالة في أصول الحديث.

٤٤ – رسالة في أصول المعمَّىٰ.

٤٥ – رسالة في تحقيق لفظ الإجازة.

٤٦ – رسالة في طبقات الحفاظ.

٤٧ – رسالة في المناشي والصفين.

٤٨ – رشف سُلاف الرحيق في نسب حضرة الصدِّيق.

٤٩ – رشفة المُدام المختوم البكري من صفوة زلال صِيَغ القطب البكري.

٥٠ – رفع الشكوىٰ لعالِم السر والنجوىٰ.

٥١ – زهر الآكام المنشق عن جيوب الإلهام بشرح صيغة سيدي عبد السلام.

٥٢ – شرح الصدر في أسماء أهل بدر.

٥٣ – العرائس المجلوَّة بذكر أولياء فُوَّة.

٥٤ – العروس المجلية في طرق حديث الأوَّلية.

٥٥ – عقد الجُمان في أحاديث الجان.

٥٦ – عقد الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة.

٥٧ – عقد الجوهر الثمين في الحديث المسلسل بالمحمدين.

٥٨ – العقد المكلَّل بالجوهر الثمين في طرق الإلباس والذكر والتلقين.

٥٩ – العقد المنظم في أمهات النبي صلىٰ الله عليه وسلم.

٦٠ – عقيلة الأتراب في سند الطريقة والأحزاب.

٦١ – الفجر البابلي في ترجمة البابلي.

٦٢ – قلنسوة التاج في بعض أحاديث المعراج.

٦٣ – القول الصحيح في مراتب الجرح والتعديل.

٦٤ – القول المثبوت في تحقيق لفظ «التابوت».

٦٥ – كشف الغطا عن الصلاة الوسطىٰ.

٦٦ – كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام.

٦٧ – لقط اللآلي من الجوهر الغالي. وهي رسالة في أسانيد شيخه الحفني.

٦٨ – معارف الأبرار فيما للكنىٰ والألقاب من أسرار.

٦٩ – المعجم الكبير.

٧٠ – المعجم الصغير.

وهما في أسماء شيوخه.

٧١ – معجم شيوخ السادة الوفائية.

٧٢ – المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية.

٧٣ – مِنَح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلهية.

٧٤ – نشوة الارتياح في حقيقة الميسر والقداح.

٧٥ – النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية.

بالإضافة إلىٰ بعض المنظومات في الفقه والحديث واللغة.

وفي كتاب «تذكرة المحسنين في وفيات الأعيان وحوادث السنين» لعبد الكبير بن المجذوب الفاسي: حدثني الفقيه العلامة سيدي محمد بن سعد التلمساني أن الزبيدي لما توفي قُوِّمت كتبه بخمسة وعشرين ألفًا، فبلغ الخبر إلىٰ السلطان التركي فقال: لقد بخستموها. فجعل لها خمسة وسبعين ألفًا، وجعلها حبسًا علىٰ طلبة العلم بمصر.

ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه الجبرتي: هو علم الأعلام، والساحر اللاعب بالأفهام، الذي جاب في اللغة والحديث كل فج، وخاض من العلم كل لج، المذلَّل له سبل الكلام، الشاهد له الورق والأقلام، ذو المعرفة والمعروف، العَلَم الموصوف، العمدة، الفَهَّامة، والرحلة النسَّابة، الفقيه، المحدِّث، اللغوي، النحوي، الأصولي، الناظم، الناثر.

وقال صدِّيق حسن خان: شريف النِّجار، عظيم المقدار، كريم الشمائل، غزير الفواضل والفضائل.

ولما صنَّف «تاج العروس» كتب عليه الشيخ علي بن صالح بن موسىٰ الشاوري الفرشوطي تقريظًا، جاء فيه: «... وإن من أجلِّ العلوم معرفة لغات العرب التي تكاد ترقص العقول عند سماعها من الطرب، وكان ممَّن كِيلَ له ذلك بالكيل الوافر، وطلع في سمائها طلوع البدور السوافر، ومر في ميدانها طلق العنان، وشهد له بالفصاحة القلمُ واللسان، حلية أبناء العصر والأوان، ونتيجة آخر الزمان، العدل الثبت الثقة الرضا، مولانا السيد الشريف المرتضىٰ، وقد منَّ الله علينا وشرَّفنا بقدومه الصعيد، فكان فيه كالطالع السعيد، فحصل لنا به غاية الفرح، وقرَّت العين به واتسع الصدر وانشرح، وقد أطلعني علىٰ بعض شرحه علىٰ قاموس البلاغة، فإذا هو شرح حافل، ولكل معنىٰ كافل، وقد مدحه جمعٌ من السادة العلماء الأعلام، خصوصًا شيخنا وأستاذنا العلامة علي الصعيدي العدوي، وناهيك به من شاهد، وكل ألف لا تُعَدُّ بواحد. وقد قلتُ فيه حين قدم فرشوط بلدتنا:

قد حلَّ في فرشوطنا كل الرضا ... مذ جاءها الحبر النفيس المرتضىٰ

أكرِم به من طود فضل شامخ ... من نسل مَن نرجوهم يوم القضا

جاد الزمان بمثله فحسبته ... من أجل هذا قد يعود بمَن مضىٰ

عجبًا لدهر قد يجود بمثله ... ورواؤه قِدْمًا تولَّىٰ وانقضىٰ

أحيا فنون العلم بعد فنائها ... وأزال غيهبها بتحقيق أضا

لا سيَّما علم اللغات فإنه ... قد شيَّد الأُس الذي منه نضا

أمست به فرشوط تفخر غيرَها ... وتبلَّجت أقطارُها حتىٰ الفضا

لما تولَّىٰ ذاهبًا من عندنا ... فكأنَّ في أحشائنا نار الغضا». ا.هـ.

ومدحه إسماعيل الوهبي الشهير بالخشَّاب بقصيدة طويلة، منها:

محمد المرتضىٰ الراقي ذرىٰ شرف ... تلوح من دونه الجوزاء والحَمَل

السيد السند الثبت الموضِّح ما ... للعجز قد تركت إيضاحه الأُوَل

صدر الشريعة مصباح البريَّة من ... يضيق عن وصفه التفصيل والجُمَل

أحيا معالم علمٍ كنت أنشُدها ... إنَّا محبُّوك فاسلمْ أيها الطَّلَل

وقام في الله للإسلام منتصرًا ... وكاد لولاه يصغي الحادث الجَلَل

أعيا أكُف الكرام الحافظين له ... في رقم صالح قول أثره عمل

للخط أولاً فللخطي راحته ... فما له عنهما إلا الندىٰ شغل

وقال الكتاني: كان نادرة الدنيا في عصره ومصره، ولم يأتِ بعد الحافظ ابن حجر وتلاميذه أعظم منه اطلاعًا، ولا أوسع رواية وتلماذًا، ولا أعظم شهرة، ولا أكثر منه علمًا بهذه الصناعة الحديثية وما إليها، كاتب أهلَ الأقطار البعيدة بفاس وتونس والشام والعراق واليمن وكاتبوه، فهو خِرِّيت هذه الصناعة، ومالك زمام تلك البضاعة. وكان الناس يرحلون إليه ويكاتبونه لتحرير أنسابهم وتصحيحها من المشرق والمغرب، ويظهر من ترجمته وآثاره أن هذه الشعلة المضيئة من علوم

الرواية الموجودة الآن في بلاد الإسلام إنما هي مقتبسة من أبحاثه وسعيه وتصانيفه ونشره، وإليه فيها الفضل يعود؛ لأنه الذي نشر لها الألوية والبنود، وقد كانت سنَّة الإملاء انقطعت بموت الحافظ ابن حجر وتلاميذه كالحافظينِ السخاوي والسيوطي، وبهما خُتِم الإملاء، فأحياه المترجَم بعد مماته، ووصلت أماليه إلىٰ نحو أربعمائة مجلس.

وقال عنه تلميذه الوجيه الأهدل: إمام المسندين، خاتمة الحفاظ المحدثين المعتمدين، الحريُّ بقول القائل:

كلٌّ يقال له ويمكن وصفه ... ويجاب عن إبريزه ولُجَينه

إلا الذي لم يأتِنا بنظيره ... دورُ الزمان ولا رآه بعينه

وقال عنه من أعلام المغرب الحافظ ابن عبد السلام الناصري في رحلته لما ترجمه فيها، وقد استغرقت فيها نحو عشر كراريس، بعد أن حلاَّه فيها بالحافظ الجامع البارع المانع: ألفيتُه عديم النظير في كمال الاطلاع والحفظ للغة والأنساب، فقد طار صيته في هذه البلاد المشرقية حتىٰ بالعراق واليمن والشام والحرمين وإفريقية والمغرب وتونس وطرابلس وغيرها، تأتي إليه الأسئلة الحديثية وغيرها من أقطار الأرض، جمع الله له من دواوين الحديث والتفسير واللغة وغيرها من أشتات العلوم ما لم يجمعه أحد فيما شاهدنا من علماء عصرنا شرقًا وغربًا، تراه يشتري وينسخ دائمًا بالأجرة، يستعير من الأقطار البعيدة ويؤتَىٰ إليه بالكتب هدية، ومع ذلك يحبس ويعطي، وله اليد الطولىٰ في التأليف، فهو واللهِ سيوطي زمانه، انخرق له من العوائد فيها ما انخرق لابن شاهين وابن حجر والسيوطي، ولو أنهم جمعوا لديه لتيقَّنوا أن الفضيلة لم تكن للأول. ا.هـ.

وقال عنه أبو الربيع الحوات في «السر الظاهر»: الإمام الحافظ النسَّابة العارف

أبو الفيض محمد مرتضىٰ بن محمد الحسيني اليمني، وهو حي لهذا العصر، ملأ البسيطة بعلومه ومعارفه.

وقال عنه محدِّث الشام الوجيه عبد الرحمن الكزبري في ثبته: إمام المسندين، وخاتمة المحدثين.

وقال عنه عالِم مصر الشمس محمد بن علي الشنواني الأزهري في ثبته: شيخ الإسلام، علاَّمة الأنام، ناشر لواء السنة المحمدية، وواصل الأسانيد النبوية، أبو الجود وأبو الفيض.

وقال عنه عالم مكة عمر بن عبد الرسول المكي من إجازة له ذُكرت في «عقد اليواقيت»: شيخ الحفاظ في وقته، ومرجع أهل الأثر، مَن كثُر الأخذُ عنه حتىٰ ارتُحِل إليه من كل فج عميق، وجيء إليه من كل مكان سحيق.

وقال في إجازة أخرىٰ له: أشهر علماء الحديث ورُواته، وحامل لوائه وروايته، المسنِد الكبير، والعالم الشهير.

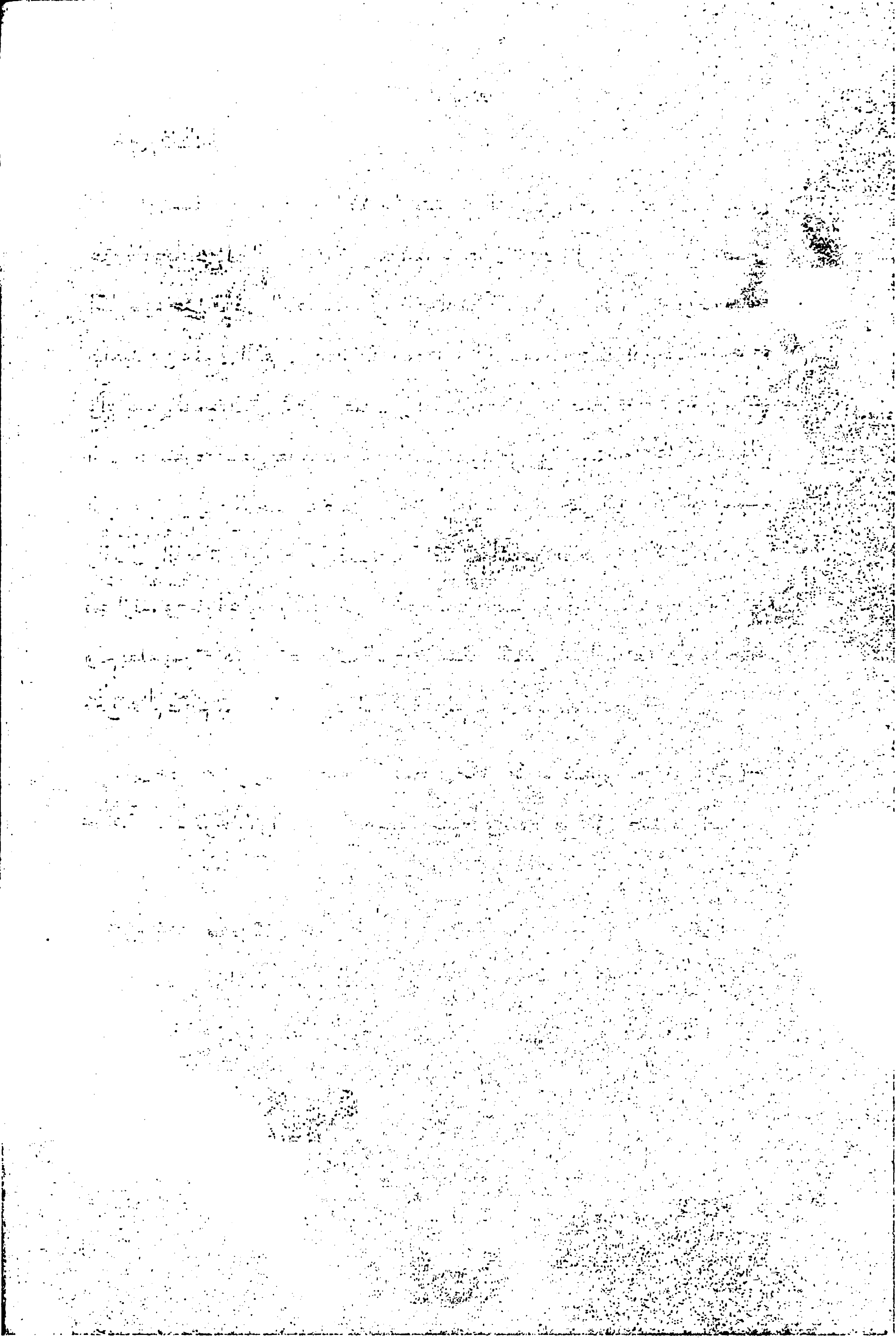
وعدَّه الشهاب المرجاني في «وفيات الأسلاف» وصاحب «عون الودود علىٰ سنن أبي داود» من المجدِّدين المحدثين علىٰ رأس المائة الثانية عشرة.

قال الكتاني: وممَّن رأيته وصفه بذلك تلميذه الأديب الشهاب أحمد بن عبد اللطيف البربير البيروتي في كتابه «عقود الجُمان فيمن اسمه سليمان»، ولعمري إنه لَجدير بذلك؛ لتوفُّر أغلب شروط التجديد فيه، وهو أيضًا ممن أجاز عامةَ من أدرك في حياته.

وفاته:

في سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩١ م) انتشر الطاعون في مصر، فأصابت الزبيديَّ عدواه، ويحكي لنا الجبرتي خبر وفاة شيخه فيقول: «وكان في جمع المعارف صدرًا لكل نادٍ، حتىٰ قوَّض الدهر منه رفيع العماد، وآذنت شمسه بالزوال وغربت بعدما طلعت من مشرق الإقبال، وقد نعاه الفضل والكرم، وناحت لفراقه حمائم الحرم، وأصيب بالطاعون في شهر شعبان، وذلك أنه صلىٰ الجمعة في مسجد الكردي المواجه لداره، فطُعن بعدما فرغ من الصلاة، ودخل إلىٰ البيت، واعتُقل لسانه تلك الليلة، وتوفي يوم الأحد، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتىٰ نقلوا الأشياء النفيسة والمال والذخائر والأمتعة والكتب المكلفة، ثم أشاعوا موته يوم الاثنين، وخرجوا بجنازته، وصلوا عليه، ودُفن بقبر أعدَّه لنفسه بجانب زوجته بمشهد السيدة رقيَّة، ولم يعلم بموته أهل الأزهر ذلك اليوم؛ لانشغال الناس بأمر الطاعون وبُعد الخطة، ومَن علم منهم وذهب لم يدرك الجنازة. ولم يَرْثِه أحد من الشعراء».

رحم الله الزبيدي رحمة واسعة، وجعل مثواه قصور الجنان، وضريحه مطاف وفود الرحمة والغفران، وجمعنا جميعًا وإياه في مستقر رحمته ... آمين.



أثبتنا في الصفحات القليلة القادمة

ترجمتين

للإمام أبي الفيض محمد الزبيدي

عوناً للطالب وكفايةً للمُستزيد



ترجمة الإمام الزبيدي

من كتاب عجائب الآثار للجبرتي[١]

قال الجبرتي:

وفي سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م مات شيخنا علم الأعلام، والساحر اللاعب بالأفهام، الذي جاب في اللغة والحديث كل فج، وخاض من العلم كل لج، المذلِّل له سبل الكلام، الشاهد له الورق والأقلام، ذو المعرفة والمعروف، وهو العَلَم الموصوف، العمدة، الفَهَّامة، والرحلة النسَّابة، الفقيه، المحدِّث، اللغوي، النحوي، الأصولي، الناظم، الناثر، الشيخ أبو الفيض السيد محمد بن محمد ابن محمد بن عبد الرزاق، الشهير بمرتضىٰ الحسيني الزبيدي الحنفي. هكذا ذكر عن نفسه ونسبه. وُلد سنة خمس وأربعين ومائة وألف[٢]، كما سمعته من لفظه ورأيته بخطه، ونشأ ببلاده[٣]، وارتحل في طلب العلم، وحج مرارًا، واجتمع بالشيخ عبد الله السِّنْدي، والشيخ عمر بن أحمد بن عقيل المكي، وعبد الله السقَّاف، والمسنِد محمد ابن علاء الدين المزجاجي، وسليمان بن يحيىٰ، وابن الطيِّب. واجتمع بالسيد عبد الرحمن العيدروس بمكة، وبالشيخ عبد الله ميرغني الطائفي في سنة ثلاث وستين، ونزل بالطائف بعد ذهابه إلىٰ اليمن ورجوعه في

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار للشيخ عبد الرحمن بن حسن الجبرتي ٢/ ٣٠٣ - ٣٢١ (ط - مطبعة دار الكتب المصرية).

(٢) التي توافق سنة ١٧٣٢ م.

(٣) يعني مدينة زبيد باليمن.

سنة ست وستين، فقرأ علىٰ الشيخ عبد الله في الفقه وكثيرًا من مؤلفاته وأجازه، وقرأ علىٰ الشيخ عبدالرحمن العيدروس مختصر السعد، ولازمه ملازمة كلية، وألبسه الخرقة، وأجازه بمروياته ومسموعاته، قال: «وهو الذي شوَّقني إلىٰ دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها وما فيها من المشاهد الكرام، فاشتاقت نفسي لرؤياها، وحضرت مع الرَّكْب، وكان الذي كان». وقرأ عليه طرفًا من الإحياء، وأجازه بمروياته.

ثم ورد إلىٰ مصر في تاسع صفر سنة سبع وستين ومائة وألف، وسكن بخان الصاغة، وأول من عاشره وأخذ عنه السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر، وحضر دروس أشياخ الوقت كالشيخ أحمد المَلَّوي والجوهري والحفني والبليدي والصعيدي والمدابغي وغيرهم، وتلقي عنهم، وأجازوه، وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه، واعتنىٰ بشأنه إسماعيل كتخدا عزبان، ووالاه بره حتىٰ راج أمره، وترونق حاله، واشتهر ذِكره عند الخاص والعام، ولبس الملابس الفاخرة، وركب الخيول المسوَّمة، وسافر إلىٰ الصعيد ثلاث مرات، واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه، وأكرمه شيخ العرب همام وإسماعيل أبو عبد الله وأبو علي وأولاد نصير وأولاد وافي، وهادوه وبرُّوه. وكذلك ارتحل إلىٰ الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة وباقي البنادر العظيمة مرارًا حين كانت مزينة بأهلها عامره بأكابرها، وأكرمه الجميع، واجتمع بأكابر النواحي وأرباب العلم والسلوك، وتلقَّىٰ عنهم، وأجازوه وأجازهم، وصنَّف عدة رحلات في انتقالاته في البلاد القبلية والبحرية تحتوي علىٰ لطائف ومحاورات ومدائح نظمًا ونثرًا لو جُمعت كانت مجلدًا ضخمًا. وكناه السيد أبو الأنوار ابن وفا بـ«أبي الفيض»، وذلك يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف، وذلك برحاب بني الوفا يوم زيارة المولد المعتاد.

ثم تزوج، وسكن بعطفة الغسال، مع بقاء سكنه بوكالة الصاغة.

وشرع في شرح القاموس، حتىٰ أتمه في عدة سنين في نحو أربعة عشر مجلدًا وسماه: تاج العروس. ولما أكمله أولم وليمة حافلة جمع فيها طلاب العلم وأشياخ الوقت بغيط المعدية، وذلك في سنة إحدىٰ وثمانين ومائة وألف، وأطلعهم عليه، فاغتبطوا به، وشهدوا بفضله وسعة اطلاعه ورسوخه في علم اللغة، وكتبوا عليه تقاريظهم نثرًا ونظمًا، فممن قرَّظ عليه: شيخ الكل في عصره الشيخ علي الصعيدي، والشيخ أحمد الدردير، والسيد عبد الرحمن العيدروس، والشيخ محمد الأمير، والشيخ حسن الجداوي، والشيخ أحمد البيلي، والشيخ عطية الأجهوري، وغيرهم. وكنتُ إذ ذاك حاضرًا.

ولما أنشأ محمد بك أبو الذهب جامعه المعروف به بالقرب من الأزهر وعمل فيه خزانة للكتب واشترىٰ جملة من الكتب ووضعها بها أنهوا إليه شرح القاموس، وعرَّفوه أنه إذا وُضع بالخزانة كمل نظامُها وانفردت بذلك دون غيرها، ورغَّبوه في ذلك، فطلبه وعوَّضه عنه مائة ألف درهم فضة ووضعه فيها.

ولم يزل شيخنا الزبيدي يخدم العلم ويرقىٰ في درج المعالي ويحرص علىٰ جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون، كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدِّثين المتأخرين بالمتقدمين، وألَّف في ذلك كتبًا ورسائل ومنظومات وأراجيز جمَّة.

ثم انتقل إلىٰ منزل بسويقة اللالا تجاه جامع محرم أفندي بالقرب من مسجد شمس الدين الحنفي، وذلك في أوائل سنة تسع وثمانين ومائة وألف، وكانت تلك الخطة إذ ذاك عامرة بالأكابر والأعيان، فأحدقوا به، وتحبَّب إليهم، واستأنسوا به، وواسوه، وهادوه، وهو يُظهِر لهم الغنىٰ والتعفف، ويعظهم، ويفيدهم بفوائد

وتمائم ورُقىٰ، ويجيزهم بقراءة أوراد وأحزاب، فأقبلوا عليه من كل جهة، وأتوا إلىٰ زيارته من كل ناحية، ورغبوا في معاشرته؛ لكونه غريبًا وعلىٰ غير صورة العلماء المصريين وشكلهم. وكان يعرف اللغة التركية والفارسية بل وبعض لسان الكرج[1]، فانجذبت قلوبهم إليه، وتناقلوا خبره وحديثه.

ثم شرع في إملاء الحديث علىٰ طريق السلف في ذكر الأسانيد والرواة المخرِّجين من حفظه علىٰ طرق مختلفة، وكل مَن قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأولية وهو حديث الرحمة برواته ومخرِّجيه، ويكتب له سندًا بذلك وإجازة وسماع الحاضرين، فيعجبون من ذلك. ثم إن بعض علماء الأزهر ذهبوا إليه وطلبوا منه إجازة، فقال لهم: لا بد من قراءة أوائل الكتب. واتفقوا علىٰ الاجتماع بجامع شيخون بالصليبة الاثنين والخميس تباعدًا عن الناس، فشرعوا في «صحيح البخاري» بقراءة السيد حسين الشيخوني، واجتمع عليهم بعض أهل الخطة والشيخ موسىٰ الشيخوني إمام المسجد وخازن الكتب، وهو رجل كبير معتبَر عند أهل الخطة وغيرها، وتناقل في الناس سعي علماء الأزهر مثل الشيخ أحمد السجاعي والشيخ مصطفىٰ الطائي والشيخ سليمان الأكراشي وغيرهم للأخذ عنه، فازداد شأنه، وعظُم قدره، واجتمع عليه أهل تلك النواحي وغيرها من العامة والأكابر والأعيان، والتمسوا منه تبيين المعاني، فانتقل من الرواية إلىٰ الدراية، وصار درسًا عظيمًا، فعند ذلك انقطع عن حضوره أكثر الأزهرية، وقد استغنىٰ عنهم هو أيضًا، وصار يملي علىٰ الجماعة بعد قراءة شيء من الصحيح حديثًا من المسلسلات أو فضائل الأعمال، ويسرد رجال سنده ورُواته من حفظه، ويُتبِعه بأبيات من الشعر كذلك، فيتعجَّبون من ذلك؛ لكونهم لم يعهدوها فيما سبق في المدرِّسين المصريين. وافتتح درسًا آخر في مسجد الحنفي، وقرأ الشمائل في

---

(١) يعني اللغة الكردية.

غير الأيام المعهودة بعد العصر، فازدادت شهرته، وأقبلت الناس من كل ناحية لسماعه ومشاهدة ذاته؛ لكونها علىٰ خلاف هيئة المصريين وزيِّهم، ودعاه كثير من الأعيان إلىٰ بيوتهم، وعملوا من أجله ولائم فاخرة، فيذهب إليهم مع خواص الطلبة والمقرئ والمستملي وكاتب الأسماء، فيقرأ لهم شيئًا من الأجزاء الحديثية كثلاثيات البخاري أو الدارمي أو بعض المسلسلات بحضور الجماعة وصاحب المنزل وأصحابه وأحبابه وأولاده وبناته ونسائه من خلف الستائر، وبين أيديهم مجامر البخور بالعنبر والعود مدة القراءة، ثم يختمون ذلك بالصلاة علىٰ النبي ﷺ علىٰ النسق المعتاد، ويكتب الكاتب أسماء الحاضرين والسامعين حتىٰ النساء والصبيان والبنات واليوم والتاريخ، ويكتب الشيخ تحت ذلك «صحيح ذلك»، وهذه كانت طريقة المحدِّثين في الزمن السابق كما رأيناه في الكتب القديمة. وقد كنت مشاهدًا وحاضرًا في غالب هذه المجالس والدروس ومجالس أُخَر خاصة بمنزله وبسكنه القديم بخان الصاغة وبمنزلنا بالصنادقية وبولاق وأماكن أُخَر كنا نذهب إليها للنزاهة مثل غيط المعدية والأزبكية وغير ذلك، فكنا نشغل غالب الأوقات بسرد الأجزاء الحديثية وغيرها، وهو كثير بثبوت المسموعات علىٰ النسخ وفي أوراق كثيرة موجودة إلىٰ الآن، وانجذب إليه بعض الأمراء الكبار مثل مصطفىٰ بك الإسكندراني وأيوب بك الدفتردار، فسعوا إلىٰ منزله، وترددوا لحضور مجالس دروسه، وواصلوه بالهدايا الجزيلة والغلال، واشترىٰ الجواري، وعمل الأطعمة للضيوف، وأكرم الواردين والوافدين من الآفاق البعيدة، وحضر عبد الرزاق أفندي الرئيس من الديار الرومية إلىٰ مصر، وسمع به، فحضر إليه، والتمس منه الإجازة وقراءة مقامات الحريري، فكان يذهب إليه بعد فراغه من درس شيخون، ويطالع له ما تيسَّر من المقامات، ويفهِّمه معانيها اللغوية.

ولما حضر محمد باشا عزت الكبير رفع شأنه عنده، وأصعده إليه، وخلع

عليه فروة سَمُّور، ورتَّب له تعيينًا من كلاره لكفايته من لحم وسمن وأرز وحطب وخبز، ورتَّب له علوفة جزيلة بدفتر الحرمين والسائرة وغلالاً من الأنبار، وأنهىٰ إلىٰ الدولة شأنه، فأتاه مرسوم بمرتب جزيل بالضربخانة وقدره مائة وخمسون نصفًا فضة في كل يوم، وذلك في سنة إحدىٰ وتسعين ومائة وألف، فعظُم أمرُه، وانتشر صيته، وطُلب إلىٰ الدولة في سنة أربع وتسعين، فأجاب ثم امتنع، وترادفت عليه المراسلات من أكابر الدولة، وواصلوه بالهدايا والتحف والأمتعة الثمينة في صناديق، وطار ذِكره في الآفاق، وكاتبه ملوكُ النواحي من الترك والحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والسودان وفَزَّان والجزائر والبلاد البعيدة، وكثرت عليه الوفود من كل ناحية، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلات والأشياء الغريبة، وأرسلوا إليه من أغنام فزان، وهي عجيبة الخِلقة، عظيمة الجثة، يشبه رأسها رأس العجل. وأرسلها إلىٰ أولاد السلطان عبد الحميد الأول، فوقع لهم موقعًا. وكذلك أرسلوا له من طيور الببغاء والجواري والعبيد والطواشية، فكان يرسل من طرائف الناحية إلىٰ الناحية المستغرب ذلك عندها ويأتيه في مقابلتها أضعافُها، وأتاه من طرائف الهند وصنعاء اليمن وبلاد سرت وغيرها أشياء نفيسة وماء الكاذي والمربيات والعود والعنبر والعطرشاه بالأرطال، وصار له عند أهل المغرب شهرة عظيمة ومنزلة كبيرة واعتقاد زائد، وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمىٰ، حتىٰ إن أحدهم إذا ورد إلىٰ مصر حاجًّا ولم يزرْه ولم يَصِله بشيء لا يكون حجه كاملاً، فإذا ورد عليه أحدهم سأله عن اسمه ولقبه وبلده وخطته وصناعته وأولاده، وحفظ ذلك أو كتبه، يستخبر من هذا عن ذاك بلطف ورقة، فإذا ورد عليه قادم من قابل سأله عن اسمه وبلده فيقول له: فلان من بلدة كذا. فلا يخلو إما أن يكون عرفه من غيره سابقًا أو عرف جاره أو قريبه، فيقول له: فلان طيب؟ فيقول: نعم سيدي. ثم يسأله عن أخيه فلان وولده فلان وزوجته وابنته، ويشير له باسم حارته وداره وما

جاورها، فيقوم ذلك المغربي ويقعد، ويقبِّل الأرض تارةً ويسجد تارةً، ويعتقد أن ذلك من باب الكشف الصريح، فتراهم في أيام طلوع الحج ونزوله مزدحمين علىٰ بابه من الصباح إلىٰ الغروب، وكل من دخل منهم قدَّم بين يدي نجواه شيئًا إما موزونات فضة أو تمرًا أو شمعًا، علىٰ قدر فقره وغناه، وبعضهم يأتيه بمراسلات وصلات من أهل بلاده وعلمائها وأعيانها، ويلتمسون منه الأجوبة، فمَن ظفر منهم بقطعة ورقة ولو بمقدار الأنملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة، وحفظها معه كالتميمة، ويرىٰ أنه قد قُبِل حجه، وإلا فقد باء بالخيبة والندامة وتوجَّه عليه اللوم من أهل بلاده، ودامت حسرته إلىٰ يوم ميعاده، وقِسْ علىٰ ذلك ما لم يقل.

وشرع في شرح كتاب إحياء العلوم للغزالي، وبيَّض منه أجزاء وأرسل منها إلىٰ بلاد الروم والشام والغرب ليشتهر مثل شرح القاموس ويُرغَب في طلبه واستنساخه.

وماتت زوجته في سنة ست وتسعين، فحزن عليها حزنًا كثيرًا، ودفنها عند مشهد السيدة رقية، وعمل علىٰ قبرها مقامًا ومقصورة وستورًا وفرشًا وقناديل، ولازم قبرها أيامًا كثيرة، وتجتمع عنده الناس والقراء والمنشدون، ويعمل لهم الأطعمة والثريد والكسكسو والقهوة والشربات، واشترىٰ مكانًا بجوار المقبرة المذكورة وعمَّره بيتًا صغيرًا وفرشه، وأسكن به أمها، ويبيت به أحيانًا، وقصده الشعراء بالمراثي، فيقبل منهم ذلك ويجيزهم عليه. ورثاها هو بقصائد وجدتها بخطه بعد وفاته في أوراقه المدشتة علىٰ طريقة شعر مجنون ليلىٰ، منها قوله:

زبيدة شدت للرحيل مطيها ... غداة الثلاثا في غائلها الخضر

وطافت بها الأملاك من كل وجه ... ودق لها طبل السماء بلا نكر

تميس كما ماست عروس بدلها ... وتخطر تيهًا في البرانس والأزر

سأبكي عليها ما حييت وإن أمت ستبكي عظامي والأضالع في القبر
ولست بها مستبقيا فيض عبرة ولا طالبًا بالصبر عاقبة الصبر

ثم تزوج بعدها بأخرىٰ، وهي التي مات عنها وأحرزت ما جمعه من مال وغيره.

ولما بلغ ما لا مزيد عليه من الشهرة وبُعد الصيت وعِظَم القدر والجاه عند الخاص والعام، وكثرت عليه الوفود من سائر الأقطار، وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها من كل ناحية، لزم داره، واحتجب عن أصحابه الذين كان يلمُّ بهم قبل ذلك إلا في النادر لغرض من الأغراض، وترك الدروس والإقراء، واعتكف بداخل الحريم، وأغلق الباب، ورد الهدايا التي تأتيه من أكابر المصريين ظاهرة، وأرسل إليه مرة أيوب بك الدفتردار مع نجله خمسين إردبًّا من القمح وأحمالاً من الأرز والسمن والعسل والزيت وخمسمائة ريال نقود وبقج كساوي أقمشة هندية وجوخا وغير ذلك فردَّها، وكان ذلك في رمضان، وكذلك مصطفىٰ بك الإسكندراني، وغيرهما، وحضرا إليه، فاحتجب عنهما، ولم يخرج إليهما، ورجعا من غير أن يواجهاه. ولما حضر حسن باشا علىٰ الصورة التي حضر فيها إلىٰ مصر لم يذهب إليه، بل حضر هو لزيارته، وخلع عليه فروة تليق به، وقدَّم له حصانًا معدودًا مرختًا بسرج وعباءة قيمته ألف دينار أعدَّه وهيأه قبل ذلك، وكانت شفاعته عنده لا تُرَدُّ، وإن أرسل إليه إرسالية في شيء تلقَّاها بالقبول والإجلال وقبَّل الورقة قبل أن يقرأها، ووضعها علىٰ رأسه، ونفَّذ ما فيها في الحال، وأرسل مرة إلىٰ أحمد باشا الجزار مكتوبًا وذكر له فيه أنه المهدي المنتظر وسيكون له شأن عظيم، فوقع عنده بموقع الصدق؛ لميل النفوس إلىٰ الأماني، ووضع ذلك المكتوب في حجابه المقلد به مع الأحراز والتمائم، فكان يُسِرُّ بذلك إلىٰ بعض مَن يَرِد عليه ممَّن يدَّعي

المعارف في الجفور والزايرجات ويعتقد صحته بلا شك، ومَن قدم عليه من جهة مصر سأله عن الزبيدي، فإن أخبره وعرَّفه أنه اجتمع به وأخذ عنه وذكره بالمدح والثناء أحبه وأكرمه وأجزل صلته، وإن وقع منه خلاف ذلك قطب منه وأقصاه عنه وأبعده ومنع عنه بره ولو كان من أهل الفضائل، واشتهر ذلك عنه عند من عرف منه ذلك بالفراسة، ولم يزل علىٰ حسن اعتقاده في الزبيدي حتىٰ انقضىٰ نحبهما.

واتفق أن مولاي محمدًا سلطان المغرب وصله بصلات قبل انجماعه الأخير وتزهده، وهو يقبلها ويقابلها بالحمد والثناء والدعاء، فأرسل له في سنة إحدىٰ ومائتين صلة لها قدر، فردَّها وتورَّع عن قبولها وضاعت، ولم ترجع إلىٰ السلطان، وعلم السلطان ذلك من جوابه، فأرسل إليه مكتوبًا قرأتُه، وكان عندي ثم ضاع في الأوراق، ومضمونه العتاب والتوبيخ في رد الصلة، ويقول له: إنك رددت الصلة التي أرسلناها إليك من بيت مال المسلمين، وليتك حيث تورَّعت عنها كنتَ فرَّقتها علىٰ الفقراء والمحتاجين فيكون لنا ولك أجر ذلك، إلا أنك رددتها وضاعت. ويلومه أيضًا علىٰ شرحه كتاب الإحياء ويقول له: كان ينبغي أن تشغل وقتك بشيء نافع غير ذلك. ويذكر وجه لومه له في ذلك وما قاله العلماء وكلامًا مفحمًا مختصرًا مفيدًا.

وللزبيدي من المصنَّفات خلاف شرح القاموس وشرح الإحياء تأليفات كثيرة، منها كتاب «الجواهر المنيفة في أصول أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة مما وافق فيه الأئمة الستة»، وهو كتاب نفيس حافل، رتبه ترتيب كتب الحديث من تقديم ما رُوىٰ عنه في الاعتقاديات ثم في العمليات علىٰ ترتيب كتب الفقه. و«النفحة القدسية بواسطة البضعة العيدروسية»، جمع فيه أسانيد العيدروس. و«العقد الثمين في طرق الإلباس والتلقين». و«حكمة الإشراق إلىٰ كتاب الآفاق». و«شرح الصدر في شرح أسماء أهل بدر» في عشرين، أَلَّفها لعلي أفندي درويش. وألَّف

باسمه أيضًا «التفتيش في معنىٰ لفظ درويش». ورسائل كثيرة جدًّا، منها «رفع نقاب الخفا عمن انتمىٰ إلىٰ وفا وأبىٰ الوفا». و«بلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب». و«إعلام الأعلام بمناسك حج بيت الله الحرام». و«زهر الأكمام المنشق عن جيوب الإلهام بشرح صيغة سيدي عبد السلام». و«رشفة المُدام المختوم البكري من صفوة زلال صيغ القطب البكري». و«رشف سلاف الرحيق في نسب حضرة الصديق». و«القول المثبوت في تحقيق لفظ التابوت». و«تنسيق قلائد المنن في تحقيق كلام الشاذلي أبي الحسن». و«لقط اللآلئ من الجوهر الغالي»، وهي في أسانيد الأستاذ الحفني، وكتب له إجازته عليها في سنة سبع وستين، وذلك في سنة قدومه إلىٰ مصر. و«النوافح المكية علىٰ الفوائح الكشكية». و«جزء في حديث نعم الإدام الخل». و«هدية الإخوان في شجرة الدخان». و«مِنَح الفيوضات الوفية فيما في سورة الرحمن من أسرار الصفة الإلهية». و«إتحاف سيد الحي بسلاسل بني طي». و«بذل المجهود في تخريج حديث شيبتي هود». و«المربىٰ الكابلي فيمن روىٰ عن الشمس البابلي». و«المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية». و«رسالة في المناشي والصفين». و«شرح علىٰ خطبة الشيخ محمد البحيري البرهاني علىٰ تفسير سورة يونس». و«تفسير علىٰ سورة يونس» مستقل علىٰ لسان القوم. و«شرح علىٰ حزب البر الشاذلي»[1]. و«تكملة علىٰ شرح حزب البكري الفاكهي» من أوله، فكمله للشيخ أحمد البكري. ومقامة سماها «إسعاف الأشراف». وأرجوزة في الفقه نظمها باسم الشيخ حسن بن عبد اللطيف الحسني المقدسي. و«حديقة الصفا في والدي المصطفىٰ». و«رسالة في طبقات الحفاظ». و«رسالة في تحقيق قول أبي الحسن الشاذلي وليس من الكرم إلىٰ آخره». و«عقيلة الأتراب في سند الطريقة

---

(١) سماه: تنبيه العارف البصير علىٰ أسرار الحزب الكبير.

والأحزاب»، صنَّفها للشيخ عبد الوهاب الشربيني. و«التعليقة على مسلسلات ابن عقيلة». و«المنح العلية في الطريقة النقشبندية». و«الانتصار لوالدي النبي المختار». و«ألفية السند». و«مناقب أصحاب الحديث». و«كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام». و«رفع الشكوىٰ لعالِم السر والنجوىٰ». و«ترويح القلوب بذكر ملوك بني أيوب». و«رفع الكلل عن العلل». ورسالة سمَّاها «قلنسوة التاج» أَلَّفها باسم الشيخ محمد بن بدير المقدسي، وذلك لما أكمل تاج العروس، فأرسل إليه كراريس من أوله حين كان بمصر، وذلك في سنة اثنتين وثمانين؛ ليطلع عليها شيخه عطية الأجهوري ويكتب عليها تقريظًا، ففعل ذلك، وكتب إليه يستجيزه، فكتب إليه أسانيده العالية في كراسة وسماها: قلنسوة التاج.

وللزبيدي أشعار كثيرة جوهرية النفثات صحاح، منها قوله:

قد عد قوم في الشتاء لذائذا ... كافية تكفي لدىٰ الأنواء

كالكيس والكانون والكن الذي ... يأوي له العاني وكأس طلاء

ثم الكباب وسادس الكافات من ... شمس تضيء دنت وكاف كساء

ولديَّ أن الكيس يجمع كل ما ... ذكروا من الأفراد والأجزاء

وله أيضًا:

إذا هب سلطان المربىٰ غدوة ... وجلل آفاق السماء سحاب

وضاق لتحصيل الأماني مذاهب ... فنعم جليس الصالحين كتاب

وله أيضًا:

توكل علىٰ مولاك واخشَ عقابه ... وداوم علىٰ التقوىٰ وحفظ الجوارح

وقدِّم من البر الذي تستطيعه ... ومن عمل يرضاه مولاك صالح

وأقبِل علىٰ فعل الجميل وبذله إلىٰ أهله ما اسطعت غير مكالح
ولا تسمع الأقوال من كل جالب فلا بد من مثنٍ عليك وقادح

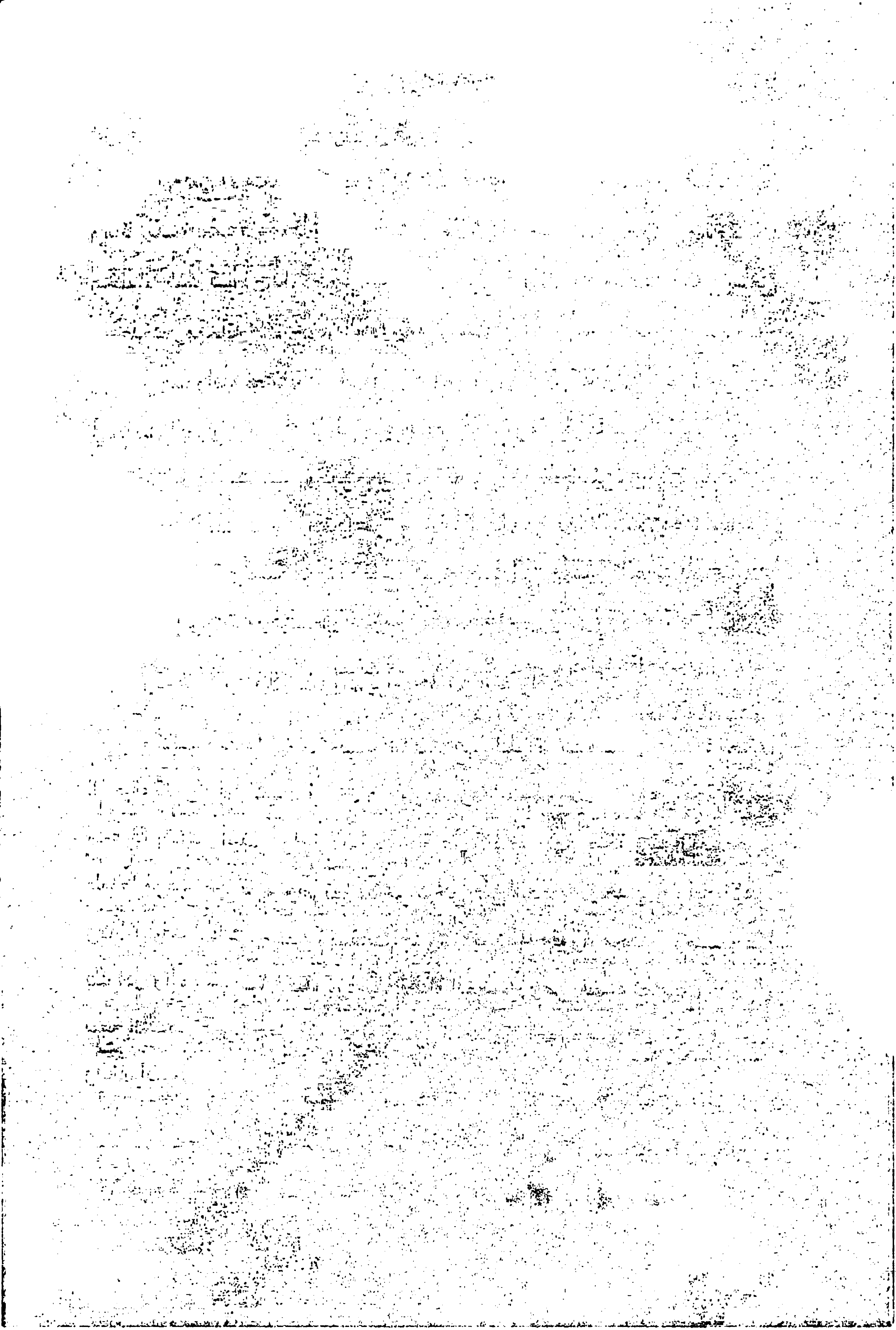
ونظمه كثير، ونثره بحر غزير، وفضله شهير، وذكره مستطير، وكنت كثيرًا ما أستمد من بحره السريع، وأسامره بما يذكِّرنا عهود الرقمتين، وأتنزه من صفات فضله وذاته في الربيعين.

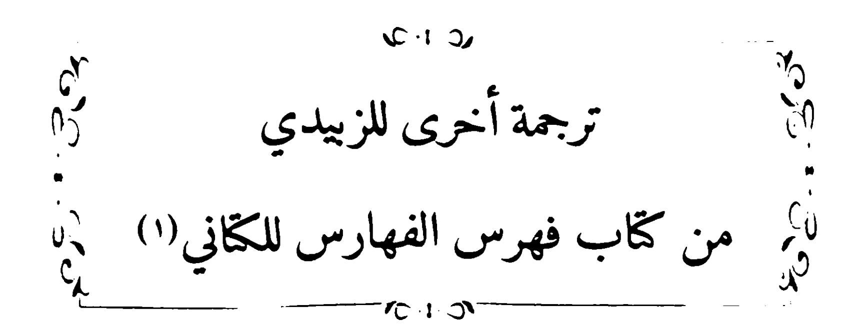
وبالجملة، فإنه كان في جمع المعارف صدرًا لكل نادٍ، حتىٰ قوَّض الدهر منه رفيع العماد، وآذنت شمسه بالزوال وغربت بعدما طلعت من مشرق الإقبال، وقد نعاه الفضل والكرم، وناحت لفراقه حمائم الحرم، وأصيب بالطاعون في شهر شعبان، وذلك أنه صلىٰ الجمعة في مسجد الكردي المواجه لداره، فطُعن بعدما فرغ من الصلاة، ودخل إلىٰ البيت، واعتقل لسانه تلك الليلة، وتوفي يوم الأحد، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتىٰ نقلوا الأشياء النفيسة والمال والذخائر والأمتعة والكتب المكلفة، ثم أشاعوا موته يوم الاثنين، فحضر عثمان بك طبل الإسماعيلي ورضوان كتخدا المجنون وادَّعىٰ أن المتوفىٰ أقامه وصيًّا مختارًا وعثمان بك ناظرًا، بسبب أن زوج أخت الزوجة من أتباع المجنون يقال له: حسين أغا، فلما حضروا وصحبتهما مصطفىٰ أفندي صادق أخذوا ما أحبوه وانتقوه من المجلس الخارج، وخرجوا بجنازته، وصلوا عليه، ودُفن بقبر أعده لنفسه بجانب زوجته بمشهد السيدة رقية، ولم يعلم بموته أهل الأزهر ذلك اليوم؛ لاشتغال الناس بأمر الطاعون وبُعد الخطة، ومَن علم منهم وذهب لم يدرك الجنازة، ومات رضوان كتخدا في إثر ذلك، واشتغل عثمان بك بالإمارة لموت سيده أيضًا، وأهمل أمر تركته، فأحرزت زوجته وأقاربها متروكاته، ونقلوا الأشياء الثمينة والنفيسة إلىٰ دارهم، ونُسي أمره شهورًا حتىٰ تغيرت الدولة، وتملَّك الأمراء المصريون الذين كانوا بالجهة القبلية. وتزوجت زوجته برجل من الأجناد من أتباعهم، فعند ذلك فتحوا التركة بوصاية

الزوجة من طرف القاضي خوفًا من ظهور وارث، وأظهروا ما انتفوه مما انتقوه من الثياب وبعض الأمتعة والكتب والدشتات وباعوها بحضرة الجمع، فبلغت نيفًا ومائة ألف نصف فضة، فأخذ منها بيت المال شيئًا وأُحرِز الباقي مع الأول، وكانت مخلفاته شيئًا كثيرًا جدًّا، أخبرني حسن الحريري - وكان من خاصته وممن يسعىٰ في خدمته ومهماته - أنه حضر إليه في يوم السبت، وطلب الدخول لعيادته، فأدخلوه إليه، فوجده راقدًا معتقل اللسان، وزوجته وأصهاره في كبكبة واجتهاد في إخراج ما في داخل الخبايا والصناديق إلىٰ الليوان، ورأيت كومًا عظيمًا من الأقمشة الهندية والمقصبات والكشميري والفراء من غير تفصيل نحو الحملين، ورأيت عدداً كثيرًا من ساعات العبب الثمينة مبددًا علىٰ بساط القاعة وهي بغلافات بلادها، فجلست عند رأسه حصة وأمسكت يده، ففتح عينيه ونظر إليَّ وأشار كالمستفهم عما هم فيه، ثم غمض عينيه وذهب في غطوسه، فقمت عنه.

ولم يترك ابنًا ولا ابنة، ولم يَرْثِه أحد من الشعراء.

وكانت صفته: ربعة، نحيف البدن، ذهبي اللون، متناسب الأعضاء، معتدل اللحية، قد وخطه الشيبُ في أكثرها، مترفهًا في ملبسه، ويعتم مثل أهل مكة عمامة منحرفة بشاش أبيض ولها عذبة مرخية علىٰ قفاه، ولها حبكة وشراريب حرير طولها قريب من فتر، وطرفها الآخر داخل طي العمامة وبعض أطرافه ظاهر. وكان لطيف الذات، حسن الصفات، بشوشًا، بسومًا، وقورًا، محتشمًا، مستحضرًا للنوادر والمناسبات، ذكيًّا، لوذعيًّا، فطنًا، ألمعيًّا، روض فضله نضير، وما له في سعة الحفظ نظير. جعل الله مثواه قصور الجنان، وضريحه مطاف وفود الرحمة والغفران.





ترجمة أخرى للزبيدي من كتاب فهرس الفهارس للكتاني(١)

هو محمد مرتضىٰ بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني العلوي الزبيدي النسب. هكذا وصفه أعلم الناس به شيخه الوجيه العيدروس في ديوانه «تنميق الأسفار».

وقال غيره: هو المكنىٰ بأبي الفيض وبأبي الوقت، الملقب مرتضىٰ محمد بن أبي الغلام محمد ابن القطب أبي عبد الله محمد بن الولي الصالح الخطيب أبي الضياء محمد بن عبد الرزاق الحسيني، من قبيل أبي عبد الله محمد المحدِّث الكبير ابن أحمد المختفي ابن عيسىٰ مؤتم الأشبال ابن زين العابدين بن الحسين.

وفي «الإشراف علىٰ من بفاس من مشاهير الأشراف» للقاضي ابن الحاج: ومن ذرية زيد الشهيد - يعني ابن علي زين العابدين بن الحسين - خاتمة الحفاظ بالديار المصرية الشيخ مرتضىٰ الحسيني الواسطي الزبيدي. ا.هـ. الواسطي العراقي أصلاً، الهندي مولدًا، الزبيدي تعلما وشهرة، المصري وفاة، الحنفي مذهبًا، القادري إرادة، النقشبندي سلوكًا، الأشعري عقيدة. هكذا يصف نفسه في كثير من إجازاته التي وقفت عليها بخطه.

(١) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لمحمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ١/ ٥٢٦ - ٥٤٩ (ط - دار الغرب الإسلامي). اقتصرنا منه علىٰ ما لم يذكره الجبرتي في ترجمته.

أصله من بلجرام: قصبة علىٰ خمسة فراسخ من قنوج وراء نهر جانج بالهند، وبها وُلد سنة ١١٤٥، كما أرَّخ هو نفسه ولادته في آخر إجازته لعمر بن حمودة الصفار التونسي.

واشتغل علىٰ المحدِّث محمد فاخر بن يحيىٰ الألهابادي والشاه ولي الله الدهلوي، فسمع عليه الحديث وأجازه، ثم ارتحل لطلب العلم، فدخل زبيد، وأقام بها مدة طويلة حتىٰ قيل له: الزبيدي، وبها اشتهر، وأخذ عن نحو من ثلاثمائة شيخ، ذكرهم في معاجمه الكبير والصغير وألفية السند وشرحها، حتىٰ قال عن نفسه في ألفيته:

وقـلَّ أن تـرىٰ كـتـابًـا يُعـتـمَـد إلا ولـي فـيـه اتـصـال بالسند

أو عـالـمًـا إلا ولـي إلـيـه وسائـط توقفنـي عليـه

وأعلىٰ من لقيه السيد مرتضىٰ وأخذ عنه العالم المعمر سابق بن رمضان بن عرام الزعبلي الشافعي.

وكان الزبيدي نادرة الدنيا في عصره ومصره، ولم يأتِ بعد الحافظ ابن حجر وتلاميذه أعظم منه اطلاعًا، ولا أوسع رواية، ولا أعظم شهرة ولا أكثر منه علمًا بهذه الصناعة الحديثية وما إليها، فهو خريت هذه الصناعة، ومالك زمام تلك البضاعة. وكان الناس يرحلون إليه ويكاتبونه لتحرير أنسابهم وتصحيحها من المشرق والمغرب، ويظهر من ترجمته وآثاره أن هذه الشعلة المضيئة من علوم الرواية الموجودة الآن في بلاد الإسلام إنما هي مقتبسة من أبحاثه وسعيه وتصانيفه ونشره، وإليه فيها الفضل يعود؛ لأنه الذي نشر لها الألوية والبنود.

قال عنه تلميذه الوجيه الأهدل في نفسه: إمام المسندين، خاتمة الحفاظ

المحدِّثين المعتمدين، الحريُّ بقول القائل:

كلٌّ يقال له ويمكن وصفه ويجاب عن إبريزه ولجينه
إلا الذي لم يأتنا بنظيره دور الزمان ولا رآه بعينه

وقال عنه من أعلام المغرب الحافظ ابن عبد السلام الناصري في رحلته لما ترجمه فيها وقد استغرقت فيها نحو عشر كراريس بعد أن حلاَّه فيها بـ«الحافظ الجامع البارع المانع»: ألفيتُه عديم النظير في كمال الاطلاع والحفظ للغة والأنساب، فقد طار صيته في هذه البلاد المشرقية حتىٰ بالعراق واليمن والشام والحرمين وإفريقية والمغرب وتونس وطرابلس وغيرها، تأتي إليه الأسئلة الحديثية وغيرها من أقطار الأرض، جمع الله له من دواوين الحديث والتفسير واللغة وغيرها من أشتات العلوم ما لم يجمعه أحد فيما شاهدنا من علماء عصرنا شرقًا وغربًا، ولا شيخنا الحافظ إدريس العراقي، تراه يشتري وينسخ دائمًا بالأجرة، يستعير من الأقطار البعيدة، ويؤتَىٰ إليه بالكتب هدية، ومع ذلك يحبس ويعطي، وله اليد الطولىٰ في التأليف، فهو واللهِ سيوطي زمانه، انخرق له من العوائد فيها ما انخرق لابن شاهين وابن حجر والسيوطي، ولو أنهم جمعوا لديه لتيقنوا أن الفضيلة لم تكن للأول.

وقال عنه عالِم مصر الشمس محمد بن علي الشنواني الأزهري في ثبته: شيخ الإسلام، علاَّمة الأنام، ناشر لواء السنة المحمدية، وواصل الأسانيد النبوية، أبو الجود وأبو الفيض.

وقد كانت سنَّة الإملاء انقطعت بموت الحافظ ابن حجر وتلاميذه كالحافظين السخاوي والسيوطي، وبهما خُتم الإملاء، فأحياه الزبيدي بعد مماته، ووصلت أماليه إلىٰ نحو أربعمائة مجلس، كان يملي في كل اثنين وخميس فقط، وقد جمع ذلك في مجلدات.

ومع كثرة شيوخ الزبيدي كثرة مهولة بالنسبة إلىٰ مشايخه ومعاصريه كان غير مكتفٍ بما عنده، بل دائم التطلُّب والأخذ ومكاتبة مَن بالآفاق، حتىٰ إني رأيت بخطه في كناشة ابن عبد السلام الناصري استدعاء كتبه لمن يلقاه ابن عبد السلام المذكور، ونصه بحروفه: «الحمد لله علىٰ جزيل أفضاله وعميم نواله، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وصحبه وآله. وبعد، فالمؤمَّل من صدقات موالينا السادات العلماء الأعلام أدام الله لهم العز والاحتشام وأتم بهم نظام الإسلام الإجازة لهذا العبد الفقير إلىٰ مولاه، الكاتب اسمه أدناه، بما يجوز لهم وعنهم روايته في معقول أو منقول أو فروع أو أصول، مع ذكر مشايخهم علىٰ قدر الإمكان، وذِكر أسانيدهم إن تيسَّر. وكتب العبد الفقير إلىٰ الله أبو الفيض محمد مرتضىٰ بن محمد بن محمد الحسيني الواسطي العراقي الأصل الزبيدي نزيل مصر، غفر له بمنِّه يوم الخميس ١٦ ربيع سنة ١١٩٧ حامدًا مصليـًا».

وإن تعجب فاعجب لهذه الهمة والحرص من هذا الحافظ العظيم الشأن وعدم شبعه وكثرة نهمه؛ فإنه عاش بعد كَتْب هذا الاستدعاء نحو الثمان سنوات. كما وقفتُ علىٰ استدعاء كتبه السيد مرتضىٰ لشيخه مفتي زبيد السيد سليمان الأهدل يستجيز منه فيه لنفسه ولجماعة من أصحابه سماهم، قال: «ومنهم فتاي بلال الحبشي، وزوجتي زبيدة بنت المرحوم ذي الفقار الدمياطي، وفتياتي سعادة ورحمة الحبشيتان».

ذكر تآليفه في هذه الصناعة الإسنادية خاصة: أكبرها معجمه الأكبر، اشتمل علىٰ نحو ستمائة ترجمة من مشايخه والآخذين عنه، وقد رأيته أهمل في تسمية كثيراً من شيوخه وتلاميذه لم يترجمهم في حروفهم. وله «المعجم الصغير»، و«ألفية السند» في ألف وخمسمائة بيت، وشرحها في عشر كراريس. و«عقد الجوهر الثمين

في الحديث المسلسل بالمحمدين»، و«العقد المكلل بالجوهر الثمين في طرق الإلباس والذكر والتلقين»، و«إتحاف الأصفياء بسلاسل الأولياء»، و«التعليقة الجليلة بتعليق مسلسلات ابن عقيلة»، و«التغريد في الحديث المسلسل بيوم العيد»، و«الإشغاف بالحديث المسلسل بالأشراف»، و«عقد الجُمان في أحاديث الجان»، و«المرقاة العلية في شرح الحديث المسلسل بالأوَّلية»، و«المواهب الجلية فيما يتعلق بحديث الأوَّلية»، و«العروس المجليَّة في طرق حديث الأولية»، و«الهدية المرتضية في المسلسل بالأولية»، و«معجم شيوخ العلامة عبد الرحمن الأجهوري شيخ القراء بمصر»، و«معجم شيوخ شيخ السجادة الوفائية»، وأسانيد شيخه القطب العيدروس المسمىٰ «النفحة القدوسية»، و«نشق الغوالي من تخريج العوالي» عوالي شيخه علي بن صالح الشاوري»، و«حلاوة الفانيد في إرسال حلاوة الأسانيد»، و«اختصار مشيخة أبي عبد الله البياني»، و«إكليل الجواهر الغالية في رواية الأحاديث العالية»، و«المربي الكاملي فيمن روىٰ عن البابلي»، و«الفجر البابلي في ترجمة البابلي»، و«قلنسوة التاج في بعض أحاديث صاحب الإسراء والمعراج»، و«عقيلة الأتراب في سند الطريقة والأحزاب»، و«الأمالي الحنفية» في مجلد، و«الأمالي الشيخونية» في مجلدين وقد بلغت أربعمائة مجلس إلىٰ تاريخ إجازاته لأبي الإمداد محمد بن إسماعيل الربعي اليمني وذلك عام ١١٩٥، و«مناقب أصحاب الحديث» منظومة في مائتين وخمسين بيتًا، «إجازته لأهل قسنطينة» في مجلد صغير، «إجازته لأهل الراشدية»، «إجازته لأولاد شيخه الغرياني». وهذا العدد العديد من التصانيف في باب واحد من أبواب الحديث قلَّ من تيسَّر له أو ذكر في ترجمته من المتأخرين، ولو جُمعت إجازاته لأهل الأقطار أو عُدَّت لقاربت المئات.

وفي «تذكرة المحسنين في وفيات الأعيان وحوادث السنين»: حدثني الفقيه

العلامة سيدي محمد بن سعد التلمساني أن الزبيدي لما توفي قُوِّمت كتبه بخمسة وعشرين ألفًا، فبلغ الخبر إلىٰ السلطان التركي فقال: لقد بخستموها. فجعل لها خمسة وسبعين ألفًا، وجعلها حبسًا علىٰ طلبة العلم بمصر.

وكان صاحب الترجمة قد بعث له سلطان المغرب - يعني محمد بن عبدالله - صلة جزيلة مع شيخ الحجيج، فلما بلغته الرسالة ومكانه منها قال له: إني سائلك: هل علماء المغرب يستوفون حقهم من بيت المال؟ قال: نعم. قال: فهل أشرافهم وضعفاؤهم ليس بهم خصاصة؟ فسكت وقال: لا يحل لي أخذُ شيء من ذلك، وإني في غير إيالته. ثم رجع بها لمحله، وبعد مدة من شهر أو أكثر طلبه وقال له: ادفع المال لرجل عيَّنه، وأمره أن يبني به مسجدًا ففعل، ويُعرَف بزاويته إلىٰ الآن يقام به الذكر ونوافل الخيرات.

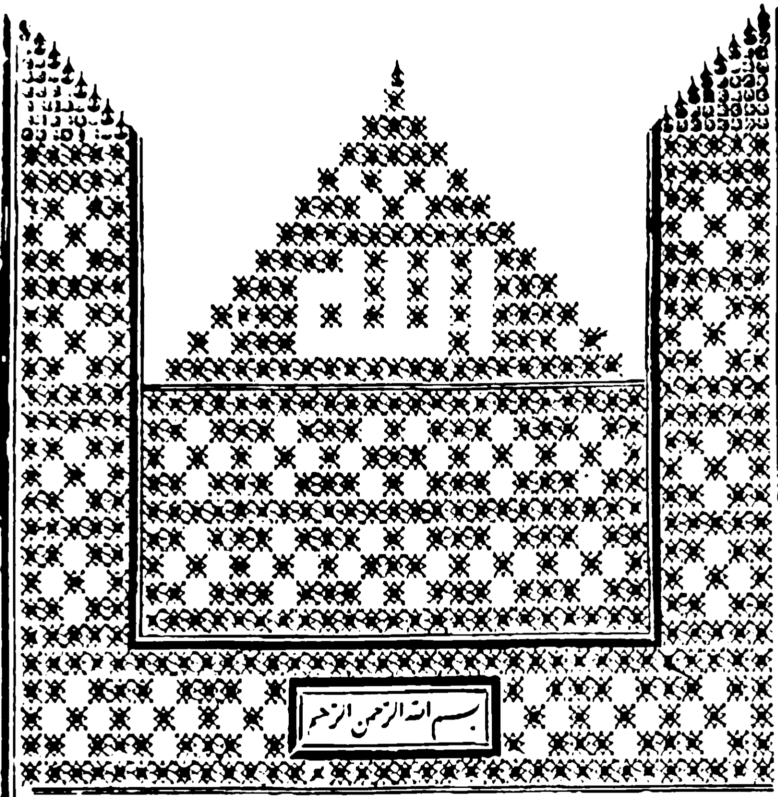
وقد عد الشهاب المرجاني في «وفيات الأسلاف» وصاحب «عون الودود علىٰ سنن أبي داوود» الزبيديَّ من المجدِّدين المحدِّثين علىٰ رأس المائة الثانية عشرة. وممن رأيتُه وصفه بذلك تلميذه الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد اللطيف البربير البيروتي في كتابه «عقود الجمان فيمن اسمه سليمان». ولعمري إنه لجدير بذلك؛ لتوفر أغلب شروط التجديد فيه، وهو أيضًا ممن أجاز عامةَ مَن أدرك حياته.

وكان نقش خاتمه الذي كان يطبع به إجازاته ومكاتيبه بيت شعر نصه:

محمد المرتضىٰ يرجو الأمان غدًا   بجده وهو أوفىٰ الخلقِ بالذمم

صور المخطوطات





الحمد لله الذي أحيا بذكره قلوب عباده العارفين * وأماط عن بواطنهم حجب الخفاء فقاموا لاحياء علوم الدين * والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد سيد الأولين والآخرين * وصفوة الانبياء والمرسلين * وقائد الغر المحجلين * وخلاصة الله من خلقه أجمعين * وعلى آله السادة الاكرمين * وأصحابه الغر الميامين * وأتباعهم باحسان الى يوم الدين * وبعد فهذه تقريرات شريفة * وتحريرات منيفة * أمليتها على كتب الاحيا للامام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى حين شرعت في اقرائه * مستعينا بحول الله شاكرا لحسن بلائه * جانحا فيه الى حل عباراته * مشيرا الى كشف الغموض عن رموزه واشاراته * مخرجا أحاديثه على طريقة حفاظ المحدثين * مبينا لأسانيد ما فيه من أقوال العلماء والعارفين * ولم آل جهدا في تهذيبه وترتيبه * وتسهيله وتقريبه * ولم أتعرض لغاته * الا ما احتيج اليه * ولا لبيان فائدة سوى ما عول عليه * وذلك لاني لو تتبعت جميع ألفاظه الشائقة * واشاراته التي اشتملتها من أفكاره الفائقة * طال الكلام * وصعب المرام * وكلت دون محاولته الافهام * اذ ما أخذه رحمه الله تعالى فيه بعيدة الغور استنباطا واستكشافا * حتى كأنه يغترف من البحر المحيط اغترافا * وأنى لمثل العاجز القاصر عن تناوله * وحسبي أن أقف لهذا البحر عند ساحله * على اني لم أر أحدا من العلماء قديما وحديثا مع كثرة تداولهم هذا الكتاب بين أيديهم وتبركهم بقراءته في سائر الاقطار * خصوصا في قطر اليمن المأنوس بالاخيار * اعتنى بضبط ألفاظه المشكلة * ولا فصل بنود عقوده المجملة * وقد شرح الله صدري لشرحه بالهام * وسقى يعبوب فكري لتحصيله باهتمام * فجاء بحمد الله جامعا للشوارد * مكملا للفوائد * ضابطا لما أهمل * مفصلا لما أجمل * مبينا لما استشكل من اللغات * معربا لما استبهم من الاشارات * كافلا لبيان ما فرق فيه من الاقوال * معينا لأهل التدريس في سائر الاحوال * بفوائد تقر بها العين * ويقول الغائص من أين أجد مثل درره من أين * اشتمل على فقه وحديث وشرح رقائق * وضوابط ودقائق * وتاريخ وأدب * تنسل اليه الرغبات من كل

حدب

هذا كتاب تعريف الأحياء بفضائل الاحيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وفق لنشر المحاسن وطيها في أحسن كتاب وجعل ذلك قرة لاعين الاحباب وذخيرة ليوم المآب والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا باحياء شريعته وطريقته قلوب ذوي الالباب وعلى آله الطيبين الطاهرين وجميع الاصحاب ما أشرقت شمس الاحياء للقلوب وتوجهت همم روحانية مصنفه الولي الموهوب الى اسعاف ملازمي مطالعته وتحبيبه بالمطلوب * (وبعد) * فان الكتاب العظيم الشان المسمى باحياء علوم الدين المشهور بالجمع والبركة والنفع بين العلماء العاملين وأهل طريق الله السالكين والمشايخ العارفين المنسوب الى الامام الغزالي رضي الله عنه عالم العلماء وارث الانبياء حجة الاسلام حسنة الدهور والاعوام تاج المجتهدين سراج المتهجدين مقتدى الائمة مبين الحل والحرمة زين الملة والدين الذي باهى به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبياء ورضي عن

الصفحة الأولى من الطبعة المصرية الحجرية



٥٧٢

الله بصيرته وجبل على الانصاف سريرته أن يصفح بحلمه عن عثاري وزللي ويسد بسداد فضله خطئي
وخللي فالكريم يقبل العثار ويقبل الاعتذار خصوصا قدر مثلي مع قصر باعه في الصناعة وكساد سوقه
بما لديه من مزجاة البضاعة لكن أخذت غفلات الظلام الغاسق والليل الواسق فسرقته من أيدي العوائق
والليل كالقبس يعين السارق واستفتحت مغالق المعاني بمفاتيح الفتوحات الالهية واستخرجت من مطالب
كنوز الفيوضات نفائس الفوائد البهية حامدا الله على ما أنعم وألهم وعلم ما لم أكن أعلم مصليا مسلما على رسوله محمد
أشرف أنبيائه وأفضل مبلغ لأنبائه وعلى آله وأصحابه وأحبابه وخلفائه صلاة لا ينقطع عددها ولا يفنى
أمدها والله أسأل أن يعم به النفع وينصبه للعزم بالرفع ويجعله كاملا ويصله بوصله وأن ينفع به جيلا بعد
جيل وحسبنا الله ونعم الوكيل وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم مخلصا من شوائب الرياء ودواعي التعظيم
وأن يرزقني الانابة والتوفيق لما يحبه ويرضاه ويبلغني مع سائر أحبابي غاية ما أتمناه وأن يطيل عمري في طاعته
ويلبسني أثواب عافيته ويجمع لي وللمسلمين بين خيري الدنيا والآخرة ويصرف عنا وأهلنا وأصحابنا
من به عباده الصالحين مع رضوانه ويمتعنا بلذة النظر الى وجهه الكريم من غير عذاب يسبق وأستودع الله
تعالى نفسي وديني وخواتيم عملي وما أنعم به على ربي وهذا الكتاب فانه سبحانه اذا استودع
شيأ حفظه والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وحزبه وسلم تسليما
كثيرا كثيرا ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وكانت مدة املائه مع شواغل
الدهر وبلائه احدى عشر عاما الا أياما آخرها في الخامسة من نهار الاحد
خامس جمادى الثانية من شهور سنة احدى بعد المائتين وألف
من هجرة من له العز والشرف وذلك بمنزلي في سويقة
لالا بمدينة مصر حرسها الله تعالى وسائر بلاد
الاسلام والحمد لله في البدء والختام
ما كرت الدهور ومرت الاعوام
وصلى الله على نبيه
وآله الكرام
وسلم

الصفحة الأخيرة من الطبعة المصرية الحجرية

٣٦
١

هذا الجزء عدد كراريسه
١٢

شرح الكتاب الخامس من الربع الثاني
من الإحياء للإمام أبي حامد الغزالي
تأليف أبي الفيض محمد مرتضى الحسيني
لطف الله به وغفر له
آمين

وفيه آداب الصحبة والأخوة وحقوقها

صور من مخطوط الإتحاف



بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما
الله ناصر كل صابر

الحمد لله الذي خص خواص عباده بخصوصيات المواهب فضلا واحسانا وافاض على قلوبهم
عوارف الفيوضات اللدنية آنافآنا ونور بصائرهم بحقائق معارفه فاعترفوا بمقاصد
الالفة الالهية مشاهدة وعيانا واودع قلوبهم من اسرار محبته الذاتية جواهر حسانا
تزرى قلائد عقودها المزينة يافوتا وعقيانا والصلاة والسلام الاتمان الاكملان
على حبيبه وصفيه ونجيه ابي القسم عبد الله محمد الذي اختاره واصطفاه ورقاه مراتب
واعيانا ثم بعثه متمما لمكارم الاخلاق الى كافة الخلق انسا وجانا وهدى به
السبيل الاقوم لمن سبقت له العناية من الازل رحمة وامتنانا واحيا به طرق
الايمان بعد ان جهل مكانا ووهت اركانا وعلى آله السادة المتقين الذين جعلهم
جعل الله حبهم للسعادة الكبرى عنوانا واصحابه الاكرمين الذين فازوا بقربه
من الكرامة شرفا ورضوانا اما بعد فهذا شرح كتاب اداب الصحبة والاخوة
والمعاشرة مع اصناف الخلق وهو الخامس من الربع الثاني من كتاب الاحياء للامام
حجة الاسلام ابي حامد الغزالي سقى الله جدثه صوب رحمة المتالي قصدت
فيه كشف ما ابهم من طي مبانيه وتوضيح ما اودع في سر معانيه وعزو ما نيه

صور من مخطوط الإتحاف (١)

للداعي فالسكوت منه أولى وهذا الخلاف في الأسامي فصل اتفقوا على السنة
على أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين أحدهما ما تسبب إليه الميت في حياته والثاني
دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع في ما يصل من ثواب الحج فعن محمد بن الحسن
أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة والحج للحاج وعند عامة أصحابنا ثواب الحج للمحجوج عنه وهو
الصحيح واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب أبو حنيفة
وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها
وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره وقوله
مردود بالكتاب والسنة واستدلاله بقوله تعالى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى مدفوع بأنه
لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملك غير سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فإن
شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه تعالى لم يقل إنه لا ينتفع إلا بما سعى
[illegible] قراءة القرآن والإهداء له تطوعا بغير أجرة يصل إليه أما لو أوصى بأن يعطى شيء من ماله
لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لأنه في معنى الأجرة كذا في الاختيار والعمل الآن على خلافه
فالأولى أن يوصي بنية التعلم والتعليم ليكون معونة لأهل القرآن فيكون من جنس الصدقة عنده
فيجوز ثم القراءة عند القبور مكروهة عند أبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية لأنه لم ترد به السنة
وقال محمد بن الحسن وأحمد في رواية لا تكره لما روي عن ابن عمر أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت
الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها والله أعلم فصل كره أبو حنيفة وصاحباه
أن يقول الرجل أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك أو بحق البيت الحرام والمشعر الحرام
ونحو ذلك إذ ليس لأحد على الله حق وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي اللهم إني أسألك
بمعاقد العز من عرشك أو بمقاعد وأجازه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه وأما ما ورد من قول
الداعي اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي إليك [illegible]
الذي وعده بمقتضى الرحمة والله أعلم فصل في القرآن قال حافظ الدين النسفي إن
القرآن اسم للنظم والمعنى وما ينسب إلى الإمام أبي حنيفة أن من قرأ في الصلاة بالفارسية
أجزأه فقد رجع عنه وقال لا يجوز مع القدرة بغير العربية وقالوا لو قرأ بغير العربية
فإما أن يكون مجنونا فيداوى أو زنديقا فيقتل لأن الله تكلم بهذه اللغة والإعجاز

صور من مخطوط الإتحاف (٢)

صور من مخطوط الإتحاف (٣)

صور من مخطوط الإتحاف (٤)

ومن كتب الماتريدية شرح عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي لأبي المحاسن
محمود بن أحمد بن مسعود القونوي الحنفي وشرح العقائد النسفية لمؤلفها
الإمام نجم الدين عمر بن محمد النسفي وللإمام حافظ الدين عبد الله بن أحمد النسفي
وللإمام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني وحاشية ~~...~~ أحمد بن
موسى الخيالي عليه وكتاب المسايرة للكمال ابن الهمام مع شرح تلميذه ابن
أبي شريف عليه وشرح الفقه الأكبر للعلامة ملا علي القاري
ونظم الفرائد وجمع الفوائد للفاضل عبد الرحيم بن علي الرومي وإشارات
المرام من عبارات الإمام للعلامة بياضي زاده جمع فيه الكتب الخمسة
المنسوبة للإمام وشرحها والعمدة للإمام ناصر الحق أبي ... أحمد بن
محمود الصابوني البخاري وهو شرح عمدة النسفي وشرح بحر الكلام للبخاري
وتلخيص الأدلة للصفار وغير هؤلاء مما سيأتي التصريح بالنقل
عنها في مواضع من هذا الكتاب ....

مقدمة وفيها ~~...~~ في ترجمة إمامي السنة أبي الحسن الأشعري وأبي منصور
الماتريدي فأما أبو الحسن الأشعري فهو الإمام الناصر للسنة إمام المتكلمين
علي بن إسماعيل بن أبي بشر بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن
أبي بردة بن أبي موسى الأشعري واسم أبي موسى عبد الله بن قيس صاحب رسول الله
صلى الله عليه وسلم ورضي عنه ترجمه الحافظان أبو القاسم بن عساكر في كتاب
تبيين المفتري على أبي الحسن الأشعري وأبو عبد الله الذهبي في تاريخ الإسلام
ثم التاج السبكي في الطبقات والعماد بن كثير الحافظ في الطبقات أيضا ما بين
مطول ومختصر فأما حاصله ولد سنة ستين ومائتين وقيل سنة سبعين

صور من مخطوط الإتحاف (٥)

شيئا من صاحبه. وبهذا الإسناد إليه قال وهب: إن لإزالة الجبل صخرة صخرة
ونقله حجرا حجرا أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل لأنه إذا كان مؤمنا عاقلا
ذا بصيرة فلهو أثقل على الشيطان من الجبال وأصعب من الحديد وإنه ليزاوله بكل
حيلة فإذا لم يقدر على أن يستزله قال: يا ويله ما له ولهذا لا طاقة لي بهذا ولا قوة
لي بهذا فيرفضه ويتحول إلى الجاهل فيستأسره ويستمكن من قياده حتى يسلمه إلى
الفضائح التي يتعجل بها في عاجل الدنيا. وإن الرجلين ليستويان في أعمال البر فيكون
بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعده إذا كان أحدهما أعقل من الآخر. أخرجه
أبو نعيم في الحلية هكذا من طريق الحارث بن أبي أسامة عن داود المذكور. وأما من
غير كتاب داود فأخرج الخطيب من رواية أبي سمعان عن الزهري والطبراني من
رواية عنبسة بن عثمان عن دمشقي عمر بن محمد بن زيد كلاهما عن سالم عن أبيه عن عمر مرفوعا:
إن لكل شيء معدنا ومعدن التقوى قلوب العارفين. وأخرج الخطيب أيضا من رواية
عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر رفعه: إن الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن
أهل الصلاة والصيام وممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وما يجزى يوم القيامة
إلا على قدر عقله. وأخرج الخطيب أيضا من رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن نافع
عن ابن عمر رفعه: لا تعجبوا بإسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله. وأخرج البيهقي في
الشعب من رواية خليد بن دعلج عن معاوية بن قرة رفعه: الناس يعملون بالخير
وإنما يعطون أجورهم على قدر عقولهم. خليد ضعيف. وأخرج ابن عدي من
رواية الربيع الجيزي ثنا محمد بن وهب الدمشقي ثنا الوليد بن مسلم ثنا مالك بن أنس
عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه: أكمل الناس عقلا أطوعهم لله وأعملهم بطاعته
وأنقص الناس عقلا أطوعهم للشيطان وأعملهم بطاعته. قال ابن عدي: هو باطل.
وأخرج البيهقي وابن عدي من رواية أحمد بن بشير ثنا الأعمش عن سلمة بن كهيل عن

صور من مخطوط الإتحاف (٦)

وبيده أبو المهدي درج أبيض وهو بالفارسية طلاقة ورق يكتب عليها وجمعه أدراج فقال له يا سفيان
ولقد القوت فقال للثوري يا أبا عبد الله أعطني الدواة حتى أكتب فقال سفيان أخبرني أي
شيء تكتب فإن كان حقاً أعطيتك وهذا من الورع وطلب بعض الأمراء من بعض العلماء المحبوسين
عنده أن يناوله طين الختم بعد كتابته ولقد القوت وكان بعض العلماء قد حبس في ديوان
بعض الأمراء فكتب الأمير كتاباً فقال له الأمير ناولني الطين حتى أختم به الكتاب فقال ذلك
العالم ناولني الكتاب أولاً حتى أنظر فيه وليس في القوت أولاً قال ولم يناوله فهكذا كانوا
يحترزون من معاونة الظلمة ويتورعون منها وقد قيل في تفسير قوله تعالى احشروا الذين ظلموا
وأزواجهم أي أشباههم وأعوانهم ومعاملتهم أشد أنواع [illegible] الإعانة فينبغي أن يجتنبه
ذوو الدين ما وجدوا إليه سبيلاً ومما يلتحق بمعاونتهم معاونة من يعاملهم كالخياط والخراز
والحداد وغيرهم ممن باع لهم شيئاً فقد أعانهم وقد تقدم أن رجلاً جاء إلى ابن المبارك فقال إني
خياط فربما خطت شيئاً لبعض عمال السلطان فإذا تراني أكون من أعوان الظلمة فقال
لست من أعوان الظلمة بل أنت من الظلمة إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الإبر والخيوط
وفي القوت واستحب له أن يتوقى في البيع والشرا ويتحرى أهل التقوى والورع
ويكره له معاملة من لا يتورع من الحرام أو من الغالب على ماله الشبهات وحدثنا عن محمد بن
شيبة قال كتب غلام ابن المبارك إليه إنا نبايع أقواماً يبايعون السلطان فكتب
إليه ابن المبارك إذا كان الرجل يبايع السلطان وغيره فبايعه وإذا قضاك شيئاً فاقبض
منه إلا أن يقضيك شيئاً تعرفه بعينه حراماً فلا تأخذه وإذا كان لا يبايع إلا السلطان
فلا تبايعه وبالجملة فينبغي أن ينقسم الناس عنده إلى من يعامل ومن لا يعامل وليكن
من يعامله أقل ممن لا يعامله في هذا الزمان قال بعضهم ولقد القوت وحدثنا الشيوخ
عن شيخ له من الخلف الصالح قال أتى على الناس زمان كان الرجل يدخل السوق ويقول
ولقد القوت يأتي على شيخه الأسواق فيقول من ترون لي أن أعامل من الناس فيقال عامل
من شئت [illegible] ثم أتى [illegible] على الناس [illegible] زمان آخر

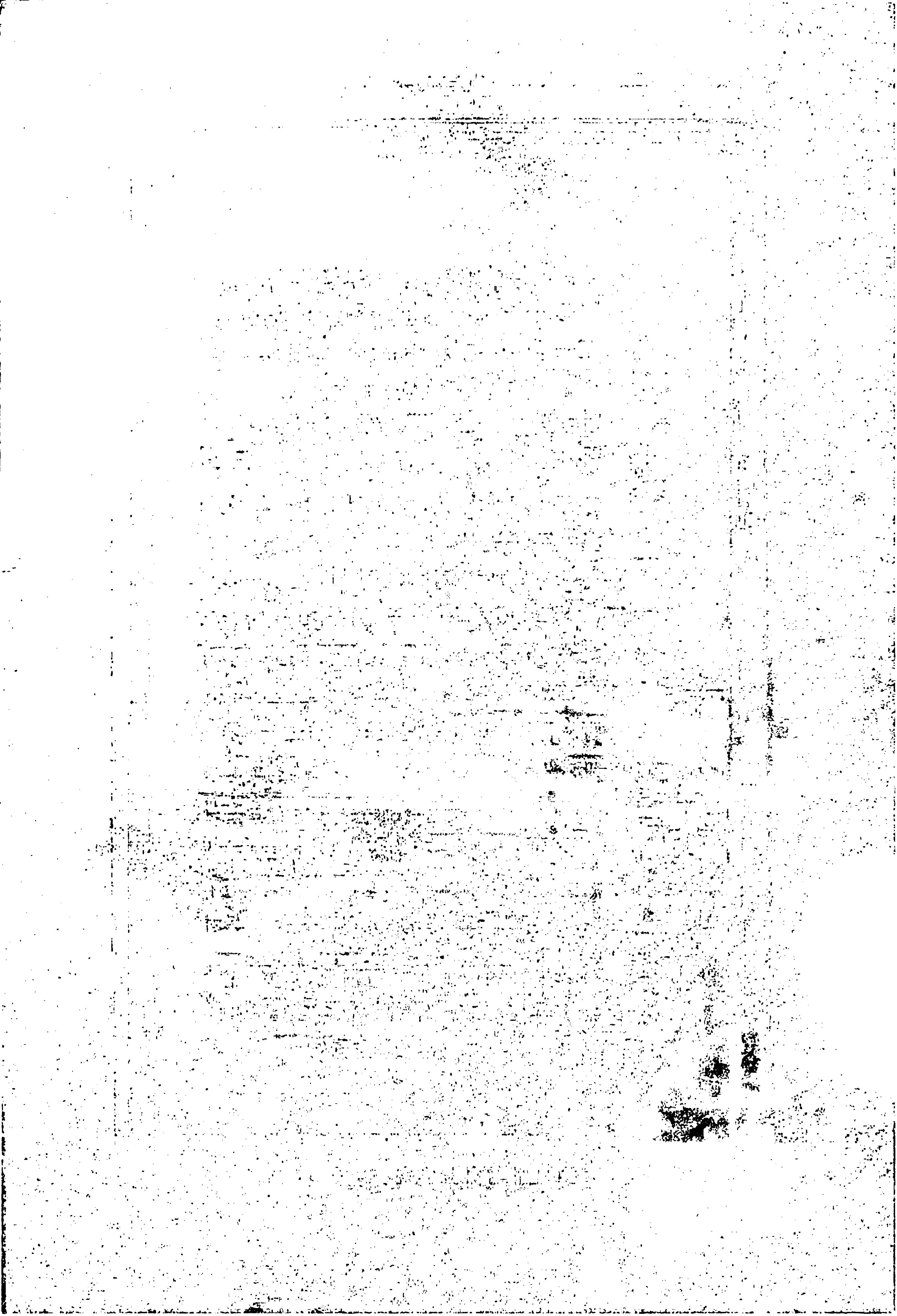
صور من مخطوط الاتحاف (٧)

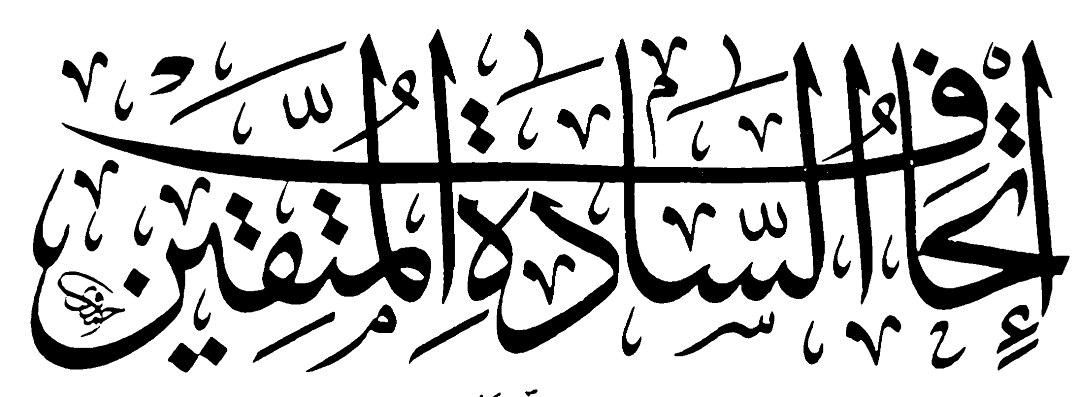
الآثار جمع أثر متقدم تعريفه وكذا الفرق بينه وبين الخبر في أول الكتاب
أوردتها رحمه الله أقوال بعض الصحابة كعلي وابن عباس وابن مسعود وعمر بن الخطاب
رضي الله عنهم وبعض التابعين كابن الأسود والحسن والأحنف والزهري ومن
بعدهم كابن المبارك والشافعي والزبير بن أبي بكر رحمهم الله تعالى ومن بعدهم من أهل
الصلاح كفتح الموصلي وغيره من الحكماء قال أبو الحسن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
رضي الله عنه لتلميذه يا كميل بالتصغير هو كميل بن زياد من مشاهير أصحاب علي رضي الله عنه النخعي و
وكان من أعيان الزهاد وللسادة الصوفية سند في لبس الخرقة إليه أخرج أبو نعيم
في الحلية من طريق عاصم بن حميد الحناط ثنا ثابت بن أبي صفية أبو حمزة الثمالي
عن عبد الرحمن بن جندب عن كميل بن زياد قال أخذ علي بن أبي طالب بيدي
فأخرجني إلى ناحية الجبان فلما أصحرنا جلس ثم تنفس ثم قال [illegible]

~~العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال [illegible]~~
~~[illegible]~~
~~العلم خير من الذهب والفضة [illegible] والعلم حاكم والمال محكوم عليه~~
~~[illegible]~~
~~تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق [illegible] وأنت تحرس المال~~
~~[illegible] تنقصه النفقة مات خزان الأموال [illegible]~~
~~[illegible] والعلماء باقون ما بقي الدهر [illegible]~~
~~[illegible] إلى يوم القيامة [illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~

[illegible margin notes]

صور من مخطوط الاتحاف (٨)





للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح



لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي



2024



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحيا بذِكره قلوبَ عباده العارفين، وأماط عن بواطنهم حُجُب الخفاء، فقاموا لإحياء علوم الدين، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد سيد الأوَّلين والآخرين، وصفوة الأنبياء والمرسَلين، وقائد الغُرِّ المُحجَّلين، وخلاصة الله من خَلْقه أجمعين، وعلىٰ آله السادة الأكرمين، وأصحابه الغُرِّ الميامين، وأتباعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد:

فهذه تقريرات شريفة، وتحريرات مُنيفة، أمليتُها علىٰ كتاب الإحياء للإمام حُجة الإسلام أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالىٰ حين سُئلت في إقرائه، مستعينًا بحَوْل الله، شاكرًا لحُسن بلائه، جانحًا فيه إلىٰ حل عباراته، مشيرًا إلىٰ كشف الغموض عن رموزه وإشاراته، مخرِّجًا أحاديثه علىٰ طريقة حفَّاظ المحدِّثين، مبيِّنًا لأسانيد ما فيه من أقوال العلماء والعارفين، ولم آلُ جهدًا في تهذيبه وترتيبه وتسهيله وتقريبه، ولم أتعرَّض لِلُغاته إلَّا ما احتِيجَ إليه، ولا لبيانِ فائدةٍ سوىٰ ما عوِّل عليه، وذلك لأني لو تتبعت جميع ألفاظه الشائقة وإشاراته التي انتثلتها من أفكاره الفائقة طال الكلامُ وصعُب المَرامُ، وكلَّت دون محاولته الأفهامُ؛ إذ مآخذه رحمه الله تعالىٰ فيه بعيدة الغَوْر استنباطًا واستكشافًا، حتىٰ كأنه يغترف من البحر المحيط اغترافًا، وأنَّىٰ لمِثل العاجز القاصر عن تساجله؟ وحسبي أن أقف لهذا البحر عند ساحله.

علىٰ أني لم أرَ أحدًا من العلماء قديمًا وحديثًا - مع كثرة تداوُل هذا الكتاب بين أيديهم، وتبرُّكهم بقراءته في سائر الأقطار، خصوصًا في قُطر اليمن المأنوس بالأخيار - اعتنىٰ بضبط ألفاظه المشكلة، ولا فصَّل بنود عقوده المُجمَلة، وقد شرح الله صدري لشرحه بإلهام، وسعىٰ يعبوب فكري لتحصيله باهتمام، فجاء - بحمد الله - جامعًا للشوارد، مكمِّلًا للفوائد، ضابطًا لِما أهمل، مفصِّلًا لما أجمل، مبيِّنًا لما استشكل من اللغات، مقرِّبًا لما استبهم من الإشارات، كافلًا لبيان ما فُرِّقَ فيه من الأقوال، معينًا لأهل التدريس في سائر الأحوال بفوائد تقرُّ بها العينُ، ويقول الغائص: من أين أجد مثل دُرَره من أين؟ اشتمل علىٰ فقه وحديث ورقائق وضوابط ودقائق وتاريخ وأدب، تنسلُّ إليه الرغبات من كل حَدَب، ولست أقول ذلك لأنفق البضاعة، بل لأشوِّق أربابَ الصناعة، وأجمع علىٰ حبِّ هذا الكتاب أهلَ السنَّة والجماعة، وأعرِّف المريدين سلوكَ طريقه، وأشير لهم إلىٰ كمال تحقيقه وتدقيقه، وأنَّ صبح فضله طلع فاستغلظ فاستوىٰ علىٰ سُوقه، وناداني لسان الإنصاف غير متلبِّث قل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحىٰ: ١١] فقد روىٰ الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يُرَىٰ أثرَ نعمتِه علىٰ عبده»(١). فعند ذلك قلتُ: لا للفخر والسمعة، بل لإبانة الحق وحُسن الصنعة.

إن هذا المجموع شمس عوارف المعارف، وقمر لطائف الظرائف، ونجم سماء العُلىٰ، والناس تلقاء حَرَمه بين عاكف وطائف، مَن شاهده قال: هكذا وهكذا وإلا فلا لا، ومَن أنفق من خزائن عِلمه لم يخشَ من ذي العرش إقلالاً، ومَن تأمله

(١) سنن الترمذي ٤/ ٥١٠ (ط - دار الغرب الإسلامي ببيروت).

منصفًا جبُن عن معارضته، وأنشد: أهابك إجلالاً[١]، ومَن لم يغترف من بحر دُرَره ولم يعترف برفع قَدْره فهو المحروم نوالًا.

ومَن يكُ ذا فم مر مريضٍ يجدْ مرًّا به ماءَ زُلالا[٢]

ولَكأنّي بمن يحسد شمس ضوئه ويجتهد أن يأتي له بنظير ويُطاوِل الثريَّا وما أبعدها عن المتناوَل فيرجع إليه بصرُه خاسئًا وهو حسير.

وأتعبُ خَلْقِ الله مَن زاد همُّه وقصر عما تشتهي النفس وَجْده[٣]

واستخرت الله تعالىٰ في أن أسميه:

إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين

وأنا مع وضعي هذا الكتاب ما أبرِّئ نفسي ولا كتابي من خَلَل ورَيْب، ولا أبيعه بشرط البراءة من كل عيب، بل أعترف بكمال القصور، وأسأل الله الصَّفح عما جرىٰ به القلمُ بهذه السطور، وأقول لناظر جمعي هذا: لا تأخذنَّ في نفسك علىٰ شيء وجدتَه فيه مغايرًا للفهم؛ فإن الفهوم قد تختلف، ومَن صنَّف فقد استُهدف، وأعتذر لك أيها المنصف من خطأ أو زَلَّة، فالجواد قد يكبو، والفتىٰ قد يصبو، ولا يُعدُّ إلا فضولات العارف، وتدخل الزُّيوف علىٰ أعلىٰ الصَّيارف، ولا يخفىٰ عليك أن التعقُّب علىٰ الكتب سيَّما الطويلة سهلٌ بالنسبة إلىٰ تأليفها ووضعها وترصيفها،

(١) جزء من بيتٍ تمامُه:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة عليَّ ولكن ملء عين حبيبها

وهو لنصيب بن رباح في ديوانه ص ٦٨ (ط - مطبعة الإرشاد ببغداد).

(٢) البيت لأبي الطيب المتنبي، وهو في ديوانه ص ١٤١ (ط - دار بيروت).

(٣) لأبي الطيب المتنبي وهو في ديوانه ص ٣٦٨

كما يُشاهَد في الأبنية القديمة والهياكل العظيمة، حيث يعترض علىٰ بانيها مَن عَرِيَ في فنِّه علىٰ القوة والقدرة بحيث لا يقدر علىٰ وضع حجر علىٰ حجر.

هذا جوابي عما يَرِد علىٰ كتابي.

وقد كتب أستاذ البلغاء القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني إلىٰ العماد الكاتب الأصبهاني معتذرًا عن كلام استدركه عليه: إنه وقع لي شيء، ولا أدري أوقع لك أم لا، وها أنا أخبرك به، وذلك أني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليل علىٰ استيلاء النقص علىٰ جملة البشر.

فأرجو مسامحة ناظريه فهم أهلوها، وأؤمِّل جميلهم فهم أحسن الناس وجوهًا، وهذا حين الشروع في المقصود، ولا ينبغي أن يملَّ الناظر في هذا الكتاب كثرةَ الكلام علىٰ تخريج حديث بذكر الأسانيد والاستطراد المزيد في بعض المسائل والتراجم؛ فإنه لذلك وُضع، وعلىٰ أعواد هذه القواعد رُفع، وسترىٰ فيه من الفوائد ما لا يوجد في مجموع، ومن الزوائد ما هو فوق الفرقد مرفوع، والله المسؤول أن يتقبله بقبول حسن، وأن يعينني علىٰ إكماله في أقرب زمن علىٰ نهج يرتضيه أهل الحق بالوجه المستحسَن، وهو المُعين المجيب، عليه توكلت، وإليه أنيب.

وهذا بيان الكتب التي منها أخذتُ، وعنها بلا واسطة نقلت واستفدت:

فمن ذلك في علم اللغة: شرحي علىٰ «القاموس»[1] الذي أحاط بجيِّد

(١) هو كتاب: تاج العروس بشرح جواهر القاموس، وهو من أعظم دواوين اللغة.

اللغة وحُوشيها[١]، الذي إذا رآه المنصف البعيد عن المِرا[٢] قال: «كل الصيد في جوف الفَرا»[٣]، فاستغنيت بمراجعته عن جملة من الكتب المؤلَّفة في الفن، وأوردت منه كل مستحسَن، ولم أُخْلِ مع ذلك نظري في كتاب «النهاية» لابن الأثير، و«الفائق» للزمخشري، و«المفردات» لأبي القاسم الراغب، و«عمدة الحفاظ» للسمين الحلبي، و«التوقيف»[٤] للمناوي، وكتاب «الزينة» لأبي حاتم الرازي[٥]، و«مشكل القرآن» لابن قُتَيبة. فربما استفدت منها جملًا كثيرة أوردتها مع مناسباتها في مواضعها.

ومن كتب أصول الفقه: «التَّوضيح» لصدر الشريعة[٦]، وشرحاه: «التنقيح» للسيد الجُرجاني و«التلويح» للسعد التفتازاني، و«المنهاج» للبيضاوي، وشرحه

---

(١) في هامش المطبوعة: «قوله: وحوشيها، في القاموس: الحُوشي بالضم: الغامض من الكلام». ا.هـ.

(٢) المرا: المراء، وهو الجدال.

(٣) قال الميداني: «قال ابن السكيت: الفراء: الحمار الوحشي، وجمعه: فِراء. قالوا: وأصل المَثَل أن ثلاثة نفر خرجوا متصيدين، فاصطاد أحدهم أرنبًا، والآخر ظبيًا، والثالث حمارًا، فاستبشر صاحب الأرنب وصاحب الظبي بما نالا وتطاولا عليه، فقال الثالث: كل الصيد في جوف الفرا. أي هذا الذي رُزقت وظفرت به يشتمل علىٰ ما عندكما، وذلك أنه ليس مما يصيده الناس أعظم من الحمار الوحشي. وتألَّف النبي ﷺ أبا سفيان بهذا القول حين استأذن علىٰ النبي ﷺ فحُجب قليلاً ثم أذن له، فلما دخل قال: ما كدتَ تأذن لي حتىٰ تأذن لحجارة الجلهتين - أي جانبي الوادي - فقال النبي ﷺ: «يا أبا سفيان، أنت كما قيل: كل الصيد في جوف الفرا» يتألفه علىٰ الإسلام. قال أبو العباس: معناه: إذا حجبتك قنع كل محجوب. يُضرب لمن يفضَّل علىٰ أقرانه».

مجمع الأمثال ٢/ ١٣٥ (ط - مطبعة السنة المحمدية).

وقال الزمخشري في المستقصىٰ في أمثال العرب ٢/ ٢٢٤ (ط - دائرة المعارف العثمانية بالهند): «يُضرب في الواحد الذي يقوم مقام الكثير لعِظَمه».

(٤) هو كتاب: التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، وهو ذيل علىٰ كتاب التعريفات للشريف الجرجاني.

(٥) هذا سهو من المؤلف رحمه الله، وإنما هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني، أحد كبار علماء اللغة والشعر، المتوفى سنة ٢٤٧.

(٦) عبيد الله بن مسعود بن محمود المحبوبي البخاري الحنفي، المتوفى سنة ٧٤٧.

لمحمد بن طاهر القزويني[١]، و«شفاء العليل في مسالك التعليل» للمصنف[٢].

ومن كتب الحديث التي احتاج الأمرُ إلىٰ مراجعتها: شرح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني المسمىٰ بـ«فتح الباري»، وهو البحر الذي تقف عنده الأفهام، وتغترف من فيوضاته الأعلامُ، مع إعادة النظر في كل من شروح القسطلاني[٣] وابن الملقن[٤] والكوراني[٥] والزركشي[٦] والسيوطي[٧] والسِّندي، و«شرح الجامع الصغير»[٨] للمناوي، والسنن لكل من البيهقي والدارقُطني، وشرح السيوطي[٩] علىٰ الترمذي.

ومن المسانيد للإمام أحمد وعبد بن حُمَيد ومسدَّد وابن أبي شيبة والديلمي، ومن المعاجم: الكبير والأوسط للطبراني، ولابن جُمَيع الغساني.

---

(١) اسم هذا الشرح: سراج العقول إلىٰ منهاج الأصول، طُبع في دار النور المبين بتحقيق د. سيف النصر الجبالي.

(٢) يعني الغزالي.

(٣) شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المصري، المتوفى سنة ٩٢٣، واسم الشرح: إرشاد الساري.

(٤) سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، المتوفى سنة ٨٠٤. واسم الشرح: التوضيح لشرح الجامع الصحيح.

(٥) أحمد بن إسماعيل الكوراني الحنفي المتوفى سنة ٨٩٣، واسم الشرح: الكوثر الجاري علىٰ رياض البخاري. رد في كثير من المواضع علىٰ الكِرماني وابن حجر. كشف الظنون ٢/ ٥٥٣.

(٦) بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي المصري المتوفى سنة ٧٩٤. واسم الشرح: التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح.

(٧) اسم هذا الشرح: التوشيح علىٰ الجامع الصحيح. وله شرح آخر يسمىٰ: الترشيح، لم يتم. كشف الظنون ١/ ٥٤٩.

(٨) المسمىٰ: فيض القدير.

(٩) المسمىٰ: قوت المغتذي.

ومن الكتب التي أعتمد علىٰ تخريج أحاديث الكتاب عليها: «المغني عن حمل الأسفار» للحافظ العراقي في مجلد، فأذكر كلامه عقيبَ الحديث، ثم أزيد عليه حسبما فتح الله عليَّ في مطالعتي لكتب الفن، وربما نقلت في بعض المواضع من تخريجه الكبير عليه، ولم أظفر منه إلا علىٰ كراريس. ومن ذلك: «الجامع الكبير» و«الصغير» والذيل عليه، الثلاثة للسيوطي، وموضوعات ابن الجَوْزي، و«اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» استدراكًا علىٰ ابن الجوزي للسيوطي، مع الذيل عليه له، و«نوادر الأصول» للحكيم أبي عبد الله محمد بن علي الترمذي، و«العلل» للدارقطني اثنا عشر مجلدًا، و«الكامل» لابن عدي نحو ذلك، و«الإصلاح علىٰ المستدرك» للعراقي الحافظ بخطه، و«اقتضاء العلم العمل» و«شرف أصحاب الحديث»، كلاهما لأبي بكر الخطيب الحافظ، وتاريخه الكبير الحافل[1] في عشر مجلدات، والذيل عليه للبنداري في مجلد، وأيضًا لابن النجار الحنبلي[2] في مجلدات، و«تجريد الصحاح والسنن» لرزين بن معاوية العبدري السَّرَقُسْطي، و«القول المسدَّد في الذَّبِّ عن مسند الإمام أحمد» للحافظ ابن حجر، و«تخريج أحاديث الأذكار» له، و«حلية الأولياء» للحافظ أبي نُعَيم الأصبهاني، و«تخريج أحاديث المنهاج الأصولي»[3] لكل من التاج السبكي وابن الملقن، و«التذكرة» للبدر الزركشي، و«المقاصد الحسنة» للحافظ السخاوي، و«الأمالي علىٰ مسانيد أبي حنيفة» للزين قاسم بن قطلوبغا

---

(١) هو: تاريخ بغداد.

(٢) كذا نسبه المؤلف، وإنما هو محب الدين محمد بن محمود بن الحسن ابن النجار البغدادي الشافعي، المتوفي سنة ٦٤٣، وذيله مشهور وإن كان قد فُقد معظمه. أما ابن النجار الحنبلي فهو تقي الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز الفتوحي المصري المتوفي سنة ٩٧٢، وليس له ذيل علىٰ تاريخ بغداد.

(٣) يعني كتاب «منهاج الوصول إلىٰ علم الأصول» للقاضي البيضاوي، تمييزًا له عن كتاب «منهاج الطالبين» في فقه الشافعية للإمام النووي.

الحنفي الحافظ، و«اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة» لابن طولون الحنفي، و«أطراف المسانيد العشرة»[(١)] للشهاب البوصيري، و«جمع الفوائد» لمحمد بن سليمان[(٢)]، وكتاب «العلم» لأبي خَيْثَمة زهير بن حرب النسائي ... إلىٰ غير ذلك مما استفدت من معانيها وأسرارها، كشرح الملا علي[(٣)] علىٰ مختصر هذا الكتاب المسمىٰ بـ «عين العلم»، و«الذريعة إلىٰ محاسن الشريعة» للقفَّال الشاشي، و«الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» لأبي القاسم الراغب، و«البحر الزاخر» لأبي الطيب حمدان بن حمدويه، و«جواهر القرآن» للمصنف، و«فضائل القرآن» للقرطبي[(٤)].

وأما ما يتعلق بأصول الدين والاعتقاد والفقه وفروعه فسيأتي بيان مآخذ كل ذلك في مواضعه علىٰ ما يسَّر الله تعالىٰ عليَّ في مراجعته والكشف عن مَظانِّه، فأذكر في كتاب العقائد ما تحصَّل لديَّ، وفي العبادات كذلك.

وأما التصوف والرقائق فقد طالعت عليه كتبًا كثيرة، وأجلُّها مقدارًا: «الرسالة» للإمام أبي القاسم القشيري، وشرحاها لأبي محمد عبد المعطي بن

---

(١) هو كتاب «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» يعني: مسند أبي دواد الطيالسي، والحميدي، ومسدد بن مسرهد، وابن أبي عمر العدني، وإسحاق بن راهويه، وأبي بكر بن أبي شيبة، وأحمد بن منيع، وعبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة، وأبو يعلىٰ الموصلي - علىٰ الكتب الستة.

(٢) شمس الدين محمد بن سليمان بن الفاسي بن طاهر الروداني السوسي المغربي المالكي، المتوفي سنة ١٠٩٤. وكتابه هو: جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، في الحديث. الأعلام ٦/ ١٥١.

(٣) اسم هذا الشرح: فهم المعلوم. أما المختصر فهو لبعض علماء الهند، كما في كشف الظنون ١/ ٢٤. وسيأتي للشارح في الفصل التاسع عشر أن المختصر لمحمد بن عمر بن عثمان البلخي.

(٤) صاحب التفسير المشهور، واسم الكتاب كاملًا: فضائل القرآن وآداب التلاوة.

محمود اللخمي[١]، ولشيخ الإسلام زكريا[٢]، و«قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وعليهما[٣] مدار كتاب الشيخ غالبًا، و«منازل السائرين» لشيخ الإسلام الهَرَوي، و«عوارف المعارف» للشهاب السَّهْرَوَرْدي، و«التعرُّف» لأبي نصر الكلاباذي[٤]، و«تأييد الحقيقة العلية» للحافظ السيوطي، و«منازل السائرين ومقامات الطائرين» للشيخ نجم الدين دايه، و«مفيد العلوم» لأبي بكر الخُوارزمي، و«الذهب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز» تأليف أفضل المتأخرين أحمد بن مبارك اللَّمَطي السجلماسي[٥].

ومن كتب التواريخ: «الوافي بالوفيات» للصلاح الصَّفَدي، و«الطبقات الكبرىٰ» لابن السبكي، وطبقات القطب الخيضري[٦]، والحافظ عماد الدين ابن كثير الدمشقي[٧].

وفي أسماء الرجال: «الكاشف» للحافظ الذهبي، و«الديوان»[٨] له، و«المشتبه» له، و«الكُنَىٰ» لابن المهندس[٩]، و«التبصير» للحافظ ابن حجر.

---

(١) فقيه مالكي مصري، توفي سنة ٦٣٨. واسم شرحه: شرح الدلالة علىٰ فوائد الرسالة.

(٢) القاضي زكريا بن محمد الأنصاري المتوفي سنة ٩١٠، واسم شرحه: إحكام الدلالة علىٰ تحرير الرسالة.

(٣) يعني الرسالة القشيرية وقوت القلوب.

(٤) كتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» لأبي بكر محمد بن إبراهيم الكلاباذي المتوفي سنة ٣٨٠، وليس لأبي نصر أحمد بن محمد بن الحسين الكلاباذي المتوفي سنة ٣٩٨.

(٥) فقيه مالكي مغربي توفي سنة ١١٥٦، وعبد العزيز هو شيخه عبد العزيز بن مسعود الدباغ.

(٦) قطب الدين أبو الخير محمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الشافعي المتوفي سنة ٨٩٤، له كتاب: طبقات الشافعية.

(٧) يعني كتاب «طبقات الشافعية» له.

(٨) هو كتاب: ديوان الضعفاء والمتروكين وخلق من المجهولين وثقات فيهم لين.

(٩) شمس الدين محمد بن إبراهيم بن غنائم الدمشقي المتوفي سنة ٧٣٣.

وأما ما نقلتُ منه مسألة أو فائدة أو كلمة غريبة أو نادرة عجيبة من أجزاء ومعاجم ومسانيد ومشيخات ورسائل وأمالي ومستخرجات فشيء لا أحصيه الآن، كما ستقف عليه عند رفع الستور عن وجه البيان.

ولنصرف عنان الهمة عن ذِكر المآخذ إلىٰ بيان الباعث الأعظم علىٰ جمع هذا الشرح وترتيبه وتنسيقه علىٰ هذا المنوال وتهذيبه بعد إشارات صدرت من بعض العلماء وتكرر إلحاحُهم عليَّ فيه، فأقول:

اعلمْ أن الباعث لي علىٰ الإقدام في شرح هذا الكتاب أمور ثلاثة:

الأول: الإكثار من ذِكر الصالحين وأُولي الخير والدين، وسياق أطراف من أحوالهم؛ فإن ذلك من أكبر الأسباب الباعثة علىٰ محبتهم، وهي أحد أسباب الفوز؛ لِما أخبرنا به شيخنا المسنِد الجليل عمر بن أحمد بن عقيل فيما شافهني فيه، أخبرنا الإمام المحدِّث عبد الله بن سالم بن محمد بن عيسىٰ، أخبرنا الشمس محمد بن العلاء الحافظ، أخبرنا النور علي بن يحيىٰ، أخبرنا يوسف بن عبد الله، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ[١]، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن علي ابن محمد الحافظ[٢]، أخبرنا الشهاب أحمد بن خليل العلائي، أخبرنا والدي[٣]، أخبرنا أبو الربيع سليمان بن حمزة، أخبرنا محمد بن عبد الواحد الحافظ[٤]، أخبرنا أحمد ابن محمد بن نصر، أخبرنا الحسن بن أحمد المقري حضورًا، أخبرنا أحمد ابن عبد الله الحافظ[٥]، أخبرنا أبو بكر بن خَلَّاد، أخبرنا الحارث ابن أبي

(١) شمس الدين السخاوي.

(٢) ابن حجر العسقلاني.

(٣) خليل بن كيكلدي.

(٤) ضياء الدين المقدسي صاحب كتاب: الأحاديث المختارة.

(٥) أبو نعيم الأصبهاني.

أسامة، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حُمَيد، عن أنس رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، متىٰ الساعة؟ فقام النبي ﷺ إلىٰ الصلاة، ثم صلىٰ، ثم قال: «أين السائل عن الساعة»؟ قال الرجل: أنا. قال: «ما أعددتَ لها»؟ قال: يا رسول الله، ما أعددتُ لها كبير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «المرء مع مَن أحبَّ، وأنت مع من أحببت». قال أنس: فما رأيتُ المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها. رواه الترمذي[١] من حديث إسماعيل بن جعفر عن حُمَيد به. وقد روىٰ عن أنس هذا الحديث خَلْقٌ كثير غير حميد، منهم الزهري وسالم بن أبي الجَعْد، فالبخاري رواه من طريق سالم[٢]، ومسلم من طريق مَعْمَر وسفيان كلاهما عن الزهري[٣]. وقد رُوي أيضًا عن أبي موسىٰ الأشعري[٤]، وأبي ذر الغفاري[٥]، وأبي مسعود البدري[٦] رضي الله عنهم، والحديث مشهور جدًّا أو متواتر عن النبي ﷺ؛ لكثرة طرقه، وليس هذا موضع سياقها.

الثاني من البواعث علىٰ جمع هذا الشرح: رجاء الانتفاع به لمن ينظر فيه من الأمة، وذلك من الأعمال الصالحة والأمور المهمة، وقد وعد النبي ﷺ فاعله بمساهمة المهتدي به من الثواب، وناهيك بذلك من عمل يتجدد للمرء بعد موته مدىٰ الأحقاب.

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ١٩٣.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ٣٣١ (ط - السلفية).

(٣) صحيح مسلم ٢/ ١٢١٨ (ط - دار طيبة).

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٢٣.

(٥) سنن أبي داود ٥/ ٤٠٧ (ط - عوامة).

(٦) هذا سهو من المؤلف رحمه الله أو سبق قلم، وإنما الرواية عن عبد الله بن مسعود: صحيح البخاري ٤/ ١٢٣، صحيح مسلم ٢/ ١٢١٩.

أخبرنا عبد الخالق بن أبي بكر بن الزين ومحمد بن علاء الدين بن عبد الباقي وإسماعيل بن عبد الله بن علي الحنفيُّون ومحمد بن الطيِّب بن محمد وآخرون سماعًا عليهم قالوا: أخبرنا أبو طاهر محمد بن إبراهيم بن حسن، أخبرنا والدي، أخبرنا القطب أحمد بن عبد رب النبي، أخبرنا أبو المواهب أحمد بن علي بن عبد القدُّوس، أخبرنا والدي، أخبرنا القطب عبد الوهاب بن أحمد، أخبرنا زكريا ابن محمد، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن علي الحافظ، أخبرنا أبو الخير[١] بن أبي سعيد، أخبرنا أبي، أخبرنا أبو بكر بن أحمد، أخبرنا محمد الإربلي، أخبرتنا شهدة الكاتبة، أخبرنا أحمد بن بُندار، أخبرنا محمد بن بكير، أخبرنا أبو محمد ابن ماسي، أخبرنا يوسف القاضي، حدثنا محمد بن أبي بكر، حدثنا أبو عَوانة، عن عبد الملك بن عُمَير، عن المنذر بن جرير، عن أبيه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سنَّ سنَّة حسنة كان له أجرُها وأجر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومَن استسنَّ سنَّة سيئة فعمل بها كان عليه وِزْرُها ومثل أوزار مَن عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ». هذا حديث حسن الإسناد، بل صحيح، أخرجه مسلم من طرق[٢] والإمام أحمد[٣] والترمذي[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه[٦] والدارِمي[٧] وأبو عوانة[٨] وابن حِبَّان[٩]، كلهم عن جرير، وقد رُوي أيضًا من طريق حذيفة بن

---

(١) اسمه أحمد، ووالده هو الحافظ أبو سعيد صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلائي.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٣٣ - ١٢٣٤.

(٣) مسند أحمد ٣١/ ٥٣٦، ٥٣٧ (ط - مؤسسة الرسالة).

(٤) سنن الترمذي ٣/ ٤٠٧.

(٥) سنن النسائي ص ٣٩٨ (ط - مكتبة المعارف بالرياض).

(٦) سنن ابن ماجه ١/ ١٩٩ (ط - دار الجيل).

(٧) سنن الدارمي ١/ ١٤٠، ١٤١.

(٨) المستخرج على صحيح مسلم لأبي عوانة الأسفراييني ٢/ ١٤٣ (ط - دار المعرفة ببيروت).

(٩) صحيح ابن حبان ٨/ ١٠١ (ط - مؤسسة الرسالة).

اليَمان[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه قصة. وفي الباب عن أبي هريرة وأبي جُحَيفة وواثلة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

الثالث منها: حثُّ النفس علىٰ سلوك هذه الأمور واتِّباعها، والكف عن مذموم كل الأخلاق وارتداعها، وإصغائها إلىٰ ما يقرِّبها إلىٰ مولاها، وحُسن استماعها، ومجاهدتها علىٰ طلب الفوز في الآخرة لعل صَفَقتها تكون رابحة لا خاسرة؛ فإن النفس أمَّارة بالسوء إلا أن يتداركها الله برحمته، والشيطان حريص علىٰ إهلاكها بالغواية، ولا عاصم لها منه إلا الله سبحانه بلطفه وإعانته، ومجاهدة النفس في أعمال الطاعات والانكفاف عن المخالفات إلىٰ الأمور المطلوبة بالذات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

أخبرنا السيد المحدِّث سليمان بن يحيىٰ بن عمر بن عبد القادر الحسيني الزبيدي سماعًا والسيد القطب أبو المراحم وجيه الدين عبد الرحمن بن السيد مصطفىٰ العيدروس إجازةً مشافهةً قالا: أخبرنا السيد الوجيه عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد العَلَوي الترثحي[2]، قال الأول: إجازةً مكاتَبةً، وقال الثاني: مشافهة، أخبرنا خالي السيد الوجيه عبد الرحمن بن محمد العيدروس. ح. وأخبرنا أعلىٰ من ذلك عمر بن أحمد بن عقيل سماعًا في آخرين، أخبرنا عبد الله بن سالم وأحمد ابن محمد النخلي، قالوا: أخبرنا المسنِد أحمد بن عبد اللطيف الأزهري، أخبرنا البرهان إبراهيم بن إبراهيم المالكي. ح. قالا - أي [عبد الله بن][3] سالم والنخلي - وأخبرنا أعلىٰ من ذلك الحافظ شمس الدين محمد بن العلاء قال: أخبرنا سالم ابن محمد بن محمد والنور علي بن يحيىٰ قالا: أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي بكر ويوسف بن زكريا ويوسف بن عبد الله قالوا: أخبرنا محمد ابن عبد الرحمن

---

(١) مسند أحمد ٣٨/ ٣٢٥.

(٢) كذا في المطبوعة.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة.

الحافظ، أخبرنا رضوان بن محمد بن يوسف الحافظ، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن أبي المجد الدمشقي - قدم علينا - أخبرنا التقي سليمان بن حمزة الدمشقي، أخبرنا عبد الله بن عمر بن زيد، حدثنا محمد بن محمد ابن النحاس، حدثنا علي بن أحمد ابن السري، حدثنا أحمد بن محمد ابن الصَّلْت، حدثنا إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي، حدثنا أبو مصعب - يعني أحمد بن أبي بكر - عن مالك، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصُّرْعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». رواه البخاري[١] ومسلم[٢] والنسائي[٣] من حديث مالك به.

فهذه الأمور الثلاثة التي ذكرتُها لك هي الباعثة لي على الإقدام في شرح هذا الكتاب وجلبِ فرائد الفوائد إليه من كل باب.

الأحوال المتعلقة بمصنف هذا الكتاب

وهي مشتملة على أحد وعشرين فصلاً وخاتمة.

* * *

(١) صحيح البخاري ٤/ ١١٢.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٩.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٩/ ١٥٢ (ط - مؤسسة الرسالة).

الفصل الأول: في ترجمته

قال ابن السبكي في طبقاته[1]: هو الإمام الجليل محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، أبو حامد الغزالي، حُجة الإسلام، ومَحجَّة الدين التي يُتوصَّل بها إلىٰ دار السلام، جامع أشتات العلوم، والمبرِّز في المنطوق[2] فيها والمفهوم، جرت الأئمة[3] قبله بشَأْوٍ ولم تقع منه بالغاية، ولا وقف عند مطلبٍ وراءَه مطلب لأصحاب النهاية والبداية، حتىٰ أخمل[4] من القُرَناء كل خصم بلغ مبلغ السُّها، وأخمد من نيران البِدَع كل ما لا تستطيع أيدي المجالدين مَسَّها، كان ضِرغامًا إلا أن الأُسود تتضاءل بين يديه وتتوارىٰ، وبدرًا تمامًا إلا أن هُداه يشرق نهارًا، وبشرًا من الخَلْق ولكنه الطَّوْد العظيم، وبعض الخَلْق ولكن مثل ما بعض الحجر الدُّر النظيم، جاء والناس إلىٰ رد فِرْية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء إلىٰ قطرات الماء، فلم يَزَل يناضل عن الدين الحنيفي بجِلاد مقاله، ويحمي حوزته، ولا يلطخ بدم المعتدين حد نِصاله، حتىٰ أصبح الدين وثيق العُرىٰ، وانكشفت غياهب الشكوك[5] وما كانت إلا حديثًا يُفترَىٰ، هذا مع ورع طوىٰ عليه ضميره، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره، وتجريد تراه به وقد توحَّد في بحر التوحيد وباهَىٰ.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي ٦/ ١٩١ وما بعدها (ط - دار إحياء الكتب العربية).

(٢) في طبقات السبكي: المنقول.

(٣) في المطبوعة: الأمة. والتصويب من طبقات السبكي.

(٤) في المطبوعة: أخمد. والمثبت من طبقات السبكي.

(٥) في طبقات السبكي: الشبهات.

ألقىٰ الصحيفة كي يخفِّف رَحْلَه والـزادَ حتـىٰ نعلـه ألقاهـا[٦]

ترك الدنيا وراء ظهره وأقبل علىٰ الله تعالىٰ يعامله في سره وجهره.

وزاد المناوي في طبقاته[٧] بعد قوله في أول الترجمة «في المنطوق منها والمفهوم» ما نصه: بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر، وحبرٌ سما علىٰ السماء، وأين للسماء مثل ما له من الزواهر، وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحكي ما لديه من الأزاهر، انتظمت بعقده المنظَّم[٨] عقود الملة الإسلامية، وابتسمت بدُرِّه النظيم ثغورُ الشريعة المحمدية، فغاص من العلوم في بحار عميقة، وراضَ نفسه في دفع أهل البِدَع وسلوك الطريقة.

وقال أبو إبراهيم الفتح بن علي البُنْداري في ذيله علىٰ «تاريخ بغداد»: هو مَن لم ترَ العيون مثله لسانًا ونطقًا وبيانًا وخاطرًا وذكاء وطبعًا[٩].

---

(٦) البيت لأبي مروان النحوي يذكر قصة المتلمس وطرفة بن العبد حين فرا من عمرو بن هند بعد أن هجياه.

انظر: كتاب سيبويه ١/ ٩٧ (ط - مكتبة الخانجي بالقاهرة). خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ٣/ ٢١ - ٢٥ (ط - مكتبة الخانجي).

وقال ياقوت في معجم الأدباء ٦/ ٢٦٩٨ (ط - دار الغرب الإسلامي ببيروت): «سمعت بعض النحويين ينسب هذا البيت إلىٰ مروان بن سعيد بن عباد بن حبيب بن المهلب، أحد أصحاب الخليل ابن أحمد المتقدمين في النحو».

(٧) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية المعروف بالطبقات الكبرىٰ للمناوي ١/ ٧٠٣ (ط - المكتبة الأزهرية للتراث).

(٨) في المطبوعة: بقدره العظيم. والمثبت من طبقات المناوي.

(٩) هذا ما قاله عنه أبو الحسن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي.

انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٩١ (ط - التوفيق بدمشق).

وقال ابن المقري في «تحفة الإرشاد إلىٰ سبيل الرشاد» ما نصه[١]: باسمه تنشرح الصدور، وتحيا النفوس، وبرسمه تفتخر المَحابر وتشتهر[٢] الطروس، ولسماعه تخشع الأصوات وتخضع الرؤوس.

وترجمه الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه فأطال فيها[٣]، وكذا الحافظ ابن السمعاني نحوًا منه.

وقال الحافظ محب الدين ابن النجار الحنبلي في ذيله علىٰ «تاريخ بغداد» ما نصه[٤]: إمام الفقهاء علىٰ الإطلاق، ورَبَّاني الأمة بالاتفاق، ومجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه، ومَن شاع ذِكره في البلاد، واشتهر فضله بين العِباد، واتفقت الطوائف علىٰ تبجيله وتعظيمه وتوقيره وتكريمه، وخافه المخالفون، وانقهر بحججه [وأدلته] المناظرون، وظهرت بتنقيحاته فضائحُ المبتدعة والمخالفين، وقام بنصر السنَّة وإظهار الدين، وسارت مؤلفاته في الدنيا مسيرَ الشمس في البهجة والجمال، وشهد له الموافق والمخالف بالتقدُّم والكمال.

❊ ❊ ❊

(١) طبقات الشافعية للإسنوي ٢/ ١١١ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) في طبقات الإسنوي: وتهتز.

(٣) تاريخ دمشق ٥٥/ ٢٠٠ - ٢٠٤.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ٢١٦. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

الفصل الثاني: في بيان مولده وشيء من أخبار نشأته

قالوا(١): وُلد بطُوس(٢) سنة خمسين وأربعمائة، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة أوصىٰ به وبأخيه أحمد إلىٰ صديق له متصوف من أهل الخير، وقال [له]: إن لي تأسُّفًا عظيمًا علىٰ تعلُّم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدَيَّ هذين [فأقام بهما، وعلَّمهما الخط وأدَّبهما](٣) إلىٰ أن فني ذلك النزرُ اليسير الذي كان خلَّفه لهما أبوهما، وتعذر علىٰ الصوفي القيامُ بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل التجريد(٤) بحيث لا مال لي فأواسيكما به وأُصلِح، ما أرىٰ لكما أن تلجآ إلىٰ مدرسة كأنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوتٌ يعينكما علىٰ وقتكما. ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما، وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلمَ لغير الله، فأبىٰ أن يكون إلا لله.

* * *

(١) طبقات السبكي ٦/ ١٩٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) هي الآن مدينة بإيران تسمىٰ: مشهد الرضا، وكانت من كبرىٰ مدن خراسان القديمة حتىٰ هجوم المغول عليها وتخريبهم لها، وبعد القرن السابع الهجري لم ترجع إلىٰ مكانتها السابقة وهجرها أهلها، أما اليوم فالمدينة ليست في المكان الأصلي لطوس القديمة، حيث لم يبقَ في مكانها الأصلي سوىٰ الأطلال والبقايا، وهو مكان قريب من مدينة مشهد الحالية، حيث يبعد عنها حوالي ٢٥ كم.
قال ياقوت: «طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ تشتمل علىٰ بلدتين يقال لإحداهما: الطابران، وللأخرىٰ: نوقان، ولهما أكثر من ألف قرية، فتحت في أيام عثمان بن عفان، وبها قبر علي بن موسىٰ الرضا وقبر هارون الرشيد».
معجم البلدان ٤/ ٤٩ (ط - دار صادر ببيروت).

(٣) مكان ما بين المعقوفين في طبقات السبكي: فعلِّمهما، ولا عليك أن تُنفِد في ذلك جميع ما أخلفه لهما، فلما مات أقبل الصوفي علىٰ تعليمهما ... الخ.

(٤) في طبقات السبكي: وأنا رجل من الفقر والتجريد.

الفصل الثالث: في بيان مبدأ طلبه للعلم

قرأ[١] في صباه طرفًا من الفقه ببلده علىٰ أحمد بن محمد الراذَكاني، ثم سافر إلىٰ جُرجان إلىٰ الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلَّق عنه التعليقة، ثم رجع إلىٰ طوس. قال الإمام أسعد المِيْهَني: فسمعتُه يقول: قُطعت علينا الطريق، وأخذ العيَّارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتُهم، فالتفت إليَّ مقدِّمُهم وقال: ارجع [ويحك] وإلا هلكتَ. فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامةَ منه أن ترد عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به. فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المِخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها. فضحك وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردتَ من معرفتها وبقيتَ بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة. قال الغزالي: [فقلت]: هذا مستنطَق أنطقه الله يرشدني به في أمري، فلما وافيت طوسَ أقبلت علىٰ الاشتغال ثلاث سنين حتىٰ حفظت جميع ما علَّقته، وصرت بحيث لو قُطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي.

ثم قدم نيسابور، ولازم إمامَ الحرمين [وجد واجتهد] حتىٰ برع في المذهب والخلاف والجدل والأصلين[٢] والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كلَّ ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدىٰ للرد علىٰ مبطليهم وإبطال دعاويهم، وصنَّف في كل فن من هذه العلوم كتبًا أحسن تأليفَها، وأجاد وضعها وترصيفها[٣].

وكان شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفِطرة، مفرط الإدراك، قوي

(١) طبقات السبكي ٦/ ١٩٥.

(٢) يعني أصول الدين وأصول الفقه.

(٣) عقَّب السبكي علىٰ ذلك بقوله: «كذا نقل النَّقَلةُ، وأنا لم أرَ له مصنفًا في أصول الدين بعد شدة الفحص، إلا أن يكون «قواعد العقائد» و«العقائد الصغرىٰ»، وأما كتاب مستقل علىٰ قاعدة المتكلمين فلم أره».

الحافظة، بعيد الغَوْر، غوَّاصًا علىٰ المعاني الدقيقة، جبل عِلمٍ، مناظرًا، مِحجاجًا، وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول: الغزالي بحر مغرق[١]، والكيا [الهراسي] أسد مخرِّق، والخوافي[٢] نار تحرق.

ويقال: كان الإمام يُظهِر في الظاهر الافتخار به، وعنده في الباطن منه شيء؛ لِما ظهر منه من أنيق العبارة، ورقيق الإشارة، وصحة السماع، وقوة الطِّباع.

* * *

(١) في طبقات السبكي: مغدق.

(٢) هو أبو المظفر أحمد بن محمد بن المظفر الخوافي، المتوفي سنة ٥٠٠، أحد فقهاء الشافعية، منسوب إلىٰ خواف، وهي قصبة كبيرة من أعمال نيسابور، كما في معجم البلدان ٢/ ٣٩٩.

الفصل الرابع: في بيان ما آل إليه أمره

لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلىٰ المعسكر قاصدًا للوزير نظام الملك؛ إذ كان مجلسه مَجمع[١] أهل العلم [وملاذهم][٢] ومحط رحالهم، فناظَرَ الأئمةَ العلماءَ في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، فتلقَّاه الصاحب بالتعظيم [والتبجيل][٣] وطار اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار، وولاه تدريس مدرسته ببغداد، وأَمره[٤] بالتوجه إليها فقَدِمها في سنة أربع وثمانين وأربعمائة في تجمُّل كبير، وتلقاه الناس، ونفذت كلمته [وعظمت حشمته][٥] حتىٰ غلبت علىٰ حشمة[٦] الأمراء والملوك والوزراء[٧]، وأقام علىٰ تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف[٨] حتىٰ ضُربت به الأمثال، وشُدَّت إليه الرحال، إلىٰ أن عزفت[٩] نفسه عن رذائل الدنيا فرفض ما فيها من التقدم والجاه، وترك كل ذلك وراء ظهره، وقصد بيت الله الحرام، فخرج إلىٰ الحج في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين، واستناب أخاه في التدريس، ودخل دمشق سنة تسع وثمانين، فلبث فيها يُوَيْمات يسيرة علىٰ قدم الفقر، ثم توجه إلىٰ بيت المقدس فجاور به مدةً، ثم عاد

---

(١) في المطبوعة: مجلس. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) زيادة من طبقات السبكي.

(٤) في المطبوعة: وأمَّها. والتصويب من طبقات السبكي.

(٥) زيادة من طبقات الإسنوي.

(٦) في المطبوعة: حتىٰ غلبت حشمته. والمثبت من طبقات الإسنوي.

(٧) زاد في طبقات السبكي: «ودرس بالنظامية، وأعجب الخلقَ حُسنُ كلامه وكمال فضله وفصاحة لسانه ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة وأحبوه».

(٨) زاد السبكي في طبقاته بعد قوله «والتصنيف»: «مدة، عظيم الجاه، زائد الحشمة، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال ...» الخ.

(٩) في طبقات الإسنوي: شرفت.

إلىٰ دمشق واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته، علىٰ ما ذكر الحافظُ ابن عساكر فيما نقله عنه الذهبي[١]، ولم أجده في كلامه[٢].

وكان الغزالي يكثِر الجلوس في زاوية الشيخ نصر المقدسي بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبةً إليه.

قال ابن عساكر[٣]: أقام الغزالي بالشام نحوًا من عشر سنين[٤].

ونقل الذهبي[٥] أنه صادف دخوله يومًا المدرسة الأمينية[٦] فوجد المدرِّس يقول: قال الغزالي [وهو يدرِّس من كلامه][٧] فخشي الغزالي علىٰ نفسه العُجْب ففارق دمشق، وأخذ يجول في البلاد، فدخل منها إلىٰ مصر، وتوجه منها إلىٰ الإسكندرية فأقام بها مدة. وقيل: إنه عزم علىٰ المضي إلىٰ السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله فبلغه موته، واستمر يجول في البلدان، ويتردد إلىٰ المشاهد[٨] ويطوف علىٰ التُّرَب والمساجد، ويأوي القِفارَ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار، ويكلفها مَشاقَّ العبادات، ويبلوها بأنواع القُرَب والطاعات، إلىٰ أن صار قطب الوجود، والبركة العامة لكل موجود، والطريق

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ٣٣٤ (ط - مؤسسة الرسالة).

(٢) هذا كلام السبكي في الطبقات ٦/ ١٩٧.

(٣) تبيين كذب المفتري ص ٢٩٣.

(٤) في طبقات السبكي: عشرين سنة.

(٥) لم أقف علىٰ كلام الذهبي هذا في تاريخ الإسلام ولا سير أعلام النبلاء، بل ذكره السبكي في طبقاته ٦/ ١٩٩.

(٦) نسبة إلىٰ أمين الدولة كمشتكين الأتابكي نائب قلعة صرخد وبصرىٰ، المتوفى سنة ٥٤١، وهي أول مدرسة للشافعية بدمشق.

(٧) زيادة من طبقات السبكي.

(٨) في طبقات السبكي: ويزور المشاهد.

الموصلة إلىٰ رضا الرحمن، والسبيل المنصوب إلىٰ مركز الإيمان. ثم رجع إلىٰ بغداد وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم علىٰ لسان أهل الحقيقة، وحدَّث بكتاب الإحياء.

ورأيت في بعض المجاميع أن سبب سياحته وزهده أنه كان يومًا يعظ الناس، فدخل عليه أخوه أحمد فأنشده[١]:

أخذت بأعضادهم إذ ونوا[٢] وخلفك الجهد إذ أسرعوا[٣]
وأصبحت تهدي ولا تهتدي[٤] وتُسمِع وعظًا ولا تسمع
فيا حجر الشحذ حتىٰ متىٰ تسن الحديدَ ولا تقطع

فكان ذلك سببًا لتركه علائق الدنيا.

وذكر عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي خطيب نيسابور في ترجمته بعد أن وصفه قال[٥]: وسلك طريق الزهد والتألُّه، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة والاشتغال بأسباب التقوىٰ وزاد الآخرة [فخرج عما كان فيه] وقصد حج بيت الله الحرام[٦]، ثم دخل الشام، وأقام في تلك الديار قريبًا من عشر سنين يطوف

---

(١) الأبيات في وفيات الأعيان لابن خلكان ٥/ ٥٤ (ط - دار صادر) والوافي بالوفيات للصفدي ٣/ ٢٦١ (ط - دار إحياء التراث العربي ببيروت) ومرآة الجنان لليافعي ٣/ ١٨٤ (ط - دار الكتب العلمية ببيروت) منسوبة لمحمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي، المعروف بالمهدي الهَرْغي، صاحب دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب. وكان قد اجتمع بالغزالي.

(٢) في الوفيات والوافي والمرآة: نأوا.

(٣) في الوفيات والوافي والمرآة: وخلفك القوم إذ ودعوا.

(٤) في الوفيات والوافي والمرآة: فكم أنت تنهىٰ ولا تنتهي.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ٢٠٦، وتاريخ دمشق ٥٥/ ٢٠١. والزيادات التي بين حاصرتين منهما.

(٦) في طبقات السبكي وتاريخ دمشق: وقصد بيت الله وحج.

ويزور المشاهد [المعظَّمة] وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يُسبق إليها، مثل «إحياء علوم الدين» والكتب المختصرة منها مثل «الأربعين» وغيرها من الرسائل التي مَن تأملها علم محل الرجل من فنون العلم، وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش [فانقلب شيطان الرعونة وطلبُ الرياسة والجاه والتخلق بالأخلاق الذميمة إلىٰ سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات]، والتزيي بزي الصالحين، وقِصَر الأمل، ووقف الأوقاف علىٰ هداية الخلق ودعائهم إلىٰ ما يعنيهم من أمر الآخرة، وتبغيض الدنيا [والاشتغال بها علىٰ السالكين]، والاستعداد للرحيل إلىٰ الدار الباقية، والانقياد لكل من يتوسَّم فيه أو يشم منه رائحة المعرفة أو التيقُّظ لشيء من أنوار المشاهَدة، حتىٰ مَرَنَ علىٰ ذلك ولانَ، ثم عاد إلىٰ وطنه لازمًا بيته، مشتغلاً بالتفكُّر، ملازمًا للوقت، مقصودًا [نفيسًا] وذخرًا [للقلوب و] لكل من يقصده ويدخل عليه، إلىٰ أن أتىٰ علىٰ ذلك مدة، وظهرت التصانيف، وفشت الكتبُ، ولم تَبْدُ في أيامه مناقَضة لِما كان فيه، ولا اعتراض لأحد علىٰ ما آثره[1] حتىٰ انتهت نوبة الوزارة إلىٰ فخر الملك جمال الشهداء، تغمده الله برحمته، وتزينت خُراسان بحشمته ودولته، وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته وكمال فضله وحالته وصفاء عقيدته ونقاء سريرته، فتبرَّك به وحضره، وسمع كلامه، فاستدعىٰ منه أن لا يُبقِي أنفاسَه وفوائده عقيمة لا استفادة منها، ولا اقتباس من أنوارها، وألحَّ عليه كل الإلحاح، وتشدد في الاقتراح إلىٰ أن أجاب إلىٰ الخروج، وحُمل إلىٰ نيسابور [وكان الليث غائبًا عن عرينه، والأمر خافيًا في مستور قضاء الله ومكنونه]، وأشيرَ عليه بالتدريس[2] في المدرسة الميمونية النظامية، فلم يجد بُدًّا من الإذعان للولاة، ونوىٰ بإظهار

---

(١) في المطبوعة: مآثره. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) في تاريخ دمشق: فاشتد عليه في التدريس.

ما اشتغل به [هداية الشُّداة و] إفادة القاصدين دون الرجوع إلىٰ ما انخلع عنه، [وتحرر عن رِقِّه من طلب الجاه ومماراة الأقران ومكابرة المعاندين]، وكم قُرِعَ عصاه بالخلاف والوقوع فيه، [والطعن فيما يذره ويأتيه]، والسعاية به والتشنيع عليه، فما تأثر به، ولا اشتغل بجواب الطاعنين [ولا أظهر استيحاشًا بغميزة المخلِّطين]، ولقد زرته مِرارًا، وما كنت أحدُس في نفسي [مع] ما عهدتُه في سالف الزمان عليه من الزَّعار وإيحاش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء [والاستخفاف بهم كِبْرًا وخُيَلاء و] اغترارًا بما رُزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة[١] وطلبِ الجاه والعلو في المنزلة أنه صار علىٰ الضد، وتصفَّىٰ عن تلك الكدورات، وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف [متنمِّسٌ بما صار إليه] فتحققت بعد [السَّبْر و] التنقير أن الأمر علىٰ خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون، وحكىٰ لنا [في ليالٍ][٢] عن كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له سلوك طريق التألُّه وغلبة الحال عليه بعد تبحرُّه في العلوم، [واستطالته علىٰ الكل بكلامه] والاستعداد الذي خصَّه الله به في تحصيل أنواع المعارف[٣] وتمكُّنه من البحث والنظر حتىٰ تبرَّم من الاشتغال بالعلوم الغريبة[٤] عن المعاملة، وتفكَّر في العاقبة وما يجدي و[ما] ينفع في الآخرة، فابتدأ بصحبة الفارَمَذي[٥]، واستفتح منه الطريقة[٦]، وامتثل ما كان يشير عليه [به] من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل واستدامة الأذكار والجد والاجتهاد [طلبًا للنجاة] إلىٰ أن جاز تلك العقبات، وتكلف تلك المَشاق،

---

(١) في المطبوعة: العبادة. والمثبت من طبقات السبكي وتاريخ دمشق.

(٢) في تاريخ دمشق: وحكي لنا في ليال له فيه أحواله.

(٣) في طبقات السبكي وتاريخ دمشق: العلوم.

(٤) في طبقات السبكي: العربية. وفي تاريخ دمشق: العريَّة.

(٥) هو أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي، منسوب إلىٰ فارمذ وهي إحدىٰ قرىٰ طوس.

(٦) في طبقات السبكي وتاريخ دمشق: وأخذ منه استفتاح الطريقة.

وما تحصَّل علىٰ ما كان يطلبه من مقصوده، ثم حكىٰ أنه راجع العلومَ، وخاض في الفنون، وعاود [الجِد و] الاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة [والتقىٰ أربابها] حتىٰ انفتحت له أبوابها، وبقي مدة في الوقائع وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل، ثم حكىٰ أنه فُتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء، وحمله علىٰ الإعراض عما سواه حتىٰ سهُل ذلك، وهكذا وهكذا إلىٰ أن ارتاض كلَّ الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنا نظن به ناموسًا وتخلُّقًا طبعًا وتحقُّقًا، وأن ذلك أثر السعادة المقدَّرة له من الله تعالىٰ، ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته والرجوع إلىٰ ما دُعي إليه من أمر نيسابور، فقال معتذرًا عنه: ما كنت أجوِّز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة، وقد حُقَّ عليَّ أن أبوح بالحق وأنطق به وأدعو إليه. وكان صادقًا في ذلك، ثم ترك ذلك [قبل أن يُترَك] وعاد إلىٰ بيته، فاتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم وخانقاه[1] للصوفية، وكان قد وزَّع أوقاته علىٰ وظائف الحاضرين من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب، والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات مَن معه عن فائدة.

ومما وُجد بخط الزاهد قطب الدين محمد ابن الأردبيلي قال[2]: قال حجة الإسلام: كنت في بداية أمري منكرًا لأحوال الصالحين ومقامات العارفين، حتىٰ صحبت شيخي يوسف النساج بطوس، فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتىٰ حظيت بالواردات، فرأيت الله في المنام فقال لي: يا أبا حامد. قلت: أو الشيطان يكلمني؟ قال: لا، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست. ثم قال: يا أبا حامد، ذَرْ أساطيرك،

---

(١) الخانقاه: كلمة فارسية تطلق علىٰ الأماكن التي تُبنىٰ لإيواء الصوفية الذين يحلون فيها للعلم والعبادة، وكانت أيضًا أماكن ينزل بها المسافرون للراحة، وبدأ تأسيسها في القرن الخامس الهجري. وكانت تسمىٰ في العهد العثماني: التكايا.

(٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده ٢/ ٣٠٣ (ط - دار الكتب العلمية).

واصحبْ أقوامًا[١] جعلتُهم في أرضي محل نظري، وهم الذين[٢] باعوا الدارين بحبي. فقلت: بعزتك، إلا أذقتني برد حسن الظن بهم. فقال: قد فعلتُ [ذلك] والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا، فاخرج منها مختارًا قبل أن تخرج منها صاغرًا، فقد أفضتُ عليك أنوارًا من جوار قدسي، ففُزْ ونَلْ. فاستيقظت[٣] فرحًا مسرورًا، وجئت إلىٰ شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام، فتبسم وقال: يا أبا حامد، هذه ألواحنا في البداية، محوناها بأرجلنا، بل إن صحبتني سيكحل[٤] بصر بصيرتك بإثمد التأييد حتىٰ ترىٰ العرش ومَن حوله، ثم لا ترضىٰ بذلك حتىٰ تشاهد ما لا تدركه الأبصار فتصفو من كدر طبيعتك، وترقىٰ علىٰ طَوْر عقلك، وتسمع الخطاب من الله تعالىٰ كموسىٰ[٥]: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: ٣٠].

ونقل القطب سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الأجوبة المُرضية» عن الشيخ الأكبر ما نصه: وكان الغزالي يقول: لما أردت أن أنخرط في سلك القوم وأشرب من شرابهم نظرت إلىٰ نفسي فرأيت كثرة حُجُبها، ولم يكن له[٦] شيخ إذ ذاك، فدخلت الخلوة، واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يومًا، فانقدح لي من العلم ما لم يكن عندي أصفىٰ وأرقىٰ مما كنت أعرفه، فنظرت فيه فإذا فيه قوة فقهية، فرجعت إلىٰ الخلوة واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يومًا، فانقدح لي علم آخر أرق وأصفىٰ مما حصل عندي أولاً ففرحت به، ثم نظرت فيه فإذا

---

(١) في مفتاح السعادة: وعليك بصحبة أقوام.

(٢) في مفتاح السعادة: أقوام.

(٣) في مفتاح السعادة: فقد أمضيت عليك نورًا من أنوار قدسي فقم وقل فاستيقظت.

(٤) في مفتاح السعادة: في البداية فمحوناها بلىٰ إن صحبتني سأكحل.

(٥) في مفتاح السعادة: كما كان لموسىٰ.

(٦) كذا في المطبوعة، ولعلها: لي، أو هو معترَض من كلام الشعراني أو ابن عربي.

فيه قوة نظرية، فرجعت إلىٰ الخلوة ثالثًا أربعين يومًا، فانقدح لي علمٌ آخر هو أرق وأصفىٰ، فنظرت فيه فإذا فيه قوة ممزوجة بعِلم عِلم، ولم ألحق بأهل العلوم اللدنية، فعلمت أن الكتابة علىٰ المحو ليست كالكتابة علىٰ الصفاء الأول والطهارة الأولىٰ، ولم أتميز عن النُّظَّار إلا ببعض أمورهم، ثم قال الشيخ الأكبر: رحم الله أبا حامد، ما كان أكثر إنصافه وتحرُّزه من الدعوىٰ. ا.هـ.

* * *

الفصل الخامس: في ثناء الأكابر عليه من مشايخه ومن عاصره وممن أتى بعده

قال ابن السبكي[١]: حُكي[٢] عن الشيخ العارف أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه - وكان سيد عصره، ولسان وقته، وبركة زمانه - أنه رأىٰ النبي ﷺ في النوم وقد باهىٰ عليه الصلاة والسلام موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام بالإمام الغزالي وقال: أفي أمَّتيكما حبرٌ مثل هذا؟ قالا: لا.

وسُئل السيد العارف بالله سيد وقته أيضًا أبو العباس المرسي عن الغزالي، فقال: أنا أشهد له بالصِّدِّيقية العظمىٰ.

ونقل المناوي في طبقاته[٣] عن القطب اليافعي عن بعض العلماء الجامعين بين علم الظاهر والباطن أنه قال: لو كان نبي بعد النبي لكان الغزالي.

وشهد له القطب سيدي محيي الدين ابن عربي - وناهيك به - أنه من رؤساء الطريقة وساداتهم.

ونقل عنه أنه كان يرىٰ المناسبة ويقول بها، فرأىٰ في بيت المقدس حمامة وغرابًا لصق أحدهما بالآخر وأنس به ولم يستوحش منه، فقال: اجتماعهما لمناسبة. فأشار إليهما بيده فدرجا فإذا بكل منهما عرج. قال: والمناسبة في مساق الأشياء صحيحة، ومعرفتها من مقامات[٤] خواصِّ أهل الطريقة، وهي غامضة،

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٧.

(٢) في طبقات السبكي: ومما حُكي واشتهر.

(٣) طبقات المناوي ١/ ٧٠٦.

(٤) في طبقات المناوي: مقالات.

موجودة في كل شيء حتىٰ بين الاسم والمسمىٰ. قال: والقائلون بالمناسبة[1] من طريقتنا عظماء أهل المراقبة والأدب، ولا تكون إلا بعد كشف علمي ومشهد مَلَكوتي.

ويُروىٰ عن بعضهم قال: الأقطاب ثلاثة: قطب العلوم كحجة الإسلام الغزالي، وقطب الأحوال كأبي يزيد البسطامي، وقطب المقامات كعبد القادر الجيلاني؛ نقلته من كتاب «القصد والسداد في مناقب القطب السيد عبد الله با حداد»[2]. وفيه أيضًا من كلمات المترجَم قُدِّس سره: هذا الثوب نسجه الغزالي، وقصَّره عبد القادر الجيلاني - أو قال الشعراني أو هما - ونحن خِطْناه ونقشناه، وأين من يلبسه؟

قال: ففيه إشارة إلىٰ أن الغزالي والشعراني قد بلغا في العلوم اللدنية المبلغ الذي فاقا به الكل.

وقال السبكي[3] في جواب كتاب أبي العفيف[4] المَطَري - وقد سأله عن الغزالي - ما نصه: وماذا يقول الإنسان [فيه] وفضله واسمه قد طبَّق الأرضَ، ومَن خبر كلامَه عرف أنه فوق اسمه؟

وقال محمد بن يحيىٰ النيسابوري تلميذ الغزالي: [الغزالي هو الشافعي الثاني.

---

(١) في المطبوعة: والقائلون بها. والمثبت من طبقات المناوي.

(٢) الإمام القدوة الزاهد العابد قطب الدعوة والإرشاد عبد الله بن علوي الحداد الشافعي الحضرمي(١٠٤٤-١١٣٢) هـ. انظر بشرىٰ الفؤاد بترجمة الإمام الحداد للسيد علوي الحداد المكي

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٣. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) كذا في المطبوعة، وإنما هو عفيف الدين عبد الله بن محمد بن أحمد، فالصواب حذف كلمة «أبي».

وقال أسعد المِيهَني][1]: لا يعرف الغزالي[2] وفضله إلَّا مَن بلغ أو كاد أن يبلغ الكمال في عقله.

قال ابن السبكي: يعجبني هذا الكلام؛ فإن الذي يحب أن يطَّلع علىٰ منزلة مَن هو أعلىٰ منه في العلم[3] يحتاج إلىٰ العقل والفهم، فبالعقل يميز، وبالفهم يقضي، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوىٰ احتاج من يريد الاطلاع علىٰ مقداره [فيه] أن يكون هو تام العقل، وأقول: لا بد مع تمام العقل من مداناة مرتبته في العلم لمرتبة الآخر، وحينئذٍ فلا يعرف أحد ممن جاء بعد الغزالي قدر الغزالي [ولا مقدار علم الغزالي إلا بمقدار علمه، أما بمقدار علم الغزالي فلا][4] إذ لم يجئ بعده مثله، ثم المُدانِي له إنما يعرف قدره بقدر ما عنده لا بقدر الغزالي [في] نفسه، سمعت الشيخ الإمام الوالد يقول: لا يعرف قدر الشخص في العلم إلا مَن ساواه في رتبته وخالطه مع ذلك. قال: وإنما يعرف قدره بمقدار ما أوتيه هو. وكان يقول لنا: لا أحد من الأصحاب يعرف قدر الشافعي كما يعرفه المُزَني. قال: وإنما يعرف المزني من قدر الشافعي بمقدار قُوَىٰ المزني، والزائد عليها من قوىٰ الشافعي لم يدركه المزني. وكان يقول [لنا] أيضًا: لا يقدر أحد النبي ﷺ حق قدره إلا الله تعالىٰ، وإنما يعرف كل واحد من مقداره بمقدار ما عنده هو. قال: فأعرفُ الأمةِ بقدره ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأنه أفضل الأمة. قال: وإنما يعرف أبو بكر من مقدار المصطفىٰ ﷺ ما تصل إليه قوىٰ أبي بكر، وثَم أمور تقصُر عنها قواه لم يُحِط بها علمُه، ومحيطٌ بها علمُ الله.

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة، وزدته من طبقات السبكي ليستقيم الكلام.

(٢) في طبقات السبكي: لا يصل إلىٰ معرفة علم الغزالي.

(٣) في المطبوعة: العقل. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) مكان ما بين المعقوفين في المطبوعة: إلا بمقدار علم الغزالي. والمثبت من طبقات السبكي.

وهو كلام نفيس، وقد قدمنا كلام شيخه إمام الحرمين فيه - وناهيك به جلالةً وقدرًا - أن الغزالي بحر مغرق.

وقال الحافظ أبو طاهر السِّلَفي: سمعت الفقهاء يقولون: كان الجويني - يعني إمام الحرمين - يقول في تلامذته إذا ناظروا: التحقيق للخوافي، والحربيات[١] للغزالي، والبيان للكِيا.

* * *

(١) كذا في المطبوعة، وفي طبقات السبكي: والحَدْسيات. قال المحقق: ولعلها: الجزئيات. وفي سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ٣٥١: والجريان. وضبطه كذلك محقق كتاب المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للدمياطي ص١٩٧ (ط - دائرة المعارف العثمانية بالهند) بقوله: بإعجام الجيم فقط.

الفصل السادس: في ذِكر شيء من كراماته

يُحكىٰ أن[1] السلطان علي بن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب، الملقب بأمير المسلمين، وكان أميرًا عادلاً نَزِهًا فاضلاً عارفًا بمذهب مالك، خُيِّلَ إليه لما دخلت مصنفات الغزالي إلىٰ المغرب أنها مشتملة علىٰ الفلسفة المحضة، وكان المذكور يكره هذه العلوم، فأمر بإحراق كتب الغزالي، وتوعَّد بالقتل مَن وُجد عنده شيء منها، فاختلَّت حاله، وظهرت في بلاده مناكير كثيرة، وقويت عليه الجند، وعلم من نفسه العجز بحيث كان يدعو الله بأن يقيِّض للمسلمين سلطانًا يقوىٰ علىٰ أمرهم، وقوي عليه عبد المؤمن بن علي، ولم يزل من حين فعل بكتب الغزالي ما فعل في عكس ونكد إلىٰ أن توفي.

وقال[2] أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن عبد المنعم العبدري المؤذن: رأيت بالإسكندرية [في] سنة خمسمائة في أحد شهرَي المحرم أو صفر[3] فيما يرىٰ النائم كأن الشمس طلعت من مغربها، فعبَّر ذلك بعض المعبِّرين ببدعة تحدث فيهم، فبعد أيام وصلت المراكب بإحراق كتب الإمام أبي حامد الغزالي بالمَرِيَّة[4].

وذكر[5] الإمام فخر الدين أبو بكر الشاشي أنه: كان في زماننا رجل يكره الغزالي ويذمه ويستعيبه في الديار المصرية، فرأىٰ النبي ﷺ في المنام وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما بجانبه، والغزالي جالس بين يديه وهو يقول: يا رسول الله، هذا يتكلم فيَّ. وأن

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢١٩.

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٢١٧.

(٣) في المطبوعة: في إحدىٰ عشرة من المحرم أو صفر. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) المرية أو العامرية: مدينة كبيرة تقع جنوب شرق إسبانيا علىٰ ساحل البحر المتوسط، بناها عبدالرحمن الناصر لدين الله سنة ٣٤٤.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ٢١٨.

النبي ﷺ قال: هاتوا السياط. وأمر به فضُرب لأجل الغزالي، وقام هذا الرجل من النوم وأثر السياط علىٰ ظهره لم يزل، وكان يبكي ويحكيه للناس.

ولهذه القصة نظيرة وقعت لابن حِرْزهم المغربي، يأتي ذِكرها عند ذكر كتاب الإحياء.

وقال ابن السبكي(١): وحكىٰ لي بعض الفقهاء أهل الخير بالديار المصرية أن شخصًا تكلم في الغزالي في درس الشافعية وسبَّه، فحمل هذا الحاكي من ذلك همًّا مفرطًا، وبات تلك الليلة، فرأىٰ الغزالي في النوم، فذكر له ما وجد من ذلك، فقال: لا تحمل همًّا، غدًا يموت. فلما أصبح توجه إلىٰ درس الشافعي، فوجد ذلك الفقيه قد حضر طيبًا في عافية، ثم خرج من الدرس، فلم يصل إلىٰ بيته إلا وقد وقع من علىٰ الدابة، ودخل بيته في حال التلف، وتوفي آخر ذلك النهار.

***

(١) السابق ٦/ ٢١٩.

الفصل السابع: في انتقاله من دار الدنيا إلى دار الآخرة

قالوا: ولم يزل موزِّعًا أوقاته علىٰ تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب وإدامة الصيام والقيام حتىٰ كان في جمادىٰ الآخرة سنة خمس وخمسمائة.

وفي كتاب «الثبات عند الممات» لابن الجوزي[(١)]: قال أحمد أخو الغزالي: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي [أبو حامد] وصلىٰ وقال: عليَّ بالكفن. فأخذه وقبَّله ووضعه علىٰ عينيه وقال: سمعًا وطاعة للدخول علىٰ الملك. ثم مد رجليه واستقبل [القبلة] فانتقل إلىٰ رضوان الله تعالىٰ قبل الإسفار[(٢)] طيِّب الثناء، أعلىٰ منزلةً من نجم السماء، لا يكرهه إلا حاسد أو زنديق، ولا يسومه بالسوء إلا من كان في قلبه ريب أو حاد عن سواء الطريق.

وقال فخر الدين ابن عساكر: مضىٰ[(٣)] إلىٰ رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادىٰ الآخرة سنة خمس وخمسمائة، ودُفن بظاهر قصبة طابران[(٤)]، والله يخصه بأنواع الكرامة في أُخراه كما خصَّه بفنون العلم في دنياه بمنِّه، ولم يُعقِب إلا البنات، وكان له من الأسباب إرثًا وكسبًا ما يقوم بكفايته ونفقة أهله وأولاده، فما كان يُباسِط أحدًا في الأمور الدنيوية، وقد عُرضت عليه [أموال][(٥)] فما قَبِلَها

---

(١) الثبات عند الممات لأبي الفرج ابن الجوزي ص ١٧٨ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) هذا آخر النقل عن كتاب ابن الجوزي، ومن قوله «طيب الثناء» إلىٰ قوله «سواء الطريق» عن طبقات السبكي ٦/ ٢٠٠ بتصرف.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢١١ وهو تتمة كلام عبد الغافر الفارسي السابق ذكره.

(٤) الطابَران: إحدىٰ مدينتَي طوس؛ لأن طوس عبارة عن مدينتين، أكبرهما الطابران، والأخرىٰ: نوقان.

معجم البلدان ٤/ ٣.

(٥) زيادة من طبقات السبكي.

وأعرض عنها، واكتفىٰ بالقدر الذي يصون به دينه ولا يحتاج معه إلىٰ التعرض للسؤال والمنال من غيره.

قال ابن السمعاني: وقد زرت قبره بالطابران قصبة طوس، سمعت أبا جعفر عمر بن محمد بن أحمد الطوسي مذاكرةً يقول: تمثَّل الإمام إسماعيل الحاكمي بعد وفاة الإمام أبي حامد الغزالي بهذا البيت[1]:

عجبت لصبري بعده وهو ميت وكنت امرءًا أبكي[2] دمًا وهو غائب

ووجدت في كتاب «بهجة الناظرين وأنس العارفين» للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزَّمُّوري[3] ما نصه: ومما حدثنا به مَن أدركْنا من المشيخة أن الإمام أبا حامد الغزالي لما حضرته الوفاةُ أوصىٰ رجلاً من أهل الفضل والدين كان يخدمه أن يحفر قبره في موضع بيته، ويستوصي أهل القرىٰ التي كانت قريبة إلىٰ موضعه ذلك بحضور جنازته، وأن لا يباشره أحد حتىٰ يصل ثلاثة نفر من الفلاة لا يُعرفون في بلاد العراق، يغسله اثنان منهم، ويتقدم الثالث بالصلاة عليه بغير أمر أحد ولا مشورة، فلما توفي فعل الخادم كل ما أمره به، وحضر الناس، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة، فعمد اثنان منهم إلىٰ غسله، واختفىٰ الثالث ولم يظهر، فلما غُسل وأُدرج في أكفانه وحُملت جنازته ووُضعت علىٰ شفير

(١) البيت لأبي تمام الطائي، وهو في ديوانه ص ٣٥٢ (تحقيق: محيي الدين الخياط) من قصيدة يرثي بها غالبًا الصغدي.

(٢) في الديوان: وقد كنت أبكيه.

(٣) سماه الزركلي في الأعلام: محمد بن عبد الله بن محمد، وقال: فلكي مغربي من أهل فاس، وبها وفاته سنة ٩٧٧. وذكر أن كتاب «بهجة الناظرين» مخطوط في مكتبة الرباط.

الأعلام ٤/ ٢٣٩.

وهو منسوب إلىٰ أزمور، وهي مدينة مغربية تقع علىٰ نهر أم الربيع، وتبعد حوالي ٧٥ كم جنوب شرق الدار البيضاء.

قبره ظهر الرجل الثالث ملتفًّا في كسائه، في جانبيه عَلَم أسود، معمَّمًا بعمامة صوف، وصلىٰ عليه، وصلىٰ الناس بصلاته، ثم سلَّم وانصرف فتوارىٰ عن الناس، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميَّزه بصفاته ولم يعرفه إلىٰ أن سمع بعضهم بالليل هاتفًا يقول لهم: إن ذلك الرجل الذي صلىٰ بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن إسحاق إمغار الشريف، جاء من المغرب الأقصىٰ من عين القطر، وإن اللذينِ غسلاه هما صاحباه أبو شعيب أيوب بن سعيد بن دازمور وأبو عيسىٰ وازجيح، فلما سمعوا بذلك عملوا الرحلة من العراق إلىٰ صنهاجة أزمور بالمغرب الأقصىٰ، فلما وصلوا إليهم واستوهبوا منهم الدعاء انصرفوا إلىٰ العراق، وأخبروا متصوفة العراق، وأشاعوا كرامتهم. ثم إن جماعة منهم لما سمعوا بذلك أتوا إلىٰ زيارتهم فوجدوهم أولئك الذين ميَّزوا واستوهبوا منهم الدعاء. وهو سياق غريب.

* * *

الفصل الثامن: في ذكر شيء مما رُئي به بعد موته

فمن ذلك قول أبي المظفر الأبيوردي يرثيه[١]:

بكىٰ علىٰ حجة الإسلام حين ثوىٰ ... من كل حي عظيم القدر أشرفُه
فما لمن يمتري في الله عبرته ... علىٰ أبي حامد لاحٍ يعنِّفه
تلك الرَّزِيَّة تستوهي قُوَىٰ جَلَدي ... فالطَّرْفَ تُسهِره والدمعَ تَنْزِفه
فما له خُلَّةٌ في الزهد تنكرها ... وما له شبه في العلم تعرفه[٢]
مضىٰ فأعظمُ مفقود فُجعتُ به ... مَن لا نظير له في الناس[٣] يخلُفه

وقال القاضي عبد الملك بن أحمد بن محمد بن المعافىٰ[٤]:

بكيت بعينيَّ واجم القلب والهٌ ... فتىٰ لم يوالِ الحقَّ مَن لم يواله
وسيَّبتُ دمعًا طالما قد حبسته ... وقلت لجَفْني والِهِ ثم واله
أبا حامد محيي العلوم ومَن بقي ... لشد عرىٰ الإسلام وفق مقاله

وفي بعض النسخ: ومن بقي صدىٰ الدين والإسلام وفق صقاله.

* * *

---

(١) الأبيات في طبقات السبكي ٦/ ٢٢٣، ومعجم البلدان ٤/ ٤٩.

(٢) في معجم البلدان: ولا له شبه في الخلق نعرفه.

(٣) في معجم البلدان: في الخلق.

(٤) الأبيات في طبقات السبكي ٦/ ٢٢٤.

الفصل التاسع: في ذكر شيء من رسائله ومكاتباته إلى أصحابه

قال ابن السمعاني[١]: قرأت في كتاب كتبه الغزالي إلىٰ أبي حامد [بن] أحمد بن سلامة بالموصل فقال في خلال فصوله: أما الوعظ فلا أرىٰ نفسي أهلاً له؛ لأن الوعظ زكاة نِصابه الاتعاظ، فمَن لا نِصاب له كيف يُخرِج الزكاة؟! وفاقد الثوب كيف يستر به غيره؟! ومتىٰ يستقيم الظل والعود أعوج؟! وقد أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ [ابن مريم] عليه السلام: عِظْ نفسك، فإن اتعظت فعِظِ الناسَ، وإلا فاستحي مني.

وقال ابن السمعاني أيضًا: [سمعت أبا سعيد محمد بن أسعد بن محمد بن الخليل النَّوْقاني بمرو مذاكرةً في دارنا يقول: حضرت درس الإمام أبي حامد الغزالي لكتاب إحياء علوم الدين، فأنشد[٢]:

وحبَّب أوطانَ الرجال إليهم ... مآرب قضَّاها الفؤاد[٣] هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهم ... عهودَ الصِّبا فيها فحنُّوا لذلكا

قال: فبكىٰ وأبكىٰ الحاضرين.

وقال أيضًا][٤]: سمعت أبا نصر الفضل بن الحسن بن علي المُقْري مذاكرةً بمرو يقول: دخلت علىٰ الإمام أبي حامد مودعًا، فقال لي: احمل هذا الكتاب إلىٰ المعين [النائب] أبي القاسم البيهقي. ثم قال [لي]: وفيه شكاية علىٰ العزيز المتولي للأوقاف بطوس، وكان ابن أخي المعين، فقلت له: كنت بهَراة[٥] عند عمه

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢١٦. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) البيتان لابن الرومي، وهما في ديوانه ٣/ ١٤ (ط - دار الكتب العلمية).

(٣) في الديوان: الشباب.

(٤) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة، وزدته من طبقات السبكي ليستقيم الكلام.

(٥) هراة أو هيرات: مدينة كبيرة غرب أفغانستان يمر بها نهر هيربرود.

المعين، وكان العماد الطوسي جاء بمحضر في الثناء على العزيز[١]، وعليه خطُّك، وكان عمه قد طرده وهجره، فلما رأى شكرك[٢] وثناءك عليه قرَّبه ورضي عنه. فقال الإمام الغزالي: سلِّم الكتاب إلى المعين، واقرأ عليه هذا البيت. وأنشد:

ولم أرَ ظلمًا مثل ظلمٍ ينالُنا ... يُساء إلينا ثم نؤمَر بالشكر

ذكر الرسالة التي كتبها إلى بعض أهل عصره ما نصه[٣]: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة [والسلام] على سيد المرسَلين [سيدنا] محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعد: فقد انتسج بيني وبين الشيخ الأجلِّ معتمَد المُلك أمين الدولة غرس الله تأييده بواسطة القاضي الجليل الإمام مروان - زاده الله توفيقًا من الوداد وحُسن الاعتقاد - ما يجري مَجرى القرابة، ويقتضي دوام المكاتبة والمواصلة، وإني لا أَصِلُه بصلة [هي] أفضل من نصيحة توصله إلى الله وتقرِّبه إليه زُلفى، وتُحِلُّه الفردوسَ الأعلى، فالنصيحة هي هدية العلماء، وإنه لن يُهدَى إليَّ تحفة أكرم من قبوله لها وإصغائه بقلب فارغ عن ظلمات الدنيا إليها، وإني أحذره إذا مُيِّزت عنده أرباب القلوب أحرارُ الناس أن يكون إلا في زُمرة الكرام الأكياس، فقد قيل لرسول الله ﷺ: مَن أكرم الناس؟ فقال: «أتقاهم». فقيل: من أكيسُ الناس؟ فقال: «أكثرهم للموت ذِكرًا، وأشدهم [له] استعدادًا». وقال ﷺ: «الكيِّس مَن دانَ نفسَه وعمل لِما بعد الموت، والأحمق مَن أَتْبَع نفسَه هواها وتمنَّى على الله المغفرة»[٤]. وأشد الناس

---

(١) في المطبوعة: المعين. والتصويب من طبقات السبكي. وأشار في هامش المطبوعة إلى وجه الصواب على سبيل الظن.

(٢) في المطبوعة: خطك. والمثبت من طبقات السبكي.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٦٠ - ٢٦٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩).

غباوةً وجهلاً مَن تُهِمُّه أمور دنياه التي تُختطَف عند الموت[1] ولا يهمه أن يعرف أنه من أهل الجنة أو النار، وقد عرَّفه الله تعالىٰ ذلك، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤] وقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩] وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ - ١٦] وإني أوصيه أن يصرف إلىٰ هذا المهم همتَه، وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسَب، ويراقب سريرته وعلانيته وقصده وهمته وأفعاله وأقواله وإصداره وإيراده أهي مقصورة علىٰ ما يقرِّبه من الله تعالىٰ ويوصِّله إلىٰ سعادة الأبد، أو هي مصروفة إلىٰ ما يعمر دنياه ويصلحها له إصلاحًا منغَّصًا مشوبًا بالكُدورات، مشحونًا بالهموم والغموم ثم يختمها بالشقاوة والعياذ بالله؟ فليفتح عين بصيرته، ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ، وليعلم أنه لا مشفق ولا ناظر لنفسه سواه، وليتدبر ما هو بصدده، فإن كان مشغولاً بعمارة ضَيْعة فلينظر كم من قرية أهلكها الله وهي ظالمة فهي خاوية علىٰ عروشها بعد عَمارها، وإن كان مقبلاً علىٰ استخراج ماء أو عمارة نهر فليفكر كم من بئر معطَّلة [وقصر مشيد] بعد عمارتهما، وإن كان مهتمًّا بتأسيس بناء فليتأمل كم من قصور مشيَّدة البنيان محكمة القواعد والأركان أظلمت بعد سكانها، وإن كان معتنيًا بعمارة الحدائق والبساتين فليعتبر ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٦] الآية، وليقرأ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧] وإن كان مشغوفًا - والعياذ بالله - بخدمة سلطان فليذكر ما ورد في الخبر أنه ينادي منادٍ يوم القيامة: أين الظَّلَمة وأعوانهم؟ فلا يبقىٰ أحد منهم مدَّ لهم دواةً أو برىٰ لهم قلمًا فما فوق ذلك إلا أُحضروا، فيُجمعون في

---

(١) في طبقات السبكي: يختطفها عنه الموت.

تابوت من نار فيُلقَون في جهنم[١].

وعلىٰ الجملة، فالناس كلهم - إلا مَن عصم اللهُ - نسوا الله فنسيهم وأعرضوا عن التزوُّد للآخرة، وأقبلوا علىٰ طلب أمرين: الجاه والمال، فإن كان هو في طلب جاه ورياسة فليتذكر ما ورد به الخبر أن الأمراء والرؤساء يُحشرون يوم القيامة في صور الذَّرِّ تحت أقدام الناس يطؤونهم بأقدامهم، وليقرأ ما قال تعالىٰ في كل متكبر جبار، وقد قال ﷺ: «يُكتب الرجل جبارًا وما يملك إلا أهل بيته»[٢]. أي إذا طلب الرياسة بينهم وتكبَّر عليهم، وقد قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما ذئبان ضاريان أُرسلا في زَريبة غنم بأكثر فسادًا من حب الشرف في دين الرجل المسلم»[٣]. وإن كان في طلب المال وجمعه فليتأمل قول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا معشر الحواريين، [العين] مسرَّة في الدنيا، مَضرَّة في الآخرة، بحق أقول: لا يدخل الأغنياءُ ملكوت السماء». وقد قال نبينا ﷺ: «يُحشر الأغنياء [يوم القيامة] أربع فِرَق: رجل جمع مالاً من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلىٰ النار، ورجل جمع مالاً من حرام وأنفقه في حلال، فيقال: اذهبوا به إلىٰ النار، ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلىٰ النار، ورجل جمع مالاً من حلال وأنفقه في حلال، فيقال: قِفوا هذا وسلوه لعله ضيَّع بسبب غناه فيما فرضناه عليه أو قصَّر في الصلاة أو في وضوئها أو في ركوعها أو سجودها أو خشوعها، أو ضيَّع شيئًا من فرض الزكاة والحج، فيقول الرجل: جمعت المال من حلال، وأنفقته في حلال، وما ضيعت شيئًا من حدود الفرائض، بل أتيت بتمامها. فيقال: لعلك باهيت بمالك، واخْتَلْتَ في شيء من ثيابك. فيقول: يا رب، ما باهيت بمالي، ولا اختلت في ثيابي. فيقال: لعلك

---

(١) ذكره ابن حجر الهيتمي في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر ٢/ ١٣١ (ط - المطبعة الخديوية بمصر) عن مكحول الدمشقي.

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٦

(٣) أخرجه أبو نُعيم في حلية الاولياء ٧/ ٩٤

فرَّطت فيما أمرناك من صلة الرحم وحق الجيران والمساكين، وقصَّرت في التقديم والتأخير والتفضيل والتعديل. ويحيط به هؤلاء فيقولون: ربنا أغنيته بين أظهُرنا وأحوجتنا إليه فقصَّر في حقِّنا. فإن ظهر تقصيرٌ ذُهب به إلىٰ النار، وإلا قيل له: قفْ، هاتِ الآن شكر كل نعمة وكل شربة وكل أكلة وكل لذة، فلا يزال يَسأل ويُسئل»[1].

فهذه حال الأغنياء الصالحين المصلحين القائمين بحقوق الله أن يطول وقوفهم في العَرَصات، فكيف حال المفرِّطين المنهمكين في الحرام والشبهات، المكاثرين به، المتَّبعين لشهواتهم[2]، الذين قيل لهم[3]: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ - ٢] فهذه المطالب الفاسدة هي التي استولت علىٰ قلوب الخلق تسخرها للشيطان، وتجعلها ضُحَكَةً له، فعليه وعلىٰ كل مستمر في عداوة نفسه أن يتعلم علاج هذا المرض الذي حل بالقلوب، فعلاج مرض القلوب أهم من علاج مرض الأبدان، ولا ينجو إلا مَن أتىٰ اللهَ بقلب سليم، وله دواءان:

أحدهما: ملازمة ذكر الموت وطول التأمل فيه، مع الاعتبار بخاتمة الملوك وأرباب الدنيا [أنهم] كيف جمعوا كثيرًا، وبنوا قصورًا، وفرحوا بالدنيا بَطَرًا وغرورًا، فصارت قصورهم قبورًا، وأصبح جمعهم هباءً منثورًا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨] ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾ [السجدة: ٢٦] فقصورهم وأملاكهم ومساكنهم صوامت ناطقة تشهد بلسان حالها علىٰ غرور عمَّالها، فانظر الآن في جميعهم هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكزًا؟

الدواء الثاني: تدبُّر كتاب الله تعالىٰ، ففيه شفاء ورحمة للعالمين، وقد أوصىٰ

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) في طبقات السبكي: المتنعمين بشهواتهم.

(٣) في طبقات السبكي: فيهم.

رسول الله ﷺ بملازمة هذين الواعظينِ فقال: «تركت فيكم واعظين صامتًا وناطقًا، الصامت الموت، والناطق القرآن»[١]. وقد أصبح أكثر الناس أمواتًا عن كتاب الله تعالىٰ وإن كانوا أحياء في معايشهم، وبكمًا عن كتاب الله وإن كانوا يتلونه بألسنتهم، وصمًّا عن سماعه وإن كانوا يسمعونه بآذانهم، وعميًا عن عجائبه وإن كانوا ينظرون إليه في [صحائفهم و] مصاحفهم، وأمِّيين في أسراره[٢] ومعانيه وإن كانوا يشرحونه في تفاسيرهم، فاحذرْ أن تكون منهم، وتدبَّرْ أمرك، وأمر مَن لم يتدبر كيف ندم وتحسَّر، وانظر في أمرك وأمر من لم ينظر في أمر نفسه كيف خاب عند الموت وخسر، واتعظْ بآية واحدة من كتاب الله ففيه مَقنع وبلاغ لكل ذي بصيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩] إلىٰ آخرها. وإياك ثم إياك أن تشتغل بجمع المال؛ فإن فرحك به ينسيك أمر الآخرة، وينزع حلاوة الإيمان من قلبك.

قال عيسىٰ عليه السلام: لا تنظروا إلىٰ أموال أهل الدنيا؛ فإن بريق أموالهم يُذهِب بحلاوة إيمانكم[٣].

وهذه ثمرة مجرد النظر، فكيف عاقبة الجمع والطغيان والبَطَر؟!

وأما القاضي الجليل الإمام مروان - أكثر اللهُ في أهل العلم أمثاله - فهو قرة العين، وقد جمع بين الفضيلتين: العلم والتقوىٰ، ولكن الاستتمام بالدوام، ولا يتم الدوام إلا بمساعدةٍ من جهته ومعاونة له عليه بما يزيد في رغبته، ومَن أنعم

---

(١) ذكره ابن الجوزي في كتاب بستان الواعظين ص ٢٢٦ (ط - دار الريان للتراث) غير معزو.

(٢) في طبقات السبكي: نائمين عن أسراره.

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي ١/ ٤٣٦ (ط - دار الكتب العلمية) وفيه: بنور إيمانكم.

الله عليه بمثل هذا الولد النجيب فينبغي أن يتخذه ذُخرًا للآخرة، ووسيلة إلى[1] الله تعالى، وأن يسعى في فراغ قلبه لعبادة الله تعالى، ولا يقطع عليه الطريق إلى الله تعالى، وأول الطريق إلى الله تعالى طلب الحلال، والقناعة بقدر القوت من المال، وسلوك سبيل التواضع [والخمول] والنزوع عن رعونات أهل الدنيا التي هي مصائد الشيطان، هذا مع الهرب من مخالطة الأمراء والسلاطين، ففي الخبر: «إن الفقهاء أمناء الله ما لم يدخلوا في الدنيا، فإذا دخلوا فيها فاتهموهم على دينكم»[2]. وهذه أمور قد هداه الله إليها ويسَّرها عليه، فينبغي أن يمده ببركة الرضا، ويمده بالدعاء، فدعاء الوالد أعظم ذخرًا وعُدَّةً في الآخرة والأولى. وينبغي أن تقتدي به فيما يؤثِره[3] من النزوع عن الدنيا، فالولد وإن كان فرعًا فربما صار بمزيد العلم أصلاً، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم: ٤٣] الآية. وليجتهد أن يجبر تقصيره في القيامة بتوقيره ولده الذي هو فِلْذة كبده، فأعظمُ حسرة أهل النار فقدُهم في القيامة حميمًا يشفع لهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾ [الحاقة: ٣٥] أسأل الله أن يصغِّر في عينيه الدنيا التي هي صغيرة عند الله، وأن يعظِّم في عينيه الذي هو عظيم عنده، وأن يوفقنا وإياه لمرضاته، ويُحِلَّه الفردوسَ الأعلى من جناته بمَنِّه وفضله وكرمه.

* * *

(١) في طبقات السبكي: عند.

(٢) أخرجه العسكري كما في ((الجامع الصغير)) للسيوطي (٥٩٨٩) مختصراً.

(٣) في المطبوعة: يأمره. والمثبت من طبقات السبكي.

الفصل العاشر: في ذكر شيء من فتاويه غير ما تضمنته فتاويه المشهورة

* سُئل: ما قوله فيمن يغتاب كافرًا أيأثم بذلك أم لا؟ وهل يفترق الحال بين الذِّمي والحربي؟ وفيمن يغتاب مبتدعًا بغير بدعته أيحرُم أم لا؟

الجواب وبالله التوفيق: الغِيبة المنهي عنها هي أن يذكر المغتابَ بما يكرهه إذا سمعه وإن كان صادقًا، وهو في حق المسلم محذور لثلاث عِلَل:

إحداها: ما فيه من الإيذاء إن سمعه، أو يضيق بسببه إن لم يسمعه.

والثانية: أن فيه تنقُّص ما هو فِعل الله تعالىٰ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الخلق، وهو خالق صفاتهم وأفعالهم وأخلاقهم حتىٰ يُنهىٰ بسبب هذا عن مَذمَّة الأطعمة الرديئة وتنقُّصها.

والثالثة: أنه يضيع الوقت بما لا يعني، وهو جارٍ في النطق بما ليس فيه غرض صحيح.

والعلة الأولىٰ تقتضي التحريم؛ فإن إيذاء المسلم حرام، والثانية تقتضي الكراهة، وهو يطَّرِد في الأطعمة والحيوانات، والثالثة يقال إن تركه أَولىٰ، وهو رتبة دون الكراهة، فُهم ذلك من قوله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[1]. فإذا فُهم هذا في المسلم فالكافر إن كان حربيًّا فإيذاؤه ليس بحرام؛ إذ لا عصمة له، فتزول علة التحريم، ويبقىٰ أنه تنقُّص لما هو من خلق الله تعالىٰ، فإن كان ذلك تعرُّضًا لذميم أخلاقه لا لنشأة خِلقته وانضم إليه الإشعار وقال: ذلك من أثر ضلاله وكفره، تنفيرًا عن الكفر وتحقيرًا له ببيان أنه مما ينتج الأخلاقَ السيئة فهذا لا كراهية فيه، وإن لم يكن علىٰ هذا القصد ولا مع هذا الإشعار ولم تكن

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣١٧).

فيه فائدة التنبيه من تحذير وتحقير فالكراهة فيها أخف، وإنما لا تستشعر النفس فيها كراهة لأنه يسبق إليها أن مَذمَّته مذمة الكفر وإشارة إليه، وقد سبق أن ذلك لا بأس به، وهذا بأن يكون مندوبًا أشبه من أن يكون مكروهًا، وأما التعرُّض لبشرة خِلقته فالكراهة فيها أخف من التعرض للأطعمة والبهائم؛ لأنه مما استحق إيذاؤه، ويمكن أيضًا أن يُوهِم أن ذلك من شؤم ضلاله، وأنه عذاب له علىٰ كفره. وأما الذمي فهو كالمسلم فيما يرجع إلىٰ المنع من الإيذاء؛ لأن الشرع عصم عِرضهم كما عصم دمهم وأموالهم. وأما المبتدع إن كفر فهو كالحربي، وإن لم يكفُر فهو كالمسلم، وأما ذِكره ببدعته فليس مكروهًا، وكذا ذكر أخلاقه في معرض التعليل بشؤم البدعة فلا بأس به، فأما ذِكر خِلقته فلا وجه له. والله أعلم. كتبه الغزالي.

* وسُئل: ما يقول - أدام الله علوَّه - هل يجوز الغرس في المسجد أم لا؟ وإن غرس فالفاكهة الحاصلة منها مَن يملكها؟ وإن غرس علىٰ أن تكون الفاكهة مباحة للمسلمين هل يجوز أم لا[1]؟

الجواب وبالله التوفيق: يُنظر إلىٰ الغارس: فإن غرس لنفسه مُنع منه مهما كان قصده الانتفاع بالمسجد، فإن فعل وحصلت الفاكهة فهي له، وعليه أجرة المِثل للمسجد؛ لأنه استوفىٰ منافعه، فهو كما لو أحرق خشبًا من المسجد تلزمه الغرامة، ويجوز الأكل من الفاكهة بإذن المالك ما دام حيًّا، فإذا مات قبل أداء الأجرة تعلق حق الأجرة بالشجرة والثمرة، وصار مرهونًا فلا يجوز الأكل منه بالإذن السابق؛ فإنه متعلق بحق المسجد.

وإن غرس علىٰ أن يكون الغراس للمسجد ينصرف الريع إلىٰ مصالحه فذلك غير جائز، إلا أن يكون المسجد واسعًا، وتكون فيه فائدة للمصلين بالاستظلال إن

---

(١) انظر هذه المسألة في الموسوعة الفقهية ٣٧/ ٢٢٦ - ٢٢٨ (ط - الكويت).

لم يكن فيه ما يجمع من الطيور ما ينجس المسجدَ فيرخَّص فيه كما في بناء السقف؛ فإن فائدة الاستظلال من الشمس مقصودة، وما يشغله الشجر من عرصة المسجد أقل مما تشغله الحيطان، فأما إذا غرس علىٰ أن يكون وقفًا علىٰ قوم لا تعلُّق لهم بالمسجد فيُمنع منه كما لو غرس لنفسه؛ إذ لا يجوز صرفُ منافع المسجد إلا إلىٰ مصلحة المسجد ومصلحة قيام الصلاة فيه.

وإن غرس علىٰ أن يكون وقفًا علىٰ المجاورين والمصلين فيه فهذا له تعلُّق بالمسجد محتمل جوازه، ويمكن أن لا يجوز صرفُ مال المسجد إذا فضل من مصالحها إلىٰ المجاورين، وإن جاز صرفها إلىٰ الإمام والمؤذن، فمن هذا الوجه يكاد يلتحق المجاور بسائر المسلمين، وإن أشكل الأمرُ ولم يدرِ أنه علىٰ [أية] نية قصد فالأصل بقاؤه علىٰ مِلكه فيُجعل كأنه غرسه لنفسه، فعلىٰ المتولي قلعُه؛ لأنه لا سبيل إلىٰ تركه مجانًا، ولا إلىٰ تركه للأجرة؛ فإن ذلك اختيار لبيع المنفعة في المستقبل، بخلاف ما حصل فواته في الماضي؛ فإن غرامة ذلك تشبه غرامة إتلاف الوقف والمستولَدة، وأما للتبقية اختيارًا بالأجرة فشبه إجارة المسجد وبيع الوقف والمستولَدة، فينبغي أن يردَّ ما فضل من الأجرة بعد القلع إلىٰ المالك أو وارثه. وإن كان الغارس قد مات ولم يبقَ له وارث فهو متعلَّق أجرة المسجد، فيؤخَذ للمسجد بدل ما وجب من الأجرة، فإن فضل شيء أو لم تكن أجرة باقية فهو مال المصالح، فإن رأىٰ القاضي من المصلحة أن يتركه ويجعله وقفًا علىٰ المسجد فله ذلك، وإن كان في المصالح ما هو أهم من المسجد وكان للمسجد فائدة بإبقائه للاستظلال وأراد بقاءه ليأخذ من فاكهته للمسجد بقدر الأجرة يُصرف الفاضل إلىٰ المصالح فهذا قد يصادم فيه محذوران:

أحدهما: قلعُه، مع أنه فيه فائدة للاستظلال كما في البناء.

والآخر: إبقاؤه بالأجرة وكأنه إجارة.

والأليق بمصلحة الجوانبِ الرخصةُ في الإبقاء؛ إذ ليس في قلعه للمسجد فائدة، وله في إبقائه فائدة، ومع هذا فلو اتسعت خطة المسجد وأراد المتولي أن يزرع بعض جوانب المسجد فيتخذه مستغلاً للمسجد أو يجعل بعض بيوته مستغلاً لم يجُز؛ لأن ذلك اكتساب مال المسجد، وليس في نفس الزرع للمصلين فائدة، بخلاف الشجرة ذات الظل فإنها تقوم في دفع حر الشمس عن المصلين مقام السقف، فلأجل ذلك رُخِّص في غرسه وإبقائه عند اتساع المسجد. والله أعلم. كتبه الغزالي.

* وسُئل: ما قوله - دام علوه - في المصلَّىٰ المبني لصلاة العيد خارج البلد أله حكم المسجد في الأحكام أم لا؟ وإن لم يكن فما سببه ولم يُبْنَ إلا للصلاة؟

الجواب وبالله التوفيق: لا يثبت له حكمُ المسجد في الاعتكاف ومكثُ الجُنُب وغيرُه من الأحكام؛ لأن المسجد هو الذي أُعِدَّ لرواتب الصلاة وعُيِّن له حتىٰ لا يُنتفع به في غيرها، وموضع صلاة العيد معدٌّ للاجتماعات ولنزول القوافل ولركوب الدواب ولعب الصبيان، ولم تجرِ عادة مَن سلف بالمنع من شيء من ذلك فيه، فلو اعتقدوه مسجدًا لصانوه عن هذه الأسباب، ولقُصد لإقامة سائر الصلوات، فصلاة العيد تطوع، وهو أيضًا لا يكثُر تكرُّرُه، ولا يُبنىٰ ذلك لقصد الصلاة بل للاجتماع، وتكون كالتبع في القصد. والله أعلم. كتبه الغزالي.

* وسُئل: ما قوله - دام علوُّه - فيما أقطع رسول الله ﷺ تميمًا الداري رضي الله عنه من الشام قبل أن ملكه أهلُ الإسلام ما وجه صحته مع أنه جرىٰ قبل المِلك ولم يتصل به القبض ولم يحوِ تحديد محل الإقطاع؟ وهل يجوز للإمام أن ينتزع ذلك من يد أولاده؟ ومتىٰ يحصل المِلك للمُقطَع؟ يتفضل بشرح القول فيه.

الجواب وبالله التوفيق: ذلك الإقطاع صحيح، والمِلك حاصل لتميم الداري، ومنتقل إلىٰ أعقابه بالوراثة، ووقت حصول المِلك عند تسليم الإمام المستولي عليه إليه، ووجه صحته: أنه كان ﷺ مختصًّا بالصَّفايا من المَغنم، حتىٰ كان يختار من المغنم ما يريد ويرفع مِلك المسلمين عنه بعد استيلائهم، وكذلك له أن يستثني نفعه من ديار الكفار عن ملك المسلمين ويعيِّنه لبعضهم فيصير مِلكًا له، ويكون سبب المِلك تسلُّم الإمام أمر رسول الله ﷺ بالتسليم، وقد نُقل أمثال ذلك من التخصيصات قبل الاستيلاء، وليس ذلك لغيره من الأئمة؛ فإنه كان ﷺ مطلعًا بالوحي علىٰ ما سيُملك في المستقبل، وعلىٰ وجه المصلحة في التخصيص والاستثناء، وغيره لا يطلع عليه، وأما قول من قال: لا يصح إقطاعه؛ لأنه قبل الملك، فهو كفر محض؛ إذ يقال له: هل حل لرسول الله ﷺ فعله أو كان ظالمًا بتصرفه قبل الملك؟ فإن جعله ظالمًا فقد كفر، وإن قال: حلَّ له ذلك ولكن الملك لا يحصل به، فيقال: وهل علم أن الملك لا يحصل به أم لا؟ فإن قال: إنه لم يعلم، فقد جهَّله بحكم الشرع، وهذا كفر، وإن قال: علم ذلك، فيقال: لا يبقىٰ لإقدامه عليه مع العلم ببطلانه إلا تطييب قلب تميم الداري بما لا حاصل له ولا طائل تحته، وهو محض الخداع والتلبيس، ومَن نسبه إلىٰ شيء من ذلك فهو كافر.

وأما قوله: إن القبض لم يتصل به، فهو باطل من وجهين:

أحدهما: أن أفعال رسول الله ﷺ حجة تُتعرَّف بها شروط الأفعال، فأما أن يُتحكم عليها بالشرط فلا، ففعلُه يبين أن ذلك ليس بشرط، وهو كما لو نكح بغير ولي ولا شهود، أو يبين به أن ذلك خاصيته، ونكاح تسع نسوة من هذا القبيل، بل لو أقطع مثلاً زوجة مسلم لمسلم آخر لوجب أن يقال: قد أُوحي إليه أنها حرمت علىٰ زوجها وحلَّت للآخر؛ فإنَّ فعله ﷺ نصٌّ في الجواز.



والثاني: أن الإقطاع ليس بتمليك في الحال حتىٰ يُشترط اتصاله بالقبض، بل هو كما لو أقطع الإمام بعض أراضي الموات ليحييه المُقطَع فإنه لا يملكه إلا بالإحياء، وفي الحال لا يملكه، والقبض ليس شرطًا في صحة هذا التخصيص، وأما ذِكر الحد فليس شرطًا للصحة لا سيما في الأمور السلطانية، وإنما يُشترط للتسليم، وللإمام عند التسليم أن يعوِّل فيه علىٰ الاشتهار، وله أن يسامح فيما يقع منه في محل الاشتباه؛ فإنَّ مَبنىٰ هذه الأمور علىٰ المساهلات، بخلاف التصرفات الجزئية. والله أعلم. كتبه الغزالي.

* وسُئل: ما قوله - دام علوه - فيمن له إدرار من سلطان العصر أتُقبل شهادته أم لا؟ فإن لم تُقبل فما حكم القضاة الذين لهم إدرار من السلطان أمنعزلون أم لا؟

الجواب وبالله التوفيق: إدرار السلطان منقسم إلىٰ ما هو حلال كالجزية والفيء، فأخذُ ذلك لا يوجب الفسق إن كان الآخذ ممن تقتضي مصلحة بوجه من الوجوه أن يُصرف إليه، ومهما كان من مظنة المصلحة واتصل به اجتهاد السلطان فلا يفسق، فأما الذي ليس بفقير ولا مرتَّب لعمل ولا مصلحة للناس مثل كونه فقيهًا أو طبيبًا أو معلِّمًا أو غيره بل هو بَطَّال في نفسه عن هذه الأشغال غير مفتقر أيضًا إليه فأخذُ ذلك لا رخصة فيه، وآخذه فاسق لا تُقبل شهادته، وأما الفقيه ومن يجري في مجراه فهو علىٰ الجملة من قبيل مَن يُصرف إليه مال المصالح، وإن كتب له إدرار علىٰ مِلك للسلطان أحياه أو اشتراه لم يفسق بأخذه، وإن لم يكن من أهل مال المصالح فإن ذلك يُنزع وما يثبُت عن مِلك اشتراه السلطان في الذمة هو ملكه، وإن كان الثمن الذي فيه لم يكن من حِلِّه فالثمن في ذمته بعدُ، والثابت من الأرض مِلكه، وإنما اجتنابه من الورع، وإن كتب الإدرار علىٰ الخزانة، وهي جامعة للخراج المأخوذ من المسلمين، وهو حرام، وللجزية والفيء والمواريث، وهي حلال، وللهدايا، وهي في محل الاجتهاد، أعني هدايا الملوك، فإن كان

الغالب علىٰ مال ذلك السلطان جهات الحِل لم يفسق بأخذه، وكذا إذا لم يكن جانب التحريم غالبًا، إلا أن يعلم عين ما يأخذه علىٰ الخصوص من جهة محرمة، وإن كان الغالب الحرام ولكن احتمل أن يكون ما يأخذه قد وقع من جملة ما يحل فهذا أصل قد عارضه غالبٌ؛ إذ الأصل في الأموالِ الحِلُّ، وفي الأيدي الدلالةُ علىٰ المِلك، وقد عارضه الغالب، فهو قريب من قول الشافعي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في تعارض الأصل، والغالب في النجاسات كطين الشوارع وغيره، ولكن لما توضأ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من ماء في جَرَّةِ نصرانيةٍ والغالب النجاسة، ثم كانوا إذا رأوا احتمال التحريم في المأكول إلىٰ هذا الحد يتفحصون عنه - دل علىٰ أن الأمر في الحل والحرمة أضيق منه في الطهارة والنجاسة، فهذا في محل الاجتهاد والرأي فيه إلىٰ القاضي، والأَولىٰ أن لا تُردُّ شهادته إن كان يأخذ مثل ذلك عن حاجة، وأن تُرد شهادته إن كان يأخذه مع الاستغناء، وإذا أخذ القاضي من الإدرار ما قضينا بالتفسيق فيه فيتعين علىٰ السلطان عزلُه، ولكن لا يُحكَم بانعزاله لأجل المصلحة؛ فإن استمرار الولاية لو اشتُرط فيه استمرار العصمة من موجبات الفسق مع أن الشهوات غالبة، والشيطان بالمرصاد - لأدَّىٰ ذلك إلىٰ أن لا يدوم قضاء قاضٍ إلا ساعة قريبة فنقضي باطِّراد الولاية، ووجب العزل والاستبدال مهما ظهر ذلك للسلطان. والله أعلم. كتبه الغزالي.

* وسُئل: ما قوله - دام علوه - في المنتصبين علىٰ أبواب السلاطين والوزراء من أرباب الحشمة والجاه من العلماء وغيرهم لقبض إدرارات الناس وتسويفاتهم ودفع ظلاماتهم وقضاء حوائجهم طمعًا في مال صاحب الحق إذا قضىٰ حقه أيحل له ذلك المال أو لا؟ وكيف يحل له وربما لم تصدر منه إلا كلمة واحدة يشفع بها إلىٰ السلطان فقط، فهذا مقابلة الجاه والحشمة بالمال فما طريق حِله له؟ وما معنىٰ الرشوة المحرمة في الشرع؟ وإن لم يحل لهم هذا أصلاً فربما أفضىٰ ذلك إلىٰ حرج؛ إذ لا غنية بالناس عن ذلك؟ وهل يفترق الحال بين أن يتعب هذا الرجل في

قبض الإدرار في تكرير المراجعة والمطالبة وتكثير التقاضي والإلحاح أو لا يتعب بل يتكلم علىٰ سبيل الشفاعة؟

الجواب وبالله التوفيق: أنه إن كان السعي الملتمَس منه حرامًا لم يحل أخذُ المال عليه، وإن كان فرض عين عليه - مثل إقامة الشهادة علىٰ مَن ظلمه أو ما يجري مجراه - لم يحل أخذُ المال، وإن كان من قبيل فرض الكفايات في دفع الظلامات أو كان مباحًا نُظر: فإن كان فيه تعب بحيث لو كان الفعل معلومًا لصح الاستئجار عليه جاز أخذُ المال عليه بطريق الجِعالة، وإن لم يكن فيه تعب نُظر: فإن لم يكن فيه ابتذال حشمة وجاه لم يحل أخذُ المال؛ فإنَّ مقابلة ما لا يتقوَّم بالمال غير جائزة، وإن كان المتبادَل يحتاج إليه حتىٰ لو اشترىٰ حبة حنطة ليجعلها في فخ طائر حيث لا يجد غيرها لم يجُز. وصورة هذا: أن لا يلتمس منه إلا وضع القصة بين يدي السلطان، أو أن يقول للبوَّاب: لا تغلق الباب دونه. فهذه الكلمة الخفيفة لا يجوز أخذُ جُعْلٍ عليها، وإن كان فيه تبذُّلٌ من حيث الحشمة ولكن الفعل قليل في نفسه، فهذا في محل النظر، والأشبه المنع من مشارطة الجُعل عليه؛ فإن تجويزه لا مستنَد له إلا تخلية الناس والتراضي في المعاوضات وبذل المال في مقابلة ما فيه عوض، ولا خلاف في أنه لا تجوز مقابلة المال بإسقاط حق الشفعة وخيار الرد وأمور أُخَر فيها أعراض، فهذا يدل علىٰ أن المال إنما يُشترط في مقابلة بُضْع أو مال أو عمل مقتوَّم، والجاه ليس من هذا القبيل، وأما مسيس الحاجة إليه فالطريق فيه تركُ المشارَطة للجُعل، وهو العادة، ولا يمتنع علىٰ ذي الجاه أن يقبل هدية من المحتاج بطريق الهبة، وإن كان يعلم أنه لم يبذله إلا طمعًا في معونة، ولكن قوله ﷺ: «تهادوا تحابُّوا» وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء: ٨٦] يوجب الرخصة؛ فإن المُهدِي يستجلب محبة المُهدَىٰ إليه، وبواسطة المحبة يستحثه علىٰ بذل الجاه في مقابلته، فهذه هبة تقتضي ثوابًا

بقرينة الحال، والصحيح أن ذلك جائز، وأن الثواب واجب في مثل هذه الصورة، فلربما يهدي الفقير إلىٰ ذي الجاه طمعًا في أن يمكِّنه من أن يمشي بين يدي فرسه في معرض الغلمان؛ ليكون له بالانتساب إليه جاهٌ فيحصل لذي الجاه بخدمته زيادةُ جاه مع المال، ولا يمكن أن يُجعل ذلك معاوضة، ولا يمنع التوصل إلىٰ مثل ذلك بالهدية، بل أقول: يحل للقاضي أن يقبل الهدية وإن كانت لا تُهدَىٰ إليه لو لم يكن قاضيًا، ولكن إنما يجوز إذا علم أن المُهدِي يبغي مودته وحشمته وعنايته في أمور لا تحرم عليه ولا تجب وجوب عين بحكم القضاء، وإنما الرشوة المحرمة التي يبذلها صاحبها جُعلاً علىٰ حكم بالحق واجبٍ أو ميل بالظلم محرم، ولذلك قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لابن مسعود وقد ولاه بلدًا: أجب الداعي، ولا تقبل الهدية، وليس بحرام، ولكني أخشىٰ عليك القيل والقال.

وإذا منعنا المشارَطة بطريق الجعالة في مثل هذا فيتعدىٰ النظر في مثل بذل الجُعل علىٰ فِعل لا تعب فيه ولكنه عظيم الجدوىٰ بسبب علم صاحبه، فرُب سيف ومنواله معوج تتضاعف قيمته بدَقة واحدة من بصير بمحل الدق. والأشبه أن انضمام العِلم إلىٰ الفعل القليل لا يكون كانضمام الجاه، وأنَّ أخذ الجُعلِ علىٰ هذا يجوز؛ فإن هذه صناعة تُكتسب لكسب المال، ودون هذا ما لو علم الطبيب دواءً ولم يذكره إلا بجُعلٍ، فأخذُ المال علىٰ مجرد التنبيه عليه من غير عمل باليد فيه نظر، وهو بين مسألة السيف ومسألة بذل الجاه في كلمة. والله أعلم. كتبه الغزالي.

نقلتُ هذه الفتاوىٰ أجمعها من خط الإمام أبي الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبدري البحراني، وقال: فرغت من نسخه في تاسع محرم سنة ٥٦٤ بدمشق.

* * *

الفصل الحادي عشر: في بيان حال المنتسب إليه

قال صاحب «تحفة الإرشاد» نقلاً عن الإمام النووي في دقائق «الروضة»: التشديد في «الغزَّالي» هو المعروف الذي ذكره ابن الأثير، وبلغنا أنه قال: منسوب إلىٰ غزالة بتخفيف الزاي: قرية من قرىٰ طوس[١].

قلت: وهكذا ذكره النووي أيضًا في «التبيان»[٢].

وقال الذهبي في «العبر»[٣] وابن خلكان في التاريخ[٤]: عادة أهل خُوارزم وجُرجان يقولون: القَصَّاري والحَبَّاري بالياء فيهما، فنسبوه للغزل وقالوا: الغزَّالي، ومثل ذلك: الشَّحَّامي.

وأشار لذلك ابن السمعاني أيضًا، وأنكر التخفيف وقال: سألت أهل طوس عن هذه القرية فأنكروها[٥]، وزيادة هذه الياء، قالوا: للتأكيد.

---

(١) اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين ابن الأثير ٣/ ٣٧٩ (ط - مكتبة المثنىٰ ببغداد) ونصه: «الغزَّالي، بفتح الغين والزاي المشددة، وبعد الألف لام، أظن أن هذه النسبة إلىٰ الغزَّال، علىٰ عادة أهل جرجان وخوارزم، كالعصَّاري نسبة إلىٰ العصار، واشتهر بها الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الفقيه الشافعي المشهور، توفي سنة خمس وخمسمائة. وسمعت من يقول إنه بالتخفيف نسبة إلىٰ غزالة: قرية من طوس، وهو خلاف المشهور».

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ص ٢١٥ (ط - دار ابن حزم) ونصه: «الغزالي هو محمد ابن محمد بن أحمد، وهكذا يقال بتشديد الزاي، وقد رُوي عنه أنه أنكر هذا وقال: إنما أنا الغزالي، بتخفيف الزاي، منسوب إلىٰ قرية من قرىٰ طوس يقال لها غزالة».

(٣) العبر في خبر من غبر للذهبي ٢/ ٣٨٨ (ط - دار الكتب العلمية) ونصه: «والغزَّالي هو الغزَّال، وكذا العطاري وهو العطار، والخبَّازي، علىٰ لغة أهل خراسان».

(٤) وفيات الأعيان في ترجمة أخيه أحمد ١/ ٩٨ ونصه: «والغزالي بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة، وبعد الألف لام، هذه النسبة إلىٰ الغزَّال، علىٰ عادة أهل خوارزم وجرجان؛ فإنهم ينسبون إلىٰ القصار القصاري، وإلىٰ العطار العطاري. وقيل: إن الزاي مخففة نسبة إلىٰ غزالة، وهي قرية من قرىٰ طوس، وهو خلاف المشهور؛ لكن هكذا قاله السمعاني في كتاب الأنساب».

(٥) ولم يذكرها ياقوت في معجم البلدان.

وفي تقرير بعض شيوخنا للتمييز بين المنسوب إلىٰ نفس الصنعة وبين المنسوب إلىٰ من كان صنعته كذلك، وهذا ظاهر في الغزالي؛ فإنه لم يكن ممن يغزل الصوف ويبيعه، وإنما هي صنعة والده وجده، ولكن في «المصباح» للفيومي[1] ما يؤيد التخفيف، وأن غزالة قرية بطوس، وإليها نُسب الإمام أبو حامد، قال: أخبرني بذلك الشيخ مجد الدين محمد بن [محمد بن محيي الدين محمد بن] أبي الطاهر شروان شاه بن أبي الفضائل فخراور بن عبيد الله ابن ست النساء[2] بنت أبي حامد الغزالي ببغداد سنة عشر وسبعمائة، وقال لي: أخطأ الناس في تثقيل [اسم] جدنا، وإنما هو مخفف [نسبة إلىٰ غزالة].

وقال الشهاب الخفاجي في آخر شرح «الشفا»[3]: ويقال إنه منسوب إلىٰ غزالة ابنة كعب الأحبار.

وهذا إن صح فلا محيد عنه.

والمعتمَد الآن عند المتأخرين من أئمة التاريخ والأنساب أن القول قول ابن الأثير أنه بالتشديد.

وسمعت شيخنا القطب السيد العيدروس - نفع الله به - يقول أنه هكذا سمعه من لسان النبي ﷺ في واقعة منامية. وعليه أنشدنا شيخنا المرحوم عبد الخالق بن أبي بكر المِزجاجي بزَبِيد لأحد شعراء اليمن، وقد أجاد:

ما للعواذل في هواك ومالي ... روحي فداك يا حبيب ومالي
غزال طرفك إن رنا أحيا به ... وكذلك الإحياء للغزالي

---

(١) المصباح المنير للفيومي ص ١٧٠ (ط - مكتبة لبنان). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) في المطبوعة: ست المنا. والمثبت من المصباح المنير.

(٣) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي ٦/ ٣٤٠ (ط - دار الكتب العلمية).

الفصل الثاني عشر: في بيان مَن تكنَّى بأبي حامد من شيوخ مذهبه قبله

أول من رأيت ممن تكنىٰ به منهم:

أحمد بن بِشر بن عامر العامري القاضي، أبو حامد المروزي، توفي سنة ٣٦٢.

وأحمد بن محمد بن إسماعيل بن نُعَيم الفقيه، أبو حامد الطوسي الإسماعيلي، حدَّث بالطابران قصبة طوس، توفي سنة ٣٤٥.

وأحمد بن محمد بن الحسن الحافظ، أبو حامد ابن الشرقي، صاحب مسلم، توفي سنة ٣٢٥.

وأحمد بن محمد بن شارَك الفقيه، أبو حامد الشاركي الهروي، توفي سنة ٣٥٥.

وأحمد بن الحسين بن أحمد بن جعفر الفقيه، أبو حامد الهَمَذاني، توفي سنة ٤٩١.

وأحمد بن علي بن حامد البيهقي، أبو حامد، توفي سنة ٤٨٣.

وأحمد بن محمد بن أحمد، الشيخ أبو حامد الأسفراييني، شيخ طريقة العراق، توفي سنة ٤٠٦.

وأحمد بن محمد بن محمد بن علي بن محمد بن شجاع الشجاعي السرخسي، أبو حامد، توفي سنة ٤٨٢.

وأحمد بن محمد، الشيخ أبو حامد الغزالي الكبير. قال ابن السبكي[١]: قد

(١) طبقات السبكي ٤/ ٨٧. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

وقع الخبط في أمر هذا الرجل، وجهل أكثر الخلق حاله[١]، وقد سألت عنه شيخنا الذهبي مَن هذا [الغزالي] لمَّا كنت أقرأ عليه طبقات الشيخ أبي إسحاق، وذكره في قدماء الشيوخ، فقال: هذا زيادة من الناسخ؛ فإنَّا لا نعرف غزاليًّا غير حجة الإسلام وأخيه، ويبعُد كل البعد أن يكون ثَم آخر[٢]. فقلت [له إذ ذاك]: ثَم دليل [آخر] قاطع على أنه لم يُرِد [أبا حامد] حجة الإسلام. فقال: ما هو؟ قلت: قوله: «لم يحضرني تاريخ موتهم»[٣]؛ فإن هذا دليل منه على أنه لم يُرد حجة الإسلام؛ لأنه كان موجودًا بعد موت الشيخ[٤]. قال: صحيح.

ثم ذكرت ذلك لوالدي فذكر نحوًا مما ذكره الذهبي[٥]، حتى وقفت على

---

(١) بعده في طبقات السبكي: «وأول بحثي عن ترجمته لما كنت أقرأ طبقات الشيخ أبي إسحاق على شيخنا الذهبي، مررت بقوله: وبخراسان وفيما وراء النهر من أصحابنا خلق كثير، كالأودني، وأبي عبد الله الحليمي، وأبي يعقوب الأبيوردي، وأبي علي السنجي، وأبي بكر الفارسي، وأبي بكر الطوسي، وأبي منصور البغدادي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وناصر المروزي، وأبي سليم الشاشي، والغزالي، وأبي محمد الجويني، وغيرهم ممن لم يحضرني تاريخ موتهم. هذا كلام الشيخ أبي إسحاق، أخبرنا به أبو عبد الله الحافظ بقراءتي عليه من أصل سماعه، وهو أصل صحيح قال: أخبرنا عمر بن عبد المنعم بن القواس، أخبرنا زيد بن الحسن الكندي إجازة، أخبرنا ابن عبد السلام، أخبرنا الشيخ أبو إسحاق فذكره، وقد سألت شيخنا الذهبي حالة القراءة عليه ...» الخ.

وانظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ص ١٣٢ (ط - دار الرائد العربي ببيروت).

(٢) بعده في طبقات السبكي: «لأن هذه نسبة غريبة يقل الاشتراك فيها. قال: ويبعد أن يريد حجة الإسلام؛ إذ هو مثل تلامذته. وأيضًا، فإنه لم يذكر من أقرانه أحدًا كإمام الحرمين وابن الصباغ وغيرهما، فكيف يذكر مَن هو دونهم؟! وأيضًا، فإنه ذكره قبل الشيخ أبي محمد، والشيخ أبو حامد شيخ شيخ الغزالي؛ فإنه شيخ ولده إمام الحرمين شيخ الغزالي، فكل هذا مما يمهِّد أنه لم يُرِد الغزالي».

(٣) في المطبوعة: تاريخ وفاته. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) نص طبقات السبكي: «فإن هذا دليل منه على أنهم كانوا قد ماتوا، ولكن ما عرف تاريخ موتهم، وحجة الإسلام كان موجودا بعد موت الشيخ».

(٥) بعده في طبقات السبكي: «وتمادى الأمر، وأنا لا أقف على نسخة من الطبقات وأكشف عن =

كتاب[١] «الأنساب» لابن السمعاني[٢] في ترجمة الزاهد أبي علي الفارَمذي علىٰ أنه[٣] تفقَّه علىٰ أبي حامد الغزالي الكبير، ثم رأيت كتاب المُطَّوِّعي في شيوخ أبي علي الفارمذي ذكر أبا حامد هذا ووصفه بالتقدم. قال: وله ابن اسمه أحمد، وكنيته أبو حامد، فاق والده في العلم، ثم بلغني أنه قريب حجة الإسلام عم أبيه أخو جده. وحكىٰ محمد بن محمد الجمالي أن قبر هذا معروف بمقبرة طوس، وأنهم يسمونه الغزالي الكبير، يُستجاب عنده الدعاء.

ومنهم أحمد بن محمد، أبو حامد الراذَكاني الطوسي، أحد أشياخ المصنف.

تنبيه:

قد عُرف مما تقدم أنه لا يُعرف بالغزالي إلا الشيخ وعمه الكبير، وقد وجدتُ أنا رجلين من أهل عصره يُعرفان بذلك:

أحدهما: عبد الباقي بن محمد بن عبد الواحد الفقيه، أبو منصور الغزالي، تفقه علىٰ الكيا الهراسي، وروىٰ عنه الحافظ أبو طاهر السلفي، توفي سنة ٥١٣.

والثاني: علي بن معصوم بن أبي ذر، أبو الحسن الغزالي، من أهل المغرب،

= هذه الكلمة إلا وأجدها فأزداد تعجبًا وفكرة، ثم وقعت لي نسخة عليها خط الشيخ أبي إسحاق، وقد كُتب عليها بأنها قُرئت عليه، فألفيت هذه اللفظة فيها. ثم وقفت في تعليقة الإمام محمد بن يحيىٰ صاحب الغزالي في الزكاة في مسألة التلف بعد التمكن أنه أُلزم شافعي فقيل له: أليس لو تلف النصاب قبل التمكن من الأداء سقطت الزكاة؟ فكذلك بعد التمكن، بخلاف ما لو أتلف فإنها لا تسقط. فقال: مسألة الإتلاف ممنوعة، لا زكاة عليه ولا ضمان. وأسند هذا المنع إلىٰ الغزالي القديم والشيخ أبي علي تفريعًا علىٰ أن الزكاة إنما تجب بالتمكن. انتهىٰ».

(١) في طبقات السبكي: ثم وقفت في كتاب.

(٢) الأنساب للسمعاني ٤/ ٣٣٥ (ط - دار الجنان ببيروت).

(٣) في طبقات السبكي: علىٰ أن أبا علي المذكور.

شافعي المذهب، وُلد سنة ٤٩٦[١]، وتوفي بأسفرايين[٢] سنة ٥٥٥.

ثم وجدت رجلاً آخر تأخر زمانه وهو العلاء علي بن أحمد الغزالي، مؤلف «ميزان الاستقامة لأهل القُرْب والكرامة»، توفي سنة ٧٢١[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا أرخ المؤلف مولده، وفي طبقات السبكي ٧/ ٢٣٧ أنه ولد سنة ٤٨٩.

(٢) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور علىٰ منتصف الطريق من جرجان، واسمها القديم: مِهرجان، سماها بذلك بعض الملوك لخضرتها ونضارتها. قال أبو القاسم البيهقي: أصلها من أسبرايين بالباء، وأسبر بالفارسية هو الترس، وايين هو العادة، فكأنهم عُرفوا قديمًا بحمل التراس فسميت مدينتهم بذلك. وقيل: بناها إسفنديار فسميت به ثم غُيِّر لتطاول الأيام. معجم البلدان ١/ ١٧٧.

(٣) قال حاجي خليفة: «ميزان الاستقامة لأهل القرب والكرامة، لعلي بن محمد الغزالي - هو ابن أبي قصيبة - وهو غير الغزالي المشهور». ولم يذكر سنة وفاته. كشف الظنون ٢/ ١٩١٦.

وأرخ الزركلي وفاته بعد سنة ٨٧٨ ولم يذكر كتاب ميزان الاستقامة، وقال: «علي بن محمد بن علي ابن أبي قصيبة الحسيني الغزالي: باحث له تصانيف». الأعلام ٥/ ١٠.

الفصل الثالث عشر: في شيوخه في الفقه والتصوف والحديث

أول مشايخه في الفقه - كما تقدم - الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي، ثم أبو نصر الإسماعيلي، ثم إمام الحرمين. قرأ علىٰ الأول بطوس، وعلىٰ الثاني بجُرجان، وعلىٰ الثالث بنيسابور.

وفي التصوف: الإمام الزاهد أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي الطوسي، من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة، توفي بطوس سنة ٤٧٧.

ومن مشايخه أيضًا: يوسف النسَّاج.

وفي الحديث: أبو سهل محمد بن أحمد بن عبيد الله الحفصي المروزي، والحاكم أبو الفتح نصر بن علي بن أحمد الحاكمي الطوسي، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الخُواري خُوار طابران[1]، ومحمد بن يحيىٰ بن محمد الشجاعي الزوزني، والحافظ أبو الفتيان عمر بن أبي الحسن الرؤاسي الدهستاني، ونصر بن إبراهيم المقدسي، علىٰ قول الذهبي[2]، وقال غيره: لم يدركه.

فهؤلاء شيوخه في العلوم الثلاثة، ولم أطَّلع علىٰ أسماء شيوخه الذين قرأ عليهم في الكلام أو الجدل، فإن عثرتُ علىٰ شيء من ذلك بعدُ ألحقتُ به إن شاء الله تعالىٰ.

وأما علوم الفلسفة فلا شيخ له فيها، كما صرح بذلك في كتابه «المنقذ من

(١) لم يذكر ياقوت في معجمه خوار طابران، لا في مادة (خوار) ولا في مادة (طابران).

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ١٣٩ ونصه: «ولحقه - أي نصر المقدسي - أبو حامد الغزالي، وتفقه به وناظره، وكان يُشغل في جامع دمشق في الزاوية الغربية الملقبة بالغزالية».

الضلال»[١].

❊ ❊ ❊

(١) المنقذ من الضلال للغزالي ص ٧٤ (ط - دار الأندلس ببيروت) ونصه: «فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم - يعني الفلسفة - من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ».

الفصل الرابع عشر: في تفصيل ما سمع من هؤلاء ورواه عنهم

قال ابن السمعاني[١]: لما عاد إلىٰ وطنه كانت خاتمة أمره الإقبال علىٰ طلب الحديث ومجالسة[٢] أهله وقراءته ونَسْخه، واستدعىٰ الحافظ أبا الفتيان عمر بن أبي الحسن الرَّوَّاسي إلىٰ طوس، وأكرمه، واغتنم أيامه، وسمع منه الصحيحين، وما أظن أنه حدَّث بشيء، وإن حدَّث فيسيرٌ؛ لأن رواية الحديث ما انتشرت عنه.

وذكر الحافظ ابن عساكر[٣] أنه سمع صحيح البخاري عن أبي سهل الحفصي.

وقال ابن النجار في تاريخه[٤]: ولم يكن له إسناد، ولا طلب شيئًا من الحديث، ولم أرَ له إلا حديثًا واحدًا.

وقول ابن النجار كأنه يشير إلىٰ أول أمره؛ فإنَّ إقباله كان إذ ذاك علىٰ تحصيل الفنون.

وفي سياق الذهبي في ترجمته[٥]: ثم رجع إلىٰ بغداد، وعقد بها مجلس الوعظ، وتكلم علىٰ لسان أهل الحقيقة، وحدَّث بكتاب الإحياء.

وقال عبد الغافر[٦]: وكانت خاتمة أمره إقباله علىٰ حديث المصطفىٰ ﷺ،

---

(١) كذا نسب المؤلف هذا الكلام إلىٰ ابن السمعاني، وبعضه من كلام ابن السمعاني، وبعضه الآخر من كلام عبد الغافر الفارسي، لفق المؤلف بينهما. انظر: طبقات السبكي ٦/ ٢١٥.

(٢) في المطبوعة: ومجالس، والمثبت من سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٥.

(٣) تاريخ دمشق ٥٥/ ٢٠٠.

(٤) طبقات السبكي، ٦/ ٢٠٠.

(٥) لم أقف عليه من كلام الذهبي، بل ذكره السبكي في طبقاته ٦/ ٢٠٠.

(٦) طبقات السبكي ٦/ ٢١٠. تاريخ دمشق ٥٥/ ٢٠٤.

ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم اللذينِ هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه[١] في تحصيله، ولا شك أنه سمع الحديث في الأيام الماضية، واشتغل في آخر عمره بسماعها، ولم تتفق له الرواية، ولا ضرر، وفيما[٢] خلَّفه من الكتب المصنفة في الأصول والفروع وسائر الأنواع يخلِّد ذِكره، وتقرَّر عند المطالعين [المصنفين][٣] المستفيدين منها أنه لم يُخلِف مثله بعده. قال: وسمعت أنه سمع من سنن أبي داود السجستاني عن الحاكم أبي الفتح الحاكمي الطوسي، وما عثرتُ على سماعه، وسمع من الأحاديث المتفرقة أيضًا اتفاقًا مع الفقهاء، فمما عثُرت عليه ما سمعه من كتاب «مولد النبي ﷺ» من تأليف أبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني رواية الشيخ أبي بكر أحمد بن محمد بن الحارث الأصبهاني عن أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيَّان[٤] عن المصنف، وقد سمعه الغزالي من الشيخ أبي عبدالله محمد بن أحمد الخُواري مع ابنيه الشيخين عبد الجبار وعبد الحميد وجماعة من الفقهاء.

ومن الرواية عن حجة الإسلام: أخبرنا المسند عمر بن أحمد بن عقيل، أخبرنا عبد الله بن سالم بن محمد وأحمد بن محمد بن أحمد والحسن بن علي بن يحيىٰ، قالوا: أخبرنا الحافظ شمس الدين محمد بن العلاء، أخبرنا النور علي بن

(١) في المطبوعة: ليستفرغ. والمثبت من طبقات السبكي وتاريخ دمشق.

(٢) كذا في المطبوعة، وفي طبقات السبكي: ولا ضرر فيما ... تخلد ذكره. قال محققه: «ولعل الصواب: ولا ضرر فما، وبه يتفق السياق».

قلت: ولعل الصواب: وفيما خلفه ... ما يخلد ذكره.

(٣) زيادة من تاريخ دمشق.

(٤) المعروف بأبي الشيخ.

يحيىٰ، أخبرنا يوسف بن عبد الله الأرميوني[1] ويوسف بن زكريا وأحمد بن محمد بن أبي بكر، قالوا: أخبرنا الحافظ محمد بن عبد الرحمن، أخبرنا محمد بن عبد الرحيم بن محمد الحاكم، أخبرنا أبو نصر عبد الوهاب ابن علي بن عبد الكافي[2]، قرأت علىٰ أبي عبد الله محمد بن أحمد الحافظ[3] في سنة ٧٤٣، أخبرني الحافظ أبو محمد الدمياطي، عن الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، أنبأنا أبو منصور فتح بن خلف السعدي، أخبرنا الإمام شهاب الدين أبو الفتح محمد بن محمود الطوسي، أخبرنا محيي الدين محمد بن يحيىٰ الفقيه، أخبرنا حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، حدثنا الشيخ محمد بن يحيىٰ بن محمد الشجاعي الزُّوزني بزُوزَن[4] في داره قراءةً عليه، حدثنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر، أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد [حفيد العباس بن حمزة][5] حدثنا أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عامر الطائي بالبصرة، حدثني أبي في سنة ٢٦٠، حدثنا علي بن موسىٰ الرضا في سنة ١٩٤، حدثني أبي

---

(١) نسبة إلىٰ أرميون، وتسمىٰ الآن: أريمون، وهي إحدىٰ قرىٰ محافظة كفر الشيخ بمصر.

(٢) المعروف بالسبكي صاحب طبقات الشافعية الكبرىٰ.

(٣) هو الإمام الذهبي.

(٤) زوزن، بضم أوله وقد يُفتح: كورة واسعة بين نيسابور وهراة، ويحسبونها في أعمال نيسابور، كانت تُعرف بالبصرة الصغرىٰ؛ لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم. وقال أبو الحسن البيهقي: زوزن: رستاق، وقصبته زوزن هذه، وقيل لها زوزن لأن النار التي كانت المجوس تعبدها حُملت من أذربيجان إلىٰ سجستان وغيرها علىٰ جمل، فلما وصل إلىٰ موضع زوزن برك عنده فلم يبرح، فقال بعضهم: زُوزن، أي عجِّلْ واضرب لينهض، فلما امتنع من النهوض بُني بيت النار هناك. وهي تشتمل علىٰ مائة وأربع وعشرين قرية. وهذا الذي ذكره البيهقي يدل علىٰ ضم أولها، وأكثر أهل الأثر والنقل علىٰ الفتح.
معجم البلدان ٣/ ١٥٨.

(٥) زيادة من طبقات السبكي ٦/ ٢٢٠.

موسىٰ بنُ جعفر، حدثني أبي جعفرُ بن محمد، حدثني أبي محمدُ بن علي، حدثني أبي عليُّ بن الحسين، حدثني أبي الحسينُ بن علي، حدثني أبي عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «يظهر قوم لا خَلاق لهم في الدين[١]، شابُّهم فاسق، وشيخهم مارق، وصبيُّهم عارم، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر [فيما][٢] بينهم مستضعَف، والفاسق والمنافق [فيما][٣] بينهم مشرَّف، إن كنتَ غنيًّا وقَّروك، وإن كنت فقيرًا حقَّروك، همَّازون لَمَّازون، يمشون بالنميمة، ويدسُّون بالخديعة، أولئك فَراش نار وذباب طمع، وعند ذلك يولِّيهم الله أمراءَ ظَلَمة ووزراء خونة ورفقاء غَشَمة، وتوقَّعْ عند ذلك جرادًا شاملاً، وغلاء متلِفًا، ورِخَصًا مجحفًا، ويتتابع البلاء كما يتتابع الخَرَز من الخيط إذا انقطع».

قال ابن السبكي: هذا حديث ضعيف واهٍ.

قلت: ذكر ابن النجار في تاريخه عن الدارقطني عن أبي حاتم البُستي في كتابه قال[٤]: علي بن موسىٰ الرضا يروي عن أبيه العجائب، كأنه كان يَهِمُ ويخطئ[٥].

وقال الذهبي في الديوان[٦]: علي بن موسىٰ له عجائب عن أبيه عن جده.

وقال في الذيل[٧] مثل هذه المقالة عن ابن طاهر، ثم قال: قلت: الشأن في

---

(١) في المطبوعة: الدنيا. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) زيادة من طبقات السبكي.

(٤) المجروحين من المحدثين لأبي حاتم ابن حبان البستي ٢/ ٨١ (ط - دار الصميعي بالرياض)

(٥) في المطبوعة: وكان يهيج ويخطئ. والتصويب من كتاب المجروحين.

(٦) ديوان الضعفاء والمتروكين للذهبي ص ٢٨٦ (ط - مكتبة النهضة الحديثة بمكة) ونصه: «رُويت عنه نسخة فيها عجائب، وهو صدوق».

(٧) لم أقف علىٰ هذا في ذيل الديوان، بل ذكره الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ١٨٥ (ط - دار المعرفة ببيروت) ونصه: «علي بن موسىٰ بن جعفر بن محمد الهاشمي العلوي الرضا، عن أبيه عن =

صحة الإسناد إليه رحمة الله عليه.

ومن مرويات الغزالي من نسخة المولد بالسند إليه قال[1]: أخبرنا أبو عبد الله الخُواري، أخبرنا أبو بكر الأصبهاني، أخبرنا أبو محمد ابن حيان، أخبرنا أبو بكر ابن أبي عاصم، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحِزامي، حدثنا عبد العزيز بن أبي ثابت، حدثنا الزبير بن موسىٰ، عن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك ابن مروان قال: قيل لقَبَاث بن أشيم الكِناني[2]: أنت أكبر أمْ رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر مني[3]، وأنا أسنُّ منه[4]، وُلد رسول الله ﷺ عامَ الفيل[5].

هكذا نقله عبد الغافر، قال: وتمام الكتاب في جزأين مسموعٌ له.

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير في طبقاته[6]: قرأت علىٰ شيخنا الحافظ أبي الحجاج المِزِّي قلت له: أخبرك[7] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد

= جده. قال ابن طاهر: يأتي عن أبيه بعجائب. قلت: إنما الشأن في ثبوت السند إليه، وإلا فالرجل قد كُذب عليه، ووُضعت عليه نسخة سائرة، فما كذب علىٰ جده جعفر الصادق، فروىٰ عنه أبو الصلت الهروي أحدُ المتهمين، ولعلي بن مهدي القاضي عنه نسخة، ولأبي أحمد عامر بن سليمان الطائي عنه نسخة كبيرة، ولداود بن سليمان القزويني عنه نسخة».

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢١٣.

(٢) في طبقات السبكي: سمعت عبد الملك بن مروان سأل قباث بن أشيم.

(٣) يعني قدرًا ومنزلة.

(٤) يعني أكبر مني سنًّا. وهذا من حسن الجواب؛ إذ لم يقل: أنا أكبر من رسول الله ﷺ، تأدبًا.

(٥) دلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٧ (ط - دار الكتب العلمية) وفيه أن السائل هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان. وفي ١/ ٧٨ أن السائل هو عبد الملك بن مروان، كما في رواية السبكي. وكذلك في المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ٤/ ٦٠ (ط - دار الحرمين).

(٦) طبقات الشافعية لابن كثير ٢/ ٥١٤ (ط - دار المدار الإسلامي ببيروت). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٧) في المطبوعة: قلت أخبرنا. والتصويب من طبقات ابن كثير.

الرحيم [بن عبد الواحد] المقدسي قراءةً عليه، أنبأنا أبو المظفر عبد الرحيم ابن السمعاني إذنًا، أخبرنا السيد أبو القاسم عبد الله بن محمد بن الحسين الحَسَني الكوفي قراءةً عليه، أخبرنا أبو علي الفضل بن محمد الفارَمذي، أخبرنا الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الغزالي الفقيه، أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد القطان، حدثنا أبو سعيد إسماعيل بن محمد بن عبد العزيز الخلاَّل الجُرجاني، حدثنا أبو العباس محمد بن الحسن بن قتيبة، حدثنا محمد بن أبي الليث العسقلاني، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن سليمان بن مهران، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود رضي الله عنه: حدثنا نبي الله ﷺ وهو الصادق المصدوق .... [الحديث] هكذا وقع في روايتنا، وهو حديث متفق علىٰ صحته، رواه [الجماعة في كتبهم] الستة[١] من طرق متعددة من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن خَلْق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة ...» ثم ساق الحديث.

قلت: ولي مؤاخذتان علىٰ الحافظ ابن كثير:

الأولىٰ: هذا الحديث من رواية أبي حامد الغزالي الكبير، وهو عم أبي حامد صاحب الترجمة، فكيف يورده في عداد مرويات حجة الإسلام؟! ومن الدليل علىٰ ذلك أن هذا اسمه أحمد، وحجة الإسلام اسمه محمد. وثانيًا، فإن أبا علي الفارمذي شيخ حجة الإسلام لا تلميذه.

والثانية: أورد في السند محمد بن أبي الليث العسقلاني، وهو غلط صوابه: محمد بن أبي السري.

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٤٢٤، صحيح مسلم ٢/ ١٢٢٠، سنن أبي داود ٥/ ٢٣١، سنن الترمذي ٣/ ١٥، السنن الكبرىٰ للنسائي ١٠/ ١٣٠، سنن ابن ماجه ١/ ٩٩.

والحديث المذكور خرَّجه الحافظ ابن حجر في جزء مستقل.

ثم قال ابن كثير[١]: وبالإسناد المتقدم إلىٰ الغزالي، حدثنا أحمد بن محمد بن عمر الخفَّاف، حدثنا أبو العباس السَّرَّاج، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا أبو الوليد، حدثنا أبو عوانة، عن هلال الوزَّان [عن عروة] عن عائشة ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ [في مرضه الذي لم يقُم منه]: «لعن الله اليهود والنصارىٰ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ...» الحديث[٢]. قال شيخنا المِزِّي: كذا وقع في سماعنا، ليس بين أبي حامد وبين الخفاف أحدٌ، وهو خطأ قد سقط منه شيء.

قلت: وهذا كذلك من رواية عمِّ حجة الإسلام، وهو يروي عن الخفاف بلا واسطة، ولم يسقط من الإسناد شيء، وإنما يكون ذلك إذا ادُّعي أنه من رواية حجة الإسلام، وليس كذلك.

* * *

(١) طبقات الشافعية لابن كثير ٢/ ٥١٥. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) ذكر ابن كثير بعده قول عائشة ﵂: لولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يُتخذ مسجدًا. والحديث أخرجه البخاري ١/ ٤٠٨، ومسلم ١/ ٢٣٩.

الفصل الخامس عشر: في ذكر شيء من كلماته المنثورة البديعة مما نقلتُها من طبقات المناوي[١] وغيرها

قال رحمه الله[٢]: الدنيا مزرعة الآخرة، وهي منزل من منازل الهدىٰ، وإنما سُميت دنيا لأنها أدنىٰ المنزلتين.

وقال رحمه الله: ربما وجد بعضهم في نفسه أُنسًا وتقريبًا في عبادته ومجلسه فظن أن بها يُغفر لجميع مَن حضره فضلاً عنه، ولو أنه تعالىٰ عامله بما يستحقه علىٰ سوء أدبه في ذلك لأهلكه [ومَن حوله].

وقال رحمه الله[٣]: إنما يعرف كلُّ سالك المنزل[٤] الذي يبلغه في سلوكه [فيعرفه ويعرف] ما خلفه من المنازل، وأما ما بين يديه فلا يحيط بحقيقته علمًا، لكن[٥] قد يصدِّق به إيمانًا بالغيب.

وقال رحمه الله[٦]: أنوار العلوم لم تُحجب عن القلوب لبخل ومنعٍ من جهة المنعم تعالىٰ عن ذلك، بل لخبث وكدورة وشغل من جهة القلوب؛ فإنها[٧] كالأواني ما دامت مملوءة بالماء لا يدخلها الهواء، والقلب المشغول بغير الله لا تدخله المعرفة بجلاله.

---

(١) طبقات المناوي ١/ ٧٠٧ - ٧١٢. وغالب هذه الأقوال في الإحياء. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) في المطبوعة: إنما تفرق كل سالك بالمنزل. وفي الإحياء: منزله. والمثبت من طبقات المناوي.

(٥) في المطبوعة وطبقات المناوي: بل. والمثبت من الإحياء.

(٦) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٧) يعني القلوب.

وقال رحمه الله[١]: أشرف أنواع العلمِ العلمُ بالله عَزَّوَجَلَّ وصفاته وأفعاله، فبه[٢] كمال الإنسان، وفي كمالِه سعادتُه وصلاحُه لجوار حضرة الجلال والكمال.

وقال رحمه الله[٣]: جلاء القلب وإبصاره[٤] يحصل بالذِّكر، ولا يتمكن منه إلا الذين اتقوا، فالتقوىٰ باب الذكر، والذكر باب الكشف، والكشف باب الفوز الأكبر.

وقال رحمه الله[٥]: مَن ارتفع الحجاب بينه وبين قلبه[٦] تجلَّىٰ له المُلك والملكوت في قلبه، فيرىٰ جنة عرض بعضها[٧] السموات والأرض.

وقال رحمه الله[٨]: عالم الملكوت هو الأسرار الغائبة[٩] عن مشاهدة الأبصار المخصوصة بإدراك البصر[١٠]، وجملة عالَم المُلك والملكوت [إذا أُخذت دفعة واحدة] تسمىٰ: الحضرة الربوبية؛ لأنها[١١] محيطة بكل الموجودات؛ إذ ليس في الوجود سوىٰ الله وأفعاله، ومملكته وعبيده من أفعاله.

---

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٢) في المطبوعة وطبقات المناوي: وفيه. والمثبت من الإحياء.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) في المطبوعة: جلاء القلوب والأبصار. والمثبت من طبقات المناوي والإحياء.

(٥) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٦) في الإحياء: وبين الله.

(٧) في المطبوعة: عرضها. والمثبت من طبقات المناوي والإحياء.

(٨) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٩) في المطبوعة: المشاهدة. والتصويب من الإحياء.

(١٠) في الإحياء: البصائر.

(١١) في الإحياء: لأن الحضرة الربوبية.

وقال رحمه الله[١]: مراد[٢] الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب وتزكيته [ومراد تزكيته حصول أنوار الإيمان فيه، أعني] إشراق نور المعرفة.

وقال رحمه الله[٣]: الإيمان [له] ثلاث مراتب، الأولىٰ: إيمان العوام، وهو إيمان التقليد المحض، والثانية: إيمان المتكلمين، وهو ممزوج بنوع استدلال، والثالثة: إيمان العارفين، وهو المشاهَد بنور اليقين.

وقال رحمه الله[٤]: ظنُّ مَن يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن ظنٌّ صادر عن عمًىٰ في عين البصيرة، نعوذ بالله منه .... والعلوم العقلية [تنقسم إلىٰ] دنيوية وأخروية، فالدنيوية كالطب والحساب والنجوم والحِرَف والصنائع، والأخروية كعلم أحوال القلب وآفات الأعمال والعلم بالله وصفاته وأفعاله، وهما علمان متناقضان، أعني [أن] مَن صرف عنايته إلىٰ أحدهما حتىٰ تعمَّق فيه قصرت بصيرتُه عن الآخر علىٰ الأكثر.

وقال رحمه الله[٥]: مهما سمعتَ أمرًا غريبًا من أمور الدين جحده أهل الكياسة من سائر العلوم فلا ينفرنَّك[٦] جحودهم عن قبولها؛ إذ محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما في الغرب.

وقال رحمه الله[٧]: تهب رياح الألطاف فتكشف الحُجُب عن أعين القلوب

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٢) في المطبوعة: مدار. والمثبت من الإحياء.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٥) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٦) في الإحياء: فلا يغرنَّك.

(٧) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

فيتجلَّىٰ لها بعض ما هو مسطور في اللوح المحفوظ.

وقال رحمه الله[١]: ميلُ أهل التصوف إلىٰ العلوم الإلهامية دون التعليمية، ولذلك لم يحرصوا علىٰ دراسة العلم وتحصيل ما صنَّف المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلَّة.

وقال رحمه الله[٢]: ليس الورع في الجبهة حتىٰ تقطب ولا في الخد حتىٰ يصفر، ولا في الظهر حتىٰ ينحني، ولا في الرقبة حتىٰ تطأطأ، ولا في الذيل حتىٰ يضم، إنما الورع في القلوب، أما مَن تلقاه ببِشر فيلقاك بعبوس يمنُّ عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين من مثله.

وقال رحمه الله[٣]: قلب المؤمن لا يموت، وعلمه عند الموت لا ينمحي، وصفاؤه لا يتكدر، وإليه أشار الحسن بقوله: التراب لا يأكل محل الإيمان، إما ما حصَّله من نفس العلم أو ما حصله من الصفاء والاستعداد لقبوله.

وقال رحمه الله[٤]: العلم الباطن سر من أسرار الله تعالىٰ يقذفه في قلوب أحبابه.

وقال رحمه الله[٥]: القرآن مصرِّح بأن التقوىٰ مفتاح الهداية والكشف، وذلك علمٌ من غير تعلُّم.

---

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٢) الإحياء: كتاب ذم الكبر والعُجب.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب. وليس من قول الغزالي، بل نقله عن بعض العلماء.

(٥) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

وقال رحمه الله[١]: العلم اللدني الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف[٢] من خارج.

وقال رحمه الله[٣]: إذا خطرَ في القلب ذِكر شيء انعدم عنه ما كان فيه من قبل.

وقال[٤]: أعظم أنواع علوم المعاملة الوقوف علىٰ خِدَع النفس ومكائد الشيطان، وذلك فرض عين علىٰ كل عبد[٥]، وقد أهمله الخلق واشتغلوا[٦] بعلوم تجرُّ إليهم الوسواس وتُسلِّط عليهم الشيطان.

وقال رحمه الله[٧]: مهما رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتآنسون فاعلم أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم خاسرون.

وقال رحمه الله[٨]: كل مَن ادَّعىٰ مذهب إمام ولا يسير بسيرته فذلك الإمام خصمه [يوم القيامة إذ] يقول له: كان مذهبي العمل دون الحديث باللسان، وكان الحديث باللسان لأجل العمل لا للهذيان، فما بالك خالفتني في العمل والسيرة التي هي مذهبي [ومسلكي] الذي سلكتُه وذهبت فيه إلىٰ الله ثم ادعيتَ مذهبي كاذبًا. فهذا مدخل [عظيم] من مداخل الشيطان أهلك به أكثرَ العالَم.

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.
(٢) في المطبوعة: سبب ما نوىٰ. والتصويب من الإحياء.
(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.
(٤) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.
(٥) في المطبوعة: جسد. والتصويب من الإحياء.
(٦) في المطبوعة: واستقلوا. والتصويب من الإحياء.
(٧) الإحياء: كتاب ذم الجاه والرياء.
(٨) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

وقال رحمه الله[1]: أشد الناس حماقة أقواهم اعتقادًا في فضل نفسه، وأثبت الناس عقلاً أشدهم اتهامًا لنفسه.

وقال رحمه الله[2]: العامي إذا زنىٰ أو سرق خير له من أن يتكلم في العلم؛ فإنه مَن تكلم فيه من غير إتقان العلم في الله وفي دينه وقع في الكفر من حيث لا يدري، كمَن ركب في [لُجَّة] البحر ولا يعرف السباحة.

وقال رحمه الله[3]: أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم مَن لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعضهم بعين الرضا، وبعضهم بعين السخط

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

وقال رحمه الله[4]: مهما رأيتَ إنسانًا يسيئ الظن بالناس[5] طالبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث في الباطن ... والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

وقال رحمه الله[6]: حقيقة الذِّكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارته[7] بالتقوىٰ وتطهيره من الصفات المذمومة، وإلا فيكون الذكر حديث نفس ولا سلطان له علىٰ القلب، ولا يدفع [سلطان] الشيطان.

وقال رحمه الله[8]: الروح أمرٌ رباني ... ومعنىٰ كونه ربانيًّا أنه من أسرار علوم

---

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٢) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٥) في المطبوعة: سيئ الظن بالله. والتصويب من الإحياء.

(٦) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٧) في الإحياء: عمارة القلب.

(٨) الإحياء: كتاب ذم الجاه والرياء.

المكاشفة، ولا رخصة في إظهاره؛ إذ لم يُظهِره الرسول ﷺ.

وقال رحمه الله[١]: الشهوة إذا غلبت على القلب [دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب] فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويدائه، وأما القلوب الخالية من الصفات المذمومة فيطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوِّها بالغفلة عن الذكر، فإذا عاد للذكر خنس.

وقال رحمه الله[٢]: كما أنك تدعو ولا يُستجاب لك لفقد شرط الدعاء فكذا تذكر الله ولا يهرب الشيطان لفقد شروط الذكر.

وقال رحمه الله[٣]: الشياطين جنود مجندة، ولكل نوع من المعاصي شيطان يخصه ويدعو إليه.

وقال رحمه الله[٤]: الصورة في عالم الملكوت تابعة للصفة، فلا يرى المعنى القبيح إلا في الصورة القبيحة، فيرى الشيطان في صورة نحو الكلب والضفدع والخنزير، والمَلَك في صورة جميلة، فتكون تلك الصورة عنوان المعاني ومحاكية لها بالصدق، ولذلك يدل القرد والخنزير في النوم على إنسان خبيث، والشاة على إنسان سليم الباطن، وكذا كل أنواع التعبير.

وقال رحمه الله[٥]: خالص الرياضة وسرها أن لا تتمتع النفس بشيء لا يوجد في القبر إلا بقدر الضرورة، فيقتصر من أكله ونكاحه ولباسه ومسكنه على

---

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٢) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٣) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٤) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

(٥) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

قدر الحاجة والضرورة؛ فإنه لو تمتع بشيء منه أَلِفَه، وإذا مات تمنىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا، ولا يتمنىٰ الرجوع إليها إلا مَن لا حظ له في الآخرة.

وقال رحمه الله[١]: النفس إذا لم تُمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات.

وقال رحمه الله[٢]: المستقل بنفسه من غير شيخ كشجرة تنبت بنفسها؛ فإنها تجف عن قرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر.

وقال رحمه الله[٣]: النوم يقسي القلب ويميته، إلا إذا كان بقدر الضرورة، فيكون سببا لمكاشفة أسرار الغيب.

وقال رحمه الله[٤]: لا بد للسالك من ضبط الحواس إلا من قدر الضرورة، وليس [يتم] ذلك إلا بالخلوة في مكان مظلم، فإن لم يكن فليلف رأسه في الجيب، أو يتدثَّر بكساء أو إزار [ففي] مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق، ويشاهد جلال حضرة الربوبية، أما ترىٰ أن نداء المصطفىٰ ﷺ بلغه وهو بهذه الصفة فقيل: يا أيها المدثر، يا أيها المزمل.

وقال رحمه الله[٥]: البطن والفرْج باب من أبواب النار، وأصله الشِّبَع، والذل والانكسار باب من أبواب الجنة، وأصله الجوع، ومَن أغلق بابًا من أبواب النار فقد فتح بابًا من أبواب الجنة؛ لتقابُلهما، فالقرب من أحدهما بُعدٌ عن الآخر

(١) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

(٢) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

(٣) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

(٤) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

(٥) الإحياء: كتاب كسر الشهوتين.

وقال رحمه الله[١]: السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

وقال رحمه الله[٢]: الشبع يمنع العبادة وإشراق القلب والفكر، وينغِّص العيش، والجوع يدفع ذلك كله؛ لأن قلة الأكل تصحح البدن، وبكثرته تحصل فضلةُ الأخلاط في المعدة والعروق.

وقال رحمه الله[٣]: حدُّ المِراء كلُّ اعتراض علىٰ كلام الغير بإظهار خلل فيه، والمجادلة قصدُ إفحامِ الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلىٰ القصور والجهل فيه.

وقال رحمه الله[٤]: مَن عوَّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم، فلذة هذا في [مطالعة] عجائب الملكوت علىٰ الدوام أعظم من لذة من ينظر إلىٰ أشجار[٥] الجنة وبساتينها بالعين الظاهرة، هذا حالهم وهم في الدنيا فما الظن بهم عند انكشاف الغطاء في العقبىٰ؟!

وقال رحمه الله[٦]: إن كنت لا تشتاق إلىٰ معرفة الله فأنت معذور، فالعِنِّين لا يشتاق إلىٰ لذة الوقاع، والصبي لا يشتاق للمُلك، والشوق بعد الذوق، ومن لم يذُق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتَقْ، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي من المحرومين في أسفل سافلين.

---

(١) الإحياء: كتاب كسر الشهوتين.

(٢) الإحياء: كتاب كسر الشهوتين.

(٣) الإحياء: كتاب آفات اللسان.

(٤) الإحياء: كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(٥) في المطبوعة: أثمار. والمثبت من الإحياء.

(٦) الإحياء: كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

وقال رحمه الله[١]: مَن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدين لم يفتْه ثواب حبه لهم مهما أحب ذلك.

وقال رحمه الله[٢]: الحسد ليس مَظلمة يجب الاستحلال منها بل معصية بينك وبين الله، وإنما يجب الاستحلال مما يجب على الجوارح.

وقال رحمه الله[٣]: دنياك وآخرتك عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك، فالقريب[٤] الداني منهما يسمىٰ دنيا، وهي كلها قبل الموت، والمتأخر يسمىٰ آخرة، وهي ما بعده، وكل ما لك فيه حظ وشهوة عاجلة قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك.

وقال رحمه الله[٥]: لا يبقىٰ مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني طهارته من أدناس الدنيا، وأُنسه بذكر الله، وحبه لله، وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكف عن شهوات الدنيا، والأنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر.

وقال رحمه الله[٦]: ليس الموت عدمًا، وإنما هو الفراق لمحاب ألفه للقدوم.

وقال رحمه الله[٧]: معنىٰ الربوبية: التوحد بالكمال والتفرُّد بالوجود علىٰ سبيل الاستقلال ... والمنفرد بالوجود هو الله؛ إذ لا موجود معه سواه؛ فإن ما سواه أثر من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم به.

---

(١) الإحياء: كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(٢) الإحياء: كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(٣) الإحياء: كتاب ذم الدنيا.

(٤) في المطبوعة: فالطرف. والمثبت من الإحياء.

(٥) الإحياء: كتاب ذم الدنيا.

(٦) الإحياء: كتاب ذم الدنيا.

(٧) الإحياء: كتاب ذم الجاه والرياء.

وقال رحمه الله[١]: من لم يطلع علىٰ مكائد الشيطان وآفات النفوس فأكثر عبادته تعب ضائع، تفوت عليه الدنيا، ويخسر في الآخرة.

وقال رحمه الله[٢]: الكِبْر دليل الأمن، والأمن مُهلِك، والتواضع دليل الخوف، وهو مُسعِد.

وقال رحمه الله[٣]: من أدوية الكِبْر أن يجتمع مع أقرانه[٤] في المحافل ويقدِّمهم ويجلس تحتهم، وللشيطان هنا مكيدة وهو أن يقعد في صف النعال، أو يجعل بينه وبين أقرانه بعض الأرذال فيظن أنه متواضع وهو عين الكبر؛ لإيهامه أنه ترك مكانه بالاستحقاق، فيكون تكبرًا بإظهار التواضع، بل يقدِّم أقرانه ويجلس تحتهم، ولا ينحط إلىٰ صف النعال.

وقال رحمه الله[٥]: أساس السعادات كلها العقل والكياسة والذكاء ... وصحة غريزة العقل نعمة من الله في أصل الفطرة، فإذا فاتت ببلادة أو حماقة فلا تدارُك لها.

وقال رحمه الله[٦]: كن من شياطين الجن في الأمان، واحذر شياطين الإنس؛ فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الإغواء والإضلال.

وقال رحمه الله[٧]: ما من أحد إلا وهو راضٍ عن الله في كمال عقله، وأشدهم

---

(١) الإحياء: كتاب ذم الجاه والرياء.

(٢) الإحياء: كتاب ذم الكبر والعُجب.

(٣) الإحياء: كتاب ذم الكبر والعجب.

(٤) في طبقات المناوي: إخوانه.

(٥) الإحياء: كتاب ذم الغرور.

(٦) الإحياء: كتاب العلم.

(٧) الإحياء: كتاب العلم.

حماقة وأضعفهم عقلاً أفرحُهم بكمال عقله.

وقال رحمه الله[١]: علماء الآخرة يُعرفون بسيماهم من السكينة والذلة والتواضع ... أما التشدُّق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فمن آثار البطر والغفلة، وذلك من دأب أبناء الدنيا.

وقال رحمه الله: من شرط مَن له حاجة أن لا يفطر ذلك النهارَ حتىٰ تُقضىٰ ولو عند الغروب.

قال بعضهم: وقد جرَّبناه فصح؛ لأن الإنسان إذا شبع فدعاؤه كسهمٍ يخرج من غير وتر مشدود.

وقال رحمه الله: من الذنوب ما يورث سوء الخاتمة وهو ادعاء الرجل الولايةَ مع فقدها منه.

وقال رحمه الله: ليس كل أحد له قلب.

وقد سُئل عن تفسير هذا القولِ القطبُ عبد الله با حداد شيخ بعض شيوخنا، فأجاب بما فيه غاية التحقيق، تركتُه لطوله، وهو مذكور في آخر كتاب «القصد والسداد».

وله رحمه الله دعاء عجيب الشأن[٢]، جرَّبه أهل العرفان عند حلول الفاقة، وهو هذا: اللهم يا غني[٣]، يا حميد، يا مبدئ، يا معيد، يا رحيم، يا ودود، أغنني بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك. قال: مَن ذكره بعد

(١) الإحياء: كتاب العلم.

(٢) الإحياء: كتاب أسرار الصلاة ومهماتها.

(٣) في طبقات المناوي: يا علي.

صلاة الجمعة وداوم عليه أغناه الله عن خلقه، ورزقه من حيث لا يحتسب.

ورُؤي[1] رحمه الله في النوم فسُئل عن حاله فقال: لولا هذا العلم الغريب لكنا علىٰ خير كثير.

قال ابن عربي: فتأوله علماء الرسوم علىٰ ما كان عليه من علم هذا الطريق، وقصد إبليس بهذا الطريق[2] الذي زيَّنه لهم أن يُعرِضوا عن هذا العلم فيُحرموا هذه الدرجات، أتراه أمره بأن يطلب الحجاب عن الله تعالىٰ؟

* * *

(١) الفتوحات المكية لمحيي الدين ابن عربي ٩/ ٣٤٧ (ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(٢) في الفتوحات: بهذا التأويل.

الفصل السادس عشر: في بيان شيء من الشعر المنسوب له، وما أنشده لنفسه

قال ابن السبكي[1]: أخبرنا الحافظ أبو العباس الأشعري إذنًا خاصًّا، عن أبي الفضل أحمد بن هبة الله بن عساكر، عن أبي المظفر عبد الرحيم، أخبرنا والدي الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، أنشدنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس الخليلي إملاءً بنوقان[2] في الجامع، أنشدنا الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله:

ارفه ببال امرئ يمسي على ثقة ... أن الذي خلق الأرزاق يرزقه
فالعِرض منه مصونٌ لا يدنِّسه ... والوجه منه جديد ليس يُخْلِقُه
إن القناعة مَن يَحْلُل بساحتها ... لم يلقَ في دهره شيئًا يؤرِّقه

قال: وكتب إليَّ أحمد بن أبي طالب المسند، عن الحافظ أبي عبد الله محمد ابن محمود، عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الزهري، أنشدني أبو محمد عبد الحق بن عبد الملك [بن بونة][3] العبدري، أنشدني أبو بكر ابن العربي، أنشدني أبو حامد الغزالي لنفسه، رحمة الله عليه:

سَقَمي في الحب عافيتي ... ووجودي في الهوى عدمي
وعذاب ترتضون به ... في فمي أحلى من النِّعم

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٢١.

(٢) ضبطها ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣١١ بضم النون وقال: إحدى قصبتَي طوس، وفيها تُنحت القدور البُرام.
أما ابن الأثير فضبطها في لباب الأنساب ٣/ ٣٣٢ بفتح النون.

(٣) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة، وفي طبقات السبكي: مويه.

ما لضرٍّ في محبتكم عندنا واللهِ من ألم

ومما يُنسب للإمام الغزالي أنه قال في أيام سياحته[١]:

قد كنت عبدًا والهوىٰ مالكي فصرتُ حرًّا والهوىٰ خادمي
وصرت بالوحدة مستأنِسًا من شر أصناف بني آدم
ما في اختلاط الناس خيرٌ ولا ذو الجهل بالأشياء كالعالِم
يا لائمي في تركهم جاهلاً عذري منقوش علىٰ خاتمي[٢]

وكان نقش خاتمه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وبالسند[٣] إلىٰ الحافظ أبي عبد الله قال: قرأت علىٰ أبي القاسم بن أسعد البزار، عن يوسف بن أحمد الحافظ، أنشدنا محمد بن أبي عبد الله الجوهري قال: أنشدنا لأبي حامد الغزالي رحمه الله[٤]:

فقهاؤنا كذُبالة النِّبراس هي في الحريق وضَوْءُها للناس
خُبْرٌ دميم تحت رائقِ منظرٍ كالفضة البيضاء فوق[٥] نُحاس

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب للحسن بن مسعود اليوسي المغربي ١/ ٢٩٧ (ط - دار الغرب الإسلامي).
وأورد المناوي في فيض القدير ٣/ ٤٨١ (ط - دار المعرفة ببيروت) البيتين الأخيرين، وذكر أنهما وُجدا تحت وسادة الغزالي.
(٢) في المطبوعة: الخاتم. والمثبت من محاضرات اليوسي وفيض القدير.
(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٢.
(٤) البيتان في الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ١/ ٢١٣ (ط - دار إحياء التراث العربي ببيروت).
(٥) في الوافي بالوفيات: تحت.

وقال ابن السبكي أيضًا[١]: أخبرنا علي بن الفضل الحافظ، أنشدني أبو محمد عبد الله بن يوسف الأُنْدي[٢]، أنشدني أمية بن أبي الصلت، أنشدني أبو محمد التّكريتي، أنشدني أبو حامد الغزالي لنفسه[٣]:

حلَّت عقارب صُدغه في[٤] خدِّه[٥] قمرًا فجلّ بها عن التشبيه
ولقد عهدناه يحُلُّ ببرجها ومن العجائب كيف حلَّت فيه

وذكر ابن السمعاني في الذيل والعماد في الخِرِّيدة[٦] له[٧]:

حلت عقارب صدغه في خده[٨] وحظيت منه بلَثْم خد أزهر
إني اعتزلت فلا تلوموا إنه أضحىٰ يقابلني بوجه أشعري

قلت: ولشيخنا السيد القطب عبد الرحمن بن السيد مصطفىٰ العيدروس - أمتع اللهُ به - في هذا المعنىٰ بيت واحد، وهو مما سمعناه من لفظه، وكتبتُه عنه بالطائف، وقد أجاد:

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٣.

(٢) في المطبوعة: الأيدي. والتصويب من طبقات السبكي.
والأندي نسبة إلىٰ أندة، وهي مدينة بالأندلس.

(٣) البيتان في الوافي بالوفيات ١/ ٢١٢. ووفيات الأعيان ٤/ ٢١٨. وخريدة القصر للعماد الأصبهاني الكاتب ٩/ ٦٤ (ط - مرآة التراث بطهران).

(٤) في طبقات السبكي والخريدة: من.

(٥) في الوافي بالوفيات: وجهه.

(٦) لم أقف علىٰ هذين البيتين في ترجمته من الخريدة، وإنما ذكر له البيتين السابقين فقط.

(٧) البيتان في الوافي بالوفيات ١/ ٢١٢. ووفيات الأعيان ٤/ ٢١٨. وطبقات الإسنوي ٢/ ١١١.

(٨) كذا ورد صدر هذا البيت في المطبوعة، ولعله سهو من المؤلف رحمه الله، وإنما هو - كما في المصادر السابقة -:
هبني صبوت كما ترون بزعمكم

وقيل لِمَ اعتزلتَ فقلتُ لما يقابلني بوجه أشعري

ومما أنشده الغزالي ببغداد في أثناء درس الإحياء ورواه عنه أبو سعيد النوقاني الآتي ذِكره في الرواية عنه:

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الفؤاد هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

قال: فبكىٰ وأبكىٰ الحاضرين(١).

ورآه بعضهم(٢) في البرِّية عليه مرقَّعة، وبيده ركوة وعكاز بعد أن كان رآه يحضر في مجلسه ثلاثمائة مدرس ومائة من أمراء بغداد، فقال: يا إمام، أليس تدريس العلم أَولىٰ؟ فنظر إليه شزرًا وقال: لما بزغ بدر السعادة في فلك الإرادة جنحت شمس الأفول إلىٰ مغرب الوصول. وأنشد:

تركت هوىٰ ليلىٰ وسُعْدَىٰ بمعزل وعدتُ إلىٰ مصحوب(٣) أول منزل
فنادت بي الأشواق مهلاً فهذه منازل مَن تهوَىٰ رويدك فانزلِ(٤)

(١) تقدمت هذه الحكاية في الفصل التاسع.

(٢) قال ابن العماد الحنبلي: «ذكر الشيخ علاء الدين علي ابن الصيرفي في كتابه زاد السالكين أن القاضي أبا بكر ابن العربي قال: رأيت الإمام الغزالي في البرية، وبيده عكازة، وعليه مرقعة، وعلىٰ عاتقه ركوة، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر مجلس درسه نحو أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم. قال: فدنوت منه، وسلَّمت عليه، وقلت له: يا إمام، أليس تدريس العلم ببغداد خير من هذا؟ فنظر إليَّ شزرًا وقال: لما طلع بدر السعادة في فلك الإرادة – أو قال: سماء الإرادة – وجنحت شمس الوصول في مغارب الأصول ...» ثم ذكر الأبيات.
شذرات الذهب في خبر من ذهب ٦/ ٢٢ (ط – دار ابن كثير بدمشق).

(٣) في الشذرات: تصحيح.

(٤) زاد في الشذرات بيتا ثالثا وهو:

ومما يُنسب إليه هذه الأبيات في أسرار الفاتحة، رحمة الله عليه[1]:

إذا ما كنت ملتمسًا لرزق ... ونيل[2] القصد من عبد وحر
وتظفر بالذي ترجو[3] سريعًا ... وتأمن من مخالفة وغدر
ففاتحة الكتاب فإن فيها ... لما أمّلت سرًّا أي سر
فالزمْ ذكرها عقبىٰ مساء[4] ... وفي صبح وفي ظهر وعصر[5]
وتمسي مقرئًا في كل ليل[6] ... إلىٰ التسعين تتبعها بعشر
تنلْ ما شئت من عز وجاه ... وعِظَم مهابة وعلو قدر
وستر[7] لا تغيِّره الليالي ... بحادثة من النقصان تجري
وتوقير[8] وأفراح دوامًا ... وتأمن من مخاوف[9] كل شر[10]

غزلتُ لهم غزلاً دقيقًا فلم أجد ... لغزلي نسَّاجًا فكسَّرتُ مِغزلي

(١) تُنسب هذه الأبيات أيضًا إلىٰ سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم أقف عليها في ديوانه المطبوع. وقد أوردها أحمد بن علي البوني في كتاب: شمس المعارف ولطائف العوارف ١/ ٧٥ (ط - مصر) نقلا عن كتاب «كنز المقربين» لابن سبعين الإشبيلي منسوبة إلىٰ سيدنا علي.

(٢) في شمس المعارف: ونجح.

(٣) في شمس المعارف: تهوىٰ.

(٤) في شمس المعارف: فلازم درسها عقبىٰ عشاء.

(٥) في شمس المعارف: وظهر ثم عصر.

(٦) في شمس المعارف: ولازمها بمغرب كل ليل.

(٧) في شمس المعارف: وعز.

(٨) في شمس المعارف: وتوفيق.

(٩) في شمس المعارف: تكالة.

(١٠) بعده في شمس المعارف بيت آخر وهو:

ولا تحتجْ إلىٰ أحد بشيء ... ولا تُفجع بمكروه وقسر

ومـن عُـري وجـوع وانقطـاع ومـن بطـش لـذي نهـي وأمـر[١]

---

(١) بعده في شمس المعارف بيتان آخران وهما:

تصان وتبلغ الآمال حقًّا على طول المدىٰ في كل دهر

فإنك إن فعلت أتاك آتٍ بما يغنيك عن زيد وعمرو

❊ ❊ ❊

الفصل السابع عشر: في بيان بعض ما اعتُرض عليه والجواب عنه

قال الفخر ابن عساكر[١]: ومما كان يُعترض به عليه: وقوع خلل من جهة النحو يقع في أثناء كلامه، وروجعَ فيه فأنصف من نفسه، واعترف بأنه ما مارس ذلك الفن، واكتفىٰ بما [كان][٢] يحتاج إليه في[٣] كلامه، مع أنه كان يؤلف الخُطَب ويشرح الكتب بالعبارات الرائقة التي تعجز الأدباء والفصحاء عن أمثالها، وأذن للذين يطالعون كتبه فيعثرون علىٰ خلل فيها من جهة اللفظ أن يصلحوه ويعذروه، فما كان قصدُه إلا المعاني وتحقيقها دون الألفاظ وتلفيقها.

ومما نُقم عليه ما ذكر من الألفاظ المستبشعة بالفارسية في كتابه «كيمياء السعادة والعلوم»، وشرح بعض الصور[٤] والمسائل بحيث لا يوافق مراسم الشرع وظواهر ما عليه قواعد الإسلام، وكان الأَولىٰ [به][٥] - والحق أحق أن يقال[٦] - ترك ذلك التصنيف، والإعراض عن الشرح به؛ فإن العوام ربما لا يُحكِمون أصول القواعد بالبراهين والحجج، فإذا سمعوا شيئًا من ذلك تخيَّلوا منه ما هو المضرُّ بعقائدهم، وينسبون ذلك إلىٰ[٧] مذاهب الأوائل. علىٰ أن المنصف اللبيب إذا رجع إلىٰ نفسه علم أن أكثر ما ذكره مما رمز إليه إشارات الشرع وإن لم يَبُح به، ويوجد أمثاله في كلام مشايخ الطريقة مرموزة ومصرَّحًا بها متفرقة، وليس لفظ

---

(١) أورده السبكي في طبقاته ٦/ ٢١١ ضمن كلام عبد الغافر الفارسي عنه.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) في المطبوعة: من. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) في طبقات السبكي: السور.

(٥) زيادة من طبقات السبكي.

(٦) في المطبوعة: ما يقال. والمثبت من طبقات السبكي.

(٧) في طبقات السبكي: إلىٰ بيان.

منه إلا وكما يُشعِر أحدُ وجوهه بكلام موهِم فإنه يُشعِر سائر وجوهه بما يوافق عقائد أهل الملة، فلا يجب إذًا حملُه إلا علىٰ ما يوافق، ولا ينبغي أن يتعلق به في الرد عليه متعلقٌ إن أمكنه أن يبيِّن له وجهًا في الصحة يوافق الأصول. علىٰ أن هذا القَدْر يحتاج إلىٰ مَن يُظهِره ويقوم به، وكان الأَولىٰ أن يترك الإفصاح بذلك[١]. والله أعلم.

هذا ما يتعلق بالطعن عليه مجملاً في سائر كتبه.

وكذلك أنكر عليه ابن الصلاح[٢] علىٰ قوله في أول «المستصفىٰ»[٣]: هذه مقدمة العلوم كلها، ومَن لا يحيط بها فلا ثقة له بمعلومه أصلاً.

وقد نحا منحاه ابنُ القيم في «مفتاح دار السعادة»[٤] وأقام النكير عليه وعلىٰ مَن يقول بعلم المنطق مما سيأتي بعضه في الباب الثاني[٥]، وقد أجاب عنه التقي السبكي وأوسعَ فيه مما نقله عنه ولده التاج في الطبقات[٦]، فراجعْه.

وأما ما يتعلق بكتابه الإحياء فسيأتي كلام المنكرين عليه والجواب عنه عند ذكر هذا الكتاب في مصنفاته.

* * *

(١) بعده في طبقات السبكي: «وليس كما يتقرر ويتمشىٰ لأحد تقريرُه ينبغي أن يظهره، بل أكثر الأشياء مما يدرَىٰ ويطوَىٰ ولا يُحكىٰ، فعلىٰ ذلك درج الأولون وعبر السلف الصالحون إبقاءً علىٰ مراسم الشرع، وصيانة لمعالم الدين عن طعن الطاعنين وعيرة المارقين الجاحدين».

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١/ ٢٥١ - ٢٥٣ (ط - دار البشائر الإسلامية ببيروت)

(٣) المستصفىٰ من علم الأصول للغزالي ١/ ٣٠ (تحقيق: حمزة بن زهير حافظ).

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية ١/ ٤٨٣ - ٤٨٥ (ط - دار ابن عفان).

(٥) من كتاب العلم من الإحياء وهو في بيان العلم المحمود والمذموم.

(٦) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٣ - ٢٥٧. وسيأتي كلام السبكي في الفصل التاسع عشر.

الفصل الثامن عشر: في بيان كونه مجدداً للقرن الخامس

ولنذكر أولاً الحديث الذي استنبط منه العلماء التجديد.

روىٰ أبو داود في الملاحم[١] والحاكم في الفتن[٢] - وصححه - والبيهقي في كتاب «المعرفة» له[٣]، كلهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه: «إن الله تعالىٰ يبعث لهذه الأمَّة علىٰ رأس كل مائة سنة مَن يجدِّد لها أمر دينها». قال العراقي وغيره: سنده صحيح. أي: يقيِّض لها علىٰ رأس كل مائة من الهجرة أو غيرها رجلاً كان أو أكثر مَن يبيِّن السُّنة من البدعة، ويُكثِر العلمَ، وينصر أهله، ويُذِل أهل البدعة.

قالوا[٤]: ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة. فكان في المائة الأولىٰ عمر بن عبد العزيز، والثانية الشافعي، والثالثة الأشعري أو ابن سريج، والرابعة الأسفراييني أو الصُّعلوكي أو الباقلاني، والخامسة حجة الإسلام الغزالي.

وقال ابن السبكي[٥]: يتعين عندي تقديم ابن سريج في الثالثة علىٰ الأشعري؛ فإن الأشعري وإن كان أيضًا شافعي المذهب إلا أنه رجل متكلم، كان قيامه للذب عن أصول العقائد دون فروعها، وكان ابن سريج [رجلا][٦] فقيهًا، وقيامه للذبِّ عن فروع هذا المذهب، فكان أولىٰ بهذه المرتبة[٧] لا سيما ووفاة الأشعري تأخرت

(١) سنن أبي داود ٥/ ٣٥.

(٢) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٦٩٤ (ط - دار الحرمين).

(٣) معرفة السنن والآثار للبيهقي ١/ ٢٠٨ (تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي).

(٤) فيض القدير ٢/ ٢٨٢.

(٥) طبقات السبكي ١/ ٢٠٠.

(٦) زيادة من طبقات السبكي.

(٧) في طبقات السبكي: المنزلة.

عن رأس القرن إلىٰ بعد العشرين، وقد صح[١] أن هذا الحديث ذُكر في مجلس [أبي العباس][٢] ابن سريج، فقام شيخ من أهل العلم فقال: أبشِرْ أيها القاضي؛ فإن الله بعث علىٰ رأس المائة عمر بن عبد العزيز، وعلىٰ الثانية الشافعي، وبعثك علىٰ رأس الثلاثمائة. ثم أنشأ يقول:

اثنان قد مضيا فبورك فيهما ... عمر الخليفة ثم حِلف السُّؤدد

الشافعي الألمعي[٣] محمد ... إرث النبوة وابن عم محمد

أرجو[٤] أبا العباس أنك ثالث ... من بعدهم سُقْيًا لتربة أحمد

فصاح ابن سريج - فيما يُحكىٰ - وبكىٰ وقال: لقد نعىٰ إليَّ نفسي [هذا الشيخُ][٥]. وقيل[٦]: إنه مات في تلك السنة[٧].

قال: وأما [المائة][٨] الرابعة فقد قيل: إن الشيخ أبا حامد الأسفراييني هو المبعوث فيها. وقيل: بل الأستاذ سهل [بن أبي سهل][٩] الصعلوكي، وقد كان

---

(١) المستدرك للحاكم ٤/ ٦٩٤.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) في المستدرك: الأبطحي.

(٤) في المستدرك: أبشر.

(٥) زيادة من المستدرك.

(٦) في طبقات السبكي: ورُوي.

(٧) بعده في طبقات السبكي: «وقال آخرون: إنما المبعوث علىٰ رأس المائة الثالثة أبو الحسن الأشعري؛ لأنه القائم في أصل الدين، المناضل عن عقيدة الموحدين، السيف المسلول علىٰ المعتزلة المارقين، المغيِّر في أوجه المبتدعة المخالفين. وعندي أنه لا يبعد أن يكون كل منهما مبعوثًا، هذا في فروع الدين، وهذا في أصوله، وكلاهما شافعي المذهب، والأرجح إن كان الأمر منحصرًا في واحد أن يكون هو ابن سريج».

(٨) زيادة من طبقات السبكي.

(٩) زيادة من طبقات السبكي.

ممن لا يُدفع عن هذا المقام بوجه يتضح؛ لمشاركته الشيخ أبا حامد في الفقه وقُرب الوفاة من رأس المائة، بخلاف الأشعري مع ابن سريج[(١)].

قال: والخامس الغزالي.

وقد قال في قصيدة نظمها في أسمائهم[(٢)]:

---

(١) بعده في طبقات السبكي: «مع زيادة تصوفه وتبحره في بقية العلوم».

(٢) طبقات السبكي ١/ ٢٠٢ ونصها:

اثنان قد مضيا فبورك فيهما ... عمر الخليفة ثم حِلف السؤدد
الشافعي الألمعي محمد ... إرث النبوة وابن عم محمد
أرجو أبا العباس أنك ثالث ... من بعدهم سقيًا لتربة أحمد
ويقال إن الأشعري الثالث الـ ... ـمبعوث للدين القويم الأبَّد
والحق ليس بمنكر هذا ولا ... هذا وعلَّمها امرآن فعدِّد
هذا لنصرة أصل دين محمد ... كنظير ذلك في فروع محمد
وضرورة الإسلام داعية إلىٰ ... هذا وذاك ليهتدي من يهتدي
والرابع المشهور سهل محمد ... أضحىٰ عظيمًا عند كل موحد
وقضىٰ أناس أن أحمد الأسفرا ... ييني رابعهم ولا تستبعد
فكلاهما فرد الورىٰ المعدود من ... حزب الإمام الشافعي محمد
والخامس الحبر الإمام محمد ... هو حجة الإسلام دون تردد
وابن الخطيب السادس المبعوث إذ ... هو للشريعة كان أي مؤيِّد
والرافعي كمثله لولا تأخـ ... ـر موته كالأشعري وأحمد
والسابع ابن دقيق عيد فاستمع ... فالقوم بين محمد أو أحمد
إن تنفِ عن عبد الكريم والأشعر ... ي وسهلٍ المأثور في ذا المسنَد
فانظر لسر الله إن الكل من ... أصحابنا فافهم وأنصفْ ترشُد
هذا علىٰ أن المصيب إمامنا ... أجلىٰ دليل واضح للمهتدي
يا أيها الرجل المريد نجاته ... دعْ ذا التعصبَ والمراء وقلِّد
هذا ابن عم المصطفىٰ وسميُّه ... والعالِم المبعوث خير مجدِّد
وضُح الهدىٰ بكلامه وبهديه ... يا أيها المسكين لِمْ لا تهتدي

والخامس الحبر الإمام محمد ... هو حجة الإسلام دون تردُّد

وكذلك ذكره الحافظ جلال الدين السيوطي في أرجوزة له[١] فقال[٢]:

---

(١) تسمىٰ: تحفة المجتهدين بأسماء المجددين.

(٢) أوردها شمس الحق العظيم آبادي بتمامها في عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١/ ٣٩٣ ونصها:

الحمد لله العظيم المنة ... المانح الفضل لأهل السنَّة

ثم الصلاة والسلام نلتمس ... علىٰ نبي دينُه لا يندرس

لقد أتىٰ في خبر مشتهر ... رواه كل حافظ معتبَر

بأنه في رأس كل مائة ... يبعث ربنا لهذي الأمة

منًّا عليها عالمًا يجدد ... دين الهدىٰ لأنه مجتهد

فكان عند المائة الأولىٰ عمر ... خليفة العدل بإجماع وقر

والشافعي كان عند الثانية ... لما له من العلوم السامية

وابن سريج ثالث الأئمه ... والأشعري عده من أمه

والباقلاني رابع أو سهل أو ... الأسفراييني خلف قد حكوا

والخامس الحبر هو الغزالي ... وعده ما فيه من جدال

والسادس الفخر الإمام الرازي ... والرافعي مثله يوازي

والسابع الراقي إلىٰ المراقي ... ابن دقيق العيد باتفاق

والثامن الحبر هو البلقيني ... أو حافظ الأنام زين الدين

والشرط في ذلك أن تمضي المائة ... وهو علىٰ حياته بين الفئة

يشار بالعلم إلىٰ مقامه ... وينصر السنَّة في كلامه

وأن يكون جامعًا لكل فن ... وأن يعم علمُه أهل الزمن

وأن يكون في حديث قد روىٰ ... من أهل بيت المصطفىٰ وقد قوىٰ

وكونه فردًا هو المشهور ... قد نطق الحديث والجمهور

وهذه تاسعة المئين قد ... أتت ولا يخلف ما الهادي وعد

وقد رجوتُ أنني المجدد ... فيها ففضل الله ليس يجحد

وآخر المئين فيما ياتي ... عيسىٰ نبي الله ذو الآيات

يجدد الدين لهذي الأمه ... وفي الصلاة بعضنا قد أمَّه

مقررًا لشرعنا ويحكم ... بحكمنا إذ في السماء يعلم

والخامس الحبر هو الغزالي وعدُّه ما فيه من جدال

وقال فيها:

والشرط في ذلك أن تمضي المائة وهو علىٰ حياته بين الفئة
يُشار بالعلم إلىٰ مقامه وينصر السُّنةَ في كلامه
وأن يكون جامعًا لكل فن وأن يعم علمُه أهلَ الزمن
وأن يكون في حديث قد روىٰ من أهل بيت المصطفىٰ وقد قوىٰ
وكونه فردًا هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور

ونقل[1] العراقي عن البعض أنه جعل في الرابعة أبا إسحاق الشيرازي، والخامسة أبا طاهر السِّلفي، ولا مانع من الجمع، فقد يكون المجدد أكثر من واحد.

قال الذهبي: «مَن» هنا للجمع لا للمفرد، فتقول مثلاً: علىٰ رأس الثلاثمائة ابن سريج في الفقه، والأشعري في الأصول، والنسائي في الحديث.

وقال في «جامع الأصول»[2]: قد تكلموا[3] في تأويل هذا الحديث، فكلٌّ أشار

وبعده لم يبقَ من مجدد ويُرفع القرآن مثل ما بدي
وتكثر الأشرار والإضاعة من رفعه إلىٰ قيام الساعة
وأحمد الله علىٰ ما علَّما وما جلا من الخفا وأنعما
مصليًا علىٰ نبي الرحمة والآل مع أصحابه المكرمة

وقد أوردها أيضًا المناوي في فيض القدير ٢/ ٢٨٢ عدا الأبيات الثلاثة الأخيرة.

(١) فيض القدير ١/ ١٠.

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الأثير ١١/ ٣٢٠ - ٣٢٤ (تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط). وقد نقل الشارح كلام ابن الأثير مختصرًا، ويبدو أنه لم ينقله من جامع الأصول، بل من فيض القدير للمناوي ١/ ١١، حيث يوجد شبه اتفاق في اللفظ بين ما ههنا وبين ما في الفيض.

(٣) أي العلماء.

إلىٰ العالِم[1] الذي هو في مذهبه وحمل الحديث عليه، والأَولىٰ العموم؛ فإنَّ «مَن» يقع علىٰ الواحد والجمع، ولا يختص أيضًا بالفقهاء؛ فإن انتفاع الأمة أيضًا يكون بأولي الأمر وأهل الحديث والقرَّاء والوُعَّاظ، لكن المبعوث ينبغي أن يكون مشارًا إليه في كلٍّ من هذه الفنون، ففي رأس الأولىٰ من أولي الأمر: عمر بن عبد العزيز، ومن الفقهاء: محمد الباقر والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله والحسن وابن سيرين [وغيرهم من طبقتهم][2] ومن القراء: ابن كثير، ومن المحدثين: الزهري. وفي رأس الثانية من أولي الأمر: المأمون، ومن الفقهاء: الشافعي، واللؤلؤي من الحنفية، وأشهب من المالكية، وعلي بن موسىٰ الرضا من الإمامية، والحضرمي من القراء، وابن معين من المحدِّثين، والكرخي من الزهاد. وفي الثالثة من أولي الأمر: المقتدر، ومن الفقهاء: ابن سريج، ومن الحنفية الطحاوي، ومن المتكلمين الأشعري، ومن المحدثين النسائي. وفي الرابعة من أولي الأمر: القادر بالله، ومن الفقهاء: الأسفراييني، ومن الحنفية الخوارزمي، ومن المالكية عبد الوهاب، ومن الحنابلة الحسين الفرَّاء، ومن المتكلمين الباقلاني وابن فورك، ومن المحدثين الحاكم، ومن الزهاد الدينوري. وهكذا يقال في بقية القرون.

وفي كلام النووي ما يشير إلىٰ ذلك[3]، وأيَّده الحافظ ابن حجر في الفتح[4]

---

(١) في فيض القدير: القائم.

(٢) زيادة من فيض القدير.

(٣) في أثناء شرحه لحديث «لا تزال طائفة من أمتي ...»، حيث قال ما نصه: «يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرىٰ من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل قد يكونون متفرقين في أقطار الأرض». المنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٣/ ٩٨ (ط - مؤسسة قرطبة بالقاهرة).

(٤) قال ابن حجر بعد أن ذكر كلام النووي: «لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، =

وقال: كل من اتصف بشيء من تلك الأوصاف عند رأس المائة هو المراد، تعدَّد أم لا.

والبحث في هذا المقام يستدعىٰ ذِكر مهمات، ولكن اقتصرنا علىٰ المقصود منه.

* * *

= بل يكون الأمر فيه كما ذُكر في الطائفة، وهو متجه؛ فإن اجتماع الصفات المحتاج إلىٰ تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يُدَّعَىٰ ذلك في عمر بن عبد العزيز؛ فإنه كان القائم بالأمر علىٰ رأس المائة الأولىٰ باتصافه بجميع صفات الخير وتقدُّمه فيها، ومن ثَم أطلق الإمام أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما مَن جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلىٰ هذا كل مَن كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد، سواء تعدد أم لا». فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١٣/ ٣٠٨ .

الفصل التاسع عشر: في ذكر مصنفاته التي سارت بها الركبان

قال المناوي: نقل النووي في بستانه[١] عن شيخه التفليسي قال نقلاً عن بعضهم أنه أُحصيتْ كتب الغزالي التي صنفها ووُزعت علىٰ عمره فخص كل يوم أربعة كراريس.

قلت: وهذا من قبيل نشر الزمان لهم، وهو من أعظم الكرامات، وقد وقع كذلك لغير واحد من الأئمة، كابن جرير الطبري، وابن شاهين، وابن النقيب، والنووي، والسبكي، والسيوطي، وغيرهم.

ثم[٢] إن الإمام الغزالي رحمة الله عليه له تصانيف [عظيمة][٣] في غالب الفنون حتىٰ في علوم الحرف، وأسرار الروحانيات، وخواص الأعداد، ولطائف الأسماء الإلهية، وفي السيمياء[٤]، وغيرها، علىٰ ما سيأتي بيانها قريبًا إن شاء الله تعالىٰ.

فمن أشرف مصنفاته وأشهرها ذِكرًا وأعظمها قدرًا هذا الكتاب المسمىٰ بـ «إحياء علوم الدين»، فنشرح حاله، ونتكلم علىٰ ما يتعلق به وبغيره علىٰ ترتيب حروف المعجم لأجل سهولة الكشف والمعرفة، فاقتضىٰ تقديم هذا الكتاب في الذِّكر؛ لوجوه:

الأول: أن اسمه مبدوء بالألف.

الثاني: شرفه علىٰ غيره؛ لما فيه من علوم الآخرة.

---

(١) بستان العارفين للنووي ص ١٤٥.

(٢) هذا كلام المناوي في طبقاته ١/ ٧١٠.

(٣) زيادة من طبقات المناوي.

(٤) السيمياء أو السيمولوجيا هو علم العلامات اللغوية.

والثالث: شهرته في الآفاق وسيرورته مسير الشمس في الاختراق، حتىٰ قيل: إنه لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الإحياء لأغنىٰ عما ذهب.

وهو مرتَّب علىٰ أربعة أقسام: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلِكات، وربع المنجيات. في كل منها عشرة كتب، فالجملة أربعون.

نقل في «لطائف المنن»(١) عن القطب أبي الحسن الشاذلي أنه قال: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النور.

وقال ابن السبكي(٢): وهو من الكتب التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها وإشاعتها؛ ليهتدي بها كثير من الخلق، وقلما ينظر فيه ناظر إلا وتيقظ به(٣) في الحال.

وقال أيضًا(٤): ولو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها أهل العلم إلا الإحياء لكفاهم، وأنا لا أعرف له نظيرًا في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر(٥).

ونقل المناوي(٦) عن «لواقح الأنوار» للشعراني: قالوا: ولما أفتىٰ القاضي عياض بإحراق كتاب الإحياء بلغه ذلك، فدعا عليه، فمات وقت الدعوة في حمَّام فجأةً. وقيل: بل أمر المهدي بقتله [في الحمَّام](٧) بعد أن ادَّعىٰ عليه أهل بلده

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ص ١٦٢ (تحقيق: عبد الحليم محمود).

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٣.

(٣) في المطبوعة: له. والمثبت من طبقات السبكي.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٢ نقلًا عن بعض المحققين.

(٥) عبارة السبكي: «لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر غيرُه لكفىٰ».

(٦) طبقات المناوي ١/ ٧٠٥.

(٧) زيادة من طبقات المناوي.

وزعموا أنه يهودي؛ لأنه كان لا يخرج يوم السبت؛ لكونه[١] كان يصنف كتاب «الشفاء».

وعندي في قوله «فمات وقت الدعوة» توقُّفٌ؛ فإن وفاة القاضي بمراكش يوم الجمعة سابع جمادىٰ الآخرة - وقيل: في رمضان - سنة ٥٤٤، فتأملْ ذلك.

وروىٰ[٢] الإمام اليافعي عن ابن المَيْلَق عن ياقوت العَرْشي عن أبي العباس المرسي عن القطب الشاذلي أن الشيخ ابن حرزهم خرج علىٰ أصحابه يومًا ومعه كتاب، فقال: أتعرفونه؟ قال: هذا الإحياء. وكان الشيخ المذكور يطعن في الغزالي، وينهىٰ عن قراءة الإحياء، فكشف لهم [المذكور][٣] عن جسمه فإذا هو مضروب بالسياط وقال: أتاني الغزالي في النوم ودعاني إلىٰ رسول الله ﷺ، فلما وقفنا بين يديه قال: يا رسول الله، هذا يزعم أني أقول عليك ما لم تقُل. فأمر بضربي فضُربتُ[٤].

---

(١) في طبقات المناوي: لأنه.

(٢) طبقات المناوي ١/ ٧٠٦.

(٣) زيادة من طبقات المناوي.

(٤) ذكر السبكي هذه الحكاية في طبقاته ٦/ ٢٥٨ بأبسط من هذا السياق فقال: «لما وقف ابن حرزهم علىٰ الإحياء تأمل فيه ثم قال: هذا بدعة، مخالف للسنة. وكان شيخًا مطاعًا في بلاد المغرب، فأمر بإحضار كل ما فيها من نسخ الإحياء، وطلب من السلطان أن يُلزِم الناس بذلك، فكتب إلىٰ النواحي، وشدد في ذلك، وتوعد مَن أخفىٰ شيئًا منه، فأحضر الناس ما عندهم، واجتمع الفقهاء ونظروا فيه، ثم أجمعوا علىٰ إحراقه يوم الجمعة، وكان ذلك يوم الخميس، فلما كان يوم الجمعة رأي ابن حرزهم المذكور في المنام كأنه دخل من باب الجامع الذي عادته يدخل منه، فرأىٰ في ركن المسجد نورًا، وإذا بالنبي ﷺ وأبي بكر وعمر جلوس، والغزالي قائم وبيده الإحياء، فقال: يا رسول الله، هذا خصمي. ثم جثا علىٰ ركبتيه وزحف عليهما إلىٰ أن وصل إلىٰ النبي ﷺ، فناوله كتاب الإحياء وقال: يا رسول الله، انظر فيه، فإن كان بدعة مخالفًا لسنَّتك كما زعم تبتُ إلىٰ الله تعالىٰ، وإن كان شيئًا تستحسنه حصل لي من بركتك، فأنصِفْني من خصمي. فنظر فيه رسول الله ﷺ ورقة ورقة إلىٰ آخره، ثم قال: واللهِ إن هذا شيء حسن. ثم ناوله أبا بكر، فنظر فيه كذلك، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق يا رسول الله إنه لحسنٌ. ثم ناوله عمر، فنظر فيه كذلك، ثم قال =

وأخبر[١] القطب محيي الدين ابن عربي عن نفسه أنه كان يقرئ كتاب الإحياء [في المسجد الحرام][٢] تجاه الكعبة.

وقال المولىٰ أبو الخير[٣]: أول ما دخل الإحياء المغرب أنكر عليه بعض المغاربة أشياء، فصنف [عليه][٤] «الإملاء في الرد علىٰ الإحياء»، ثم رأىٰ ذلك المصنِّف رؤيا ظهرت فيها كرامة الشيخ وصِدق نيته، فتاب عن ذلك [ورجع إلىٰ الاعتقاد في حقه][٥].

وقال ابن تيمية وتلميذه ابن القيم: بضاعة الغزالي في الحديث مزجاة[٦].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي[٧]: قد جمعت في أغلاط الإحياء كتابًا وسميته: «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، وأشرت إلىٰ بعض ذلك في كتاب[٨] «تلبيس

= كما قال أبو بكر، فأمر النبي ﷺ بتجريد ابن حرزهم من ثيابه، وضربه حد المفتري، فجُرِّد وضُرب، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط وقال: يا رسول الله، إنما فعل هذا اجتهادًا في سنَّتك وتعظيمًا، فعفا عنه أبو حامد عند ذلك. فلما استيقظ من منامه وأصبح أعلم أصحابَه بما جرىٰ، ومكث قريبًا من الشهر متألمًا من الضرب، ثم سكن عنه الألم، ومكث إلىٰ أن مات وأثر السياط علىٰ ظهره، وصار ينظر في كتاب الإحياء ويعظِّمه ويبجله أصلاً أصلاً. وهذه حكاية صحيحة حكاها لنا جماعة من ثقات مشيختنا عن الشيخ العارف ولي الله ياقوت الشاذلي عن شيخه السيد الكبير ولي الله تعالىٰ أبي العباس المرسي عن شيخه الشيخ الكبير ولي الله أبي الحسن الشاذلي».

(١) طبقات المناوي ١/ ٧٠٦.

(٢) زيادة من طبقات المناوي.

(٣) مفتاح السعادة ٢/ ٣٠٩.

(٤) زيادة من مفتاح السعادة.

(٥) زيادة من مفتاح السعادة.

(٦) هذه مقولة الغزالي في حق نفسه، ذكرها في كتابه قانون التأويل ص ٣٠ (تحقيق: محمود بيجو).
ومعنىٰ مزجاة: يسيرة لا يُعتد بها، وذكرها تواضعاً لأنه حجة الإسلام، ومن تبعا مقولته لم يُنصفاه.

(٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي ١٧/ ١٢٥ (ط - دار الكتب العلمية).

(٨) في المنتظم: كتابي المتسمىٰ.

إبليس».

وقال سبطه أبو المظفَّر[١]: وضعه على مذاهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه، فأنكروا عليه ما فيه من الأحاديث التي لم تصح.

قال المولى أبو الخير[٢]: وأما الأحاديث التي لم تصح فلا يُنكَر عليه في إيرادها؛ لجوازه في الترغيب والترهيب.

قال صاحب «كشف الظنون»[٣]: وليس ذلك على إطلاقه، بل بشرط أن لا يكون موضوعًا.

قلت: والأمر كذلك؛ فإن الأحاديث التي ذكرها المصنف ما بين متفق عليه من صحيح وحَسن بأقسامهما، وفيه الضعيف والشاذ والمنكَر والموضوع على قلة، كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى.

---

(١) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١/ ٢٤. وهو كلام أبي الفرج ابن الجوزي في المنتظم.

(٢) مفتاح السعادة ٢/ ٣٠٩.

(٣) كشف الظنون ١/ ٢٤.

ذكر طعن أبي عبد الله المازري[١] وأبي الوليد[٢] الطرطوشي وغيرهما فيه، والجواب عن ذلك:

أما[٣] المازري فقال مجيبًا لمن سأله عن حاله وحال كتابه الإحياء ما نصه: هذا الرجل - يعني الغزالي - وإن لم أكن قرأت كتابه فقد رأيت تلامذته وأصحابه، فكلٌّ منهم يحكي لي نوعًا من حاله وطريقته فأتلوَّح بها من سيرته ومذهبه ما قام[٤] لي مقام العيان، فأنا أقتصر علىٰ ذكر حال الرجل وحال كتابه، وذكر جُمَل من مذاهب الموحِّدين والفلاسفة والمتصوفة وأصحاب الإشارات؛ فإن كتابه متردِّد بين هذه الطوائف[٥] لا يعدوها، ثم أُتبعُ ذلك بذكر حِيَل[٦] أهل مذهب علىٰ أهل مذهب آخر، ثم أبيِّن عن طرق الغرور فأكشف عما دُفن من حبال[٧] الباطل؛ ليُحذَر من الوقوع في حَبالة صائده.

ثم أثنىٰ علىٰ الغزالي بالفقه[٨] وقال: هو بالفقه أعرف منه بأصوله، وأما علم الكلام الذي هو أصول الدين فإنه صنف فيه أيضًا، وليس بالمستبحر فيها،

---

(١) في كتاب له سماه: الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء، كما في سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩/ ٣٣٠. وقد أورد الذهبي بعضًا من كلام المازري ولم يتعقبه، بل مدحه بقوله: وكتاب الكشف يدل علىٰ إمامته.

(٢) كذا كناه المؤلف، وتبع في ذلك السبكي، والمعروف بالطرطوشي هو أبو بكر محمد بن الوليد، أما الذي يكنىٰ بأبي الوليد فهو شيخه سليمان بن خلف الباجي، فاختلط الأمر علىٰ السبكي فأعطىٰ كنية الأستاذ لتلميذه.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٤٠ وما بعدها.

(٤) في المطبوعة: فأقام. والتصويب من طبقات السبكي.

(٥) في طبقات السبكي: الطرائق.

(٦) في المطبوعة: حمل. والمثبت من طبقات السبكي.

(٧) في المطبوعة: خيال. والتصويب من طبقات السبكي.

(٨) في طبقات السبكي: في الكشف.

ولقد فطنتُ لسبب عدم استبحاره فيها، وذلك أنه قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول[١]، فكسَّبته قراءةُ الفلسفة جراءةً علىٰ المعاني، وتسهيلاً للهجوم علىٰ الحقائق؛ لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها حكم شرع يزَعُها[٢]، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها، وعرَّفني بعضُ أصحابه أنه كان له عكوف علىٰ رسائل إخوان الصفا، وهي إحدىٰ وخمسون رسالة، ومصنفها فيلسوف قد خاض في علم الشرع والعقل[٣] فمزج بين العِلمين، وذكر الفلسفة وحسَّنها في قلوب أهل الشرع بآيات يتلوها عندها وأحاديث يذكرها، ثم كان في هذا الزمان المتأخر رجل من الفلاسفة يُعرف بابن سينا، ملأ الدنيا تأليفًا في علم الفلسفة، وهو فيها إمام كبير، وقد أدَّته قوَّتُه في الفلسفة إلىٰ أن حاول رد أصول العقائد إلىٰ علم الفلسفة، وتلطف جهده حتىٰ تم له ما لم يتم لغيره، وقد رأيتُ جُمَلاً من دواوينه، ورأيت هذا الغزالي يعوِّل عليه في أكثر ما يشير إليه من الفلسفة.

ثم قال: وأما مذاهب الصوفية فلست أدري علىٰ مَن عوَّل فيها.

ثم أشار إلىٰ أنه عوَّل علىٰ أبي حيان التوحيدي.

ثم ذكر توهية أكثر ما في الإحياء من الأحاديث، وقال: عادة المتورِّعين أن لا يقولوا: قال مالك، قال الشافعي، فيما لم يثبُت عندهم.

ثم أشار إلىٰ أنه يستحسن أشياء مبناها علىٰ ما لا حقيقة له، مثل قوله في قص الأظفار: أن تبدأ بالسبَّابة؛ لأن لها الفضل علىٰ بقية الأصابع؛ لكونها المسبِّحة ... إلىٰ آخر ما ذكره من الكيفية، وذكر فيه أثرًا. وقال: من مات بعد بلوغه ولم يعلم أن

---

(١) في طبقات السبكي: أصول الدين.

(٢) في طبقات السبكي: ترعاه.

(٣) في المطبوعة: النقل. والتصويب من طبقات السبكي.

الباري قديم مات مسلمًا إجماعًا.

قال: ومَن تساهل في حكاية هذا الإجماع الذي الأقرب أن يكون الإجماع فيه بعكس ما قال فحقيق أن لا يوثَق بما نقل، وقد رأيت له أنه ذكر أن في علومه هذه ما لا يسوغ أن يودَع في كتاب، فليت شِعري أحقٌّ هو أمْ باطل؟ فإن كان باطلاً فصدق، وإن كان حقًّا - وهو مراده بلا شك - فلِمَ لا يودَع في الكتب، ألغموضه ودقَّته؟! فإن كان هو فهمه فما المانع أن يفهمه غيرُه.

هذا ملخص كلام المازري، وسبقه إلىٰ قريب منه من المالكية الإمام أبو الوليد الطُّرْطُوشي نزيل الإسكندرية، فذكر في رسالة إلىٰ ابن مظفر: فأما ما ذكرتَ من أمر الغزالي فرأيت الرجل وكلَّمته فرأيته [رجلاً][1] من أهل العلم، قد نهضت به فضائلُه، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره، وكان علىٰ ذلك طول زمانه، ثم بدا له [الانصراف][2] عن طريق العلماء، فدخل في غِمار العمَّال، ثم تصوف، فهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان، ثم شابَها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج، وجعل يطعن علىٰ الفقهاء والمتكلمين، فلقد كاد ينسلخ من الدين، فلما عمل الإحياء عمد يتكلم في علوم الأحوال ومَرامِز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط علىٰ أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات.

قال ابن السبكي عقب هذا الكلام: وأنا أتكلم علىٰ كلامهما، ثم أذكر كلام غيرهما وأتعقبه أيضًا، وأجتهد أن لا أتعدَّىٰ طَوْر الإنصاف [وأن لا يلحقني عِرق الحميَّة والاعتساف][3] وأسأل الله الإمداد بذلك والإسعاف، فما أحد منهم معاصر

---

(١) زيادة من طبقات السبكي.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) زيادة من طبقات السبكي.

لنا ولا قريب، ولا بيننا إلا وُصْلة العلم ودعوة الخلق إلىٰ جناب الحق، فأقول:
أما المازري فقبل الخوض معه في الكلام أقدم لك مقدمة، وهي أن هذا الرجل كان من أذكىٰ المغاربة قريحةً، وأَحَدِّهم ذهنًا، بحيث اجترأ علىٰ شرح «البرهان» لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذي لا يحوم نحو حماه ولا يدنو حول أثره[١] إلا غوَّاص علىٰ المعاني، ثاقب الذهن، مبرِّز في العلم، وكان مصمِّمًا علىٰ مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، جليلها ودقيقها[٢] [كبيرها وصغيرها][٣] لا يتعداها خطوة، ويبدِّع مَن خالفه ولو في النَّزْر اليسير [والشيء الحقير][٤] وهو مع ذلك مالكي المذهب، شديد الميل إلىٰ مذهبه، كثير المناضلة عنه، وهذان الإمامان - أعني إمام الحرمين وتلميذه الغزالي - وصلا من التحقيق وسعة الدائرة في العلم إلىٰ المبلغ الذي يعلم[٥] كل منصف بأنه ما انتهىٰ إليه أحد بعدهما، وربما خالفا أبا الحسن في مسائل من علم الكلام، والقوم - أعني الأشاعرة لا سيما المغاربة منهم - يستصعبون هذا الصنع، ولا يرون مخالفة أبي الحسن في نقير ولا قِطْمير، وربما ضعَّفا مذهب مالك في كثير من المسائل، كما فعلا في مسألة المصالح المرسَلة وعند ذِكر الترجيح بين المذاهب، فهذان أمران يغصُّ[٦] المازريُّ منهما، وينضم إلىٰ ذلك أن الطرق شتىٰ مختلفة، وقلما رأيتُ سالك طريق إلا ويستقبح الطريق التي لم يسلكها ولم يُفتح عليه من قِبَلها، ويضع عند ذلك من أهلها[٧]، لا ينجو من

---

(١) في طبقات السبكي: ولا يدندن حول مغزاه.

(٢) في طبقات السبكي: وحقيرها.

(٣) زيادة من طبقات السبكي.

(٤) زيادة من طبقات السبكي.

(٥) في طبقات السبكي: يعرف.

(٦) في طبقات السبكي: نفر.

(٧) في طبقات السبكي: من غيره.

ذلك إلا القليل من أهل المعرفة والتمكن[1]، ولقد وجدت هذا واعتبرته حتىٰ في مشايخ الطريقة، ولا يخفىٰ أن طريقة الغزالي التصوف والتعمق في الحقائق ومحبة إشارات القوم، وطريقة المازري الجمود علىٰ العبارات الظاهرة والوقوف معها، والكل حسنٌ ولله الحمد، إلا أن اختلاف الطريقتين يوجب تبايُن المِزاجين وبُعد ما بين القلبين لا سيما وقد انضم إليه ما ذكرناه من المخالفة في المذهب، وتوهُّم المازري أنه يضع من مذهبه، وأنه يخالف شيخ السُّنة [أبا الحسن][2] الأشعري، حتىٰ رأيته - أعني المازري - قال في شرح «البرهان» في مسألة خالف فيها إمامُ الحرمين أبا الحسن الأشعري ليست من القواعد المعتبَرة ولا المسائل المهمة: مَن خطَّأ شيخ السنة أبا الحسن الأشعري فهو المخطَّأ. وأطال في هذا، وقال في الكلام علىٰ ماهية العقل في أوائل «البرهان»[3]: وقد حُكي أن الأشعري يقول: العقل [هو][4] العلم، وأن الإمام رضي مقالة الحارث المحاسبي أنه غريزة بعد أن كان في «الشامل» أنكرها، وأنه إنما رضيها لكونه في آخر عمره قرع باب قوم آخرين. يعني يشير إلىٰ الفلاسفة، فليت شِعري ما في هذه المقالة مما يدل علىٰ ذلك، وأعجب من هذا أنه - أعني المازري - في آخر كلامه اعترف بأن الإمام لا ينحو نحوهم، وأخذ يجلُّ من قَدْره، وله من هذا الجنس كثير.

فهذه أمور توجب التنافر بينهم، وتحمل المنصف علىٰ أن لا يسمع كلام المازري فيهما إلا بعد حُجة ظاهرة، ولا تحسب أننا[5] نفعل ذلك إزراء بالمازري

---

(١) في طبقات السبكي: والتمكين.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) إيضاح المحصول من برهان الأصول للمازري ص ٨٤ (ط - دار الغرب الإسلامي).

(٤) زيادة من طبقات السبكي.

(٥) في المطبوعة: أن. والتصويب من طبقات السبكي.

وحطًّا من قدره، لا واللهِ، بل تبيينًا لطريق الوهم عليه، وهو في الحقيقة بيان لعذره[١]؛ فإن المرء إذا ظن بشخص سوءًا قلما أمعن النظر بعد ذلك في كلامه، بل يصير بأدنىٰ لمحة [أدلَّت][٢] يحمل أمره علىٰ السوء، ويكون مخطئًا في ذلك، إلا مَن وفَّق اللهُ ممن برئ عن الأغراض ولم يظن إلا الخير وتوقَّف عند سماع كل كلمة، وذلك مقام لم يصل إليه إلا الآحاد من الخَلْق، وليس المازري بالنسبة إلىٰ هذين الإمامين من هذا القبيل، وقد رأيتَ ما فعله في حق الإمام[٣] في مسألة الاسترسال، وكيف وهم علىٰ الإمام وفهم عنه ما لم تفهمه [عنه][٤] العوام وفوَّق نحوه سهم المَلام.

فإذا عرفتَ ذلك، فاعلم[٥] أن ما ادعاه [من][٦] أنه عرف مذهبه بحيث قام له مقام العيان [هو][٧] كلام عجيب؛ فإنَّا لا نستجيز أن نحكم علىٰ عقيدة أحد بهذا الحكم؛ فإن ذلك لا يطَّلع عليه إلا الله، ولن تنتهي إليها القرائن[٨] والأخبار أبدًا، وقد وقفنا نحن علىٰ غالب كلام الغزالي وتأملنا كتب أصحابه الذين شاهدوه وتناقلوا أخباره، وهم به أعرفُ من المازري، ثم لم ننتهِ إلىٰ أكثر من غلبة الظن بأنه رجل أشعري العقيدة[٩]، خاض في كلام الصوفية.

وأما قوله: «وذكر جُملاً من مذاهب الموحدين والفلاسفة والمتصوفة

---

(١) في طبقات السبكي: وهو في الحقيقة معذور.

(٢) زيادة من طبقات السبكي.

(٣) في طبقات السبكي: إمام الحرمين.

(٤) زيادة من طبقات السبكي.

(٥) في طبقات السبكي: إذا عرفت هذه المقدمة فأقول.

(٦) زيادة من طبقات السبكي.

(٧) زيادة من طبقات السبكي.

(٨) في طبقات السبكي: إليه القوانين.

(٩) في طبقات السبكي: المعتقد.

وأصحاب الإشارات» فأقول: إن عنىٰ بالموحدين الذين يوحِّدون الله فالمسلمون أول داخل فيهم، ثم عطفُ الصوفية عليهم يوهم أنهم ليسوا مسلمين، وحاشا لله، وإن عنىٰ بهم أهل التوكل علىٰ الله فهم من خير فِرَق الصوفية الذين هم من خير المسلمين، فما وجه عطف الصوفية عليهم بعد ذلك؟ وإن أراد أهل الوحدة المطلقة المنسوب كثير منهم إلىٰ الاتحاد[1] والحلول فمعاذ الله، ليس الرجل في هذا الصَّوْب، وهو مصرح بتكفير هذه الفئة، وليس في كتابه شيء من معتقداتهم.

وأما قوله: «إنه ليس بالمتبحر في علم الكلام»، فأنا أوافقه علىٰ ذلك، لكن أقول: إن قدمه فيه راسخ ولكن لا بالنسبة إلىٰ قدمه في بقية علومه، هذا ظني[2].

وأما قوله: «إنه اشتغل بالفلسفة قبل استبحاره في فن الأصول»، فليس الأمر كذلك، بل لم ينظر في الفلسفة إلا بعدما استبحر في فن الأصول، وقد أشار هو - أعني الغزالي - في كتابه «المنقذ من الضلال» وصرح بأنه توغل في علم الكلام قبل الفلسفة[3].

ثم قول المازري: «قرأ علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الأصول» بعد قوله «إنه لم يكن بالمستبحر في الأصول» كلام يناقض أولُه آخرَه.

وأما دعواه أنه تجرأ علىٰ المعاني، فليست له جراءة إلا حيث دله الشرع، ومدعىٰ خلاف ذلك لا يعرف الغزالي، ولا يدري مع من يتحدث، ومن الجهل بحاله دعوىٰ أنه اعتمد علىٰ كتب أبي حيان التوحيدي، والأمر بخلاف ذلك، ولم

---

(١) في طبقات السبكي: الإلحاد.

(٢) ربما لأن الإمام التاج السبكي لم يذكر الاقتصاد في الاعتقاد من كتب حجة الإسلام، فربما غاب عنه ذلك.

(٣) المنقذ من الضلال ص ٧٤ ونصه: «ثم إني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة».

يكن عمدته في الإحياء بعد معارفه وعلومه وتحقيقاته التي جمع بها شمل الكتاب ونظم بها محاسنه إلا علىٰ كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب «الرسالة» للأستاذ أبي القاسم القشيري المُجمَع علىٰ جلالتهما وجلالة مصنفيهما، وأما ابن سينا فالغزالي يكفِّره[١]، فكيف يقال إنه يقتدي به؟! ولقد صرَّح في كتابه «المنقذ من الضلال»[٢] أنه لا شيخ له في الفلسفة، وأنه أطلعه الله علىٰ هذه العلوم بمجرد المطالعة في أقل من سنتين ببغداد، مع اشتغاله بالإفادة والتدريس.

وقوله: «لا أدري علىٰ مَن عوَّل في التصوف»، قلت: عوَّل علىٰ كتاب القوت والرسالة، مع ما ضم إليهما من كلام مشايخه أبي علي الفارمذي وأمثاله، ومع ما زاده من قِبَل نفسه بفكره ونظره، وما فُتح به عليه، وهو عندي أغلب ما في الكتاب، وليس في الكتاب للفلاسفة مدخل، ولم يصنفه إلا بعدما ازدرىٰ علومهم، ونهىٰ عن النظر في كتبهم، وقد أشار إلىٰ ذلك في غير موضع من الإحياء، ثم في كتاب «المنقذ من الضلال». فهذا رجل ينادي علىٰ كافة الفلاسفة بالكفر، وله في الرد عليهم الكتب الفائقة، وفي الذب عن حريم الإسلام الكلمات الرائقة، ثم يقال إنه بنىٰ كتابه علىٰ مقالتهم، فيالله ويا للمسلمين، نعوذ بالله من تعصب يحمل علىٰ الوقيعة في أئمة الدين.

وأما ما عاب به الإحياء من توهية بعض الأحاديث، فالغزالي معترف[٣] بأنه لم تكن له في الحديث يد باسطة[٤]، وعامة ما في الإحياء من الأخبار والآثار مبدَّد في كتب مَن سبقه من الصوفية والفقهاء، ولم يستبد الرجل بحديث واحد، وقد اعتنىٰ

(١) كما في المنقذ من الضلال ص ٧٨.

(٢) المنقذ من الضلال ٧٤.

(٣) في طبقات السبكي: معروف.

(٤) كما سبق أن أشرنا إليه من قوله في كتاب قانون التأويل.

بتخريج أحاديث الإحياء بعض أصحابنا فلم يشذ عنه إلا اليسير.

وأما ما ذكره في قص الأظفار، فالأثر المشار إليه [يروىٰ][1] عن علي كرم الله وجهه، غير أنه لم يثبُت، وليس في ذلك كبير أمرٍ، ولا مخالفة شرع، وقد سمعت جماعة من الفقراء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطئ، مَن داومه أمن من وجع العين.

وأما قول المازري «عادة المتورعين أن لا يقولوا قال مالك ...» الخ، فقلما[2] قال الغزالي «قال رسول الله ﷺ» علىٰ سبيل الجزم، وإنما يقول «عن». وبتقدير الجزم، فلو لم يغلب علىٰ ظنه لم يقله، وغايته أنه ليس الأمر علىٰ ما ظن.

وأما مسألة من مات ولم يعلم قِدَم الباري، ففرقٌ بين انتفاء[3] اعتقاده بالقِدَم واعتقاده أن لا قِدَم، والثاني هو الذي أجمعوا علىٰ تكفير من اعتقده، فمن استحضر بذهنه صفة القِدم ونفاها عن الباري أو حسبها[4] منفية أو شك في انتفائها كان كافرًا، وأما الساذَج من[5] مسألة القدم الخالي الجلف[6] المؤمن بالله علىٰ الجملة فهو الذي ادعىٰ الغزالي الإجماع علىٰ أنه مؤمن علىٰ الجملة، ناجٍ من حيث مطلق الإيمان الجُمْليّ، ومن البلية العظمىٰ [والمصيبة الكبرىٰ][7] أن يقال عن مثل الغزالي إنه غير موثوق به في نقله، فما أدري ما أقول، ولا بأي وجه يلقىٰ الله تعالىٰ

---

(١) زيادة من طبقات السبكي.

(٢) في طبقات السبكي: فليس ما.

(٣) في طبقات السبكي: عدم.

(٤) في طبقات السبكي: وأوجبها.

(٥) في طبقات السبكي: في.

(٦) في طبقات السبكي: الخِلو.

(٧) زيادة من طبقات السبكي.

من يعتقد ذلك في هذا الإمام.

وأما تقسيم المازري في العلم الذي أشار حجة الإسلام أنه لا يودَع في كتاب، فوددت لو لم يذكره؛ فإنه شُبِّه عليه، وهذا المازري كان رجلاً فاضلاً ذكيًّا، وما كنت أحسبه يقع في مثل هذا، أو خفي عليه أن للعلوم دقائق نهىٰ العلماء عن الإفصاح بها خشية علىٰ ضعفاء الخَلْق، وأمور أُخَر لا تحيط بها العبارات، ولا يعرفها إلا أهل الذوق، وأمور أخر لم يأذن الله في إظهارها [لحِكَم تكثُر عن الإحصاء][1] وماذا يقول المازري فيما خرَّجه البخاري في صحيحه[2] من حديث أبي الطفيل: سمعت عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله؟

وكم مسألة نص العلماء علىٰ ذم[3] الإفصاح بها خشيةً علىٰ أفهام[4] مَن لا يفهمها[5]، وربما وقع السكوت عن بعض العلم خشية من الوقوع في محذور، وأمثلته[6] تكثُر.

وأما كلام الطرطوشي فمن الدعاوىٰ العارية عن الدلالة، ولا أدري كيف استجاز في دينه أن ينسب هذا الحبر إلىٰ أنه دخل في وساوس الشيطان، ولا من أين اطَّلع علىٰ ذلك؟!

وأما قوله «شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج» فلا أدري أيَّ رموز في هذا

---

(١) زيادة من طبقات السبكي.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٦٢.

(٣) في طبقات السبكي: عدم.

(٤) في طبقات السبكي: إفضاح.

(٥) بعده في طبقات السبكي: «وهذا إمامنا الشافعي يقول: إن الأجير المشترك لا يضمن. قال الربيع: وكان لا يبوح به خوفًا من أجير السوء. قال الربيع أيضًا: وكان الشافعي يذهب إلىٰ أن القاضي يقضي بعلمه، وكان لا يبوح به مخافة قضاة السوء».

(٦) في طبقات السبكي: ومثل ذلك يكثر.

الكتاب غير إشارات القوم التي لا ينكرها عارف، وليس للحلاج رموز يُعرَف بها.

وأما قوله «كاد ينسلخ من الدين» فيا لها كلمة وقانا[١] الله شرها!

وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية، فمن الكلام البارد؛ فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالي كان ذا قدم راسخ في التصوف، وليت شِعري إن لم يكن الغزالي يدري التصوف فمن يدريه؟!

وأما دعواه أنه سقط علىٰ أم رأسه، فوقيعة في العلماء بغير دليل؛ فإنه لم يذكر لنا بماذا سقط، كفاه الله وإيانا غائلة التعصب.

وأما الموضوعات في كتابه فليت شعري أهو واضعها حتىٰ ينكر عليه؟ إنْ هذا إلا تعصب بارد، وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد.

وممن تكلم عليه أيضًا وبسط لسانه فيه ابنُ الصلاح، قال التقي السبكي في جواب كتبه للعفيف المَطَري المقيم بالمدينة المنورة ما نصه[٢]:

ماذا يقول الإنسان في الغزالي وفضلُه واسمه قد طبَّق الأرضَ، ومَن خبرَ كلامَه عرف أنه فوق اسمه، وأما ما ذكره ابن الصلاح من عند نفسه ومن كلام يوسف الدمشقي والمازري، فما أشبه هؤلاء الجماعة رحمهم الله إلا بقوم متعبدين سليمة قلوبهم قد ركنوا إلىٰ الهُوَيْنا، فرأوا فارسًا عظيمًا من المسلمين قد رأىٰ عدوًّا عظيمًا لأهل الإسلام فحمل عليهم وانغمس في صفوفهم، وما زال في غَمْرتهم حتىٰ فلَّ شوكتهم وكسرهم وفرَّق جموعهم شَذَرَ مَذَرَ، وفلق هام كثير منهم، فأصابه يسير من دمائهم، وعاد سالمًا، فرأوه وهو يغسل الدم عنه، ثم دخل معهم في صلاتهم

---

(١) في المطبوعة: وقاه. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٣.

وعبادتهم، فتوهموا بقاء أثر دم عليه[١]، فأنكروا عليه. هذا حال الغزالي وحالهم، والكل إن شاء الله مجتمعون في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأما المازري فمعذور؛ لأنه مغربي، وكانت المغاربة لما وقع بهم كتاب الإحياء لم يفهموه فحرَّفوه، فمن تلك الحالة تكلم المازري، ثم إن المغاربة بعد ذلك أقبلوا عليه ومدحوه بقصائه، منها قصيدة أولها[٢]:

أبا حامد أنت المخصَّص بالحمد وأنت الذي علَّمتنا سنن الرُّشد

وضعت لنا الإحياء يحيي نفوسنا وينقذنا من ربقة[٣] المارد المُردي

وهي طويلة، وإن كنت لا أرضىٰ بقوله[٤]: أنت المخصص بالحمد، ويُتأوَّل لقائله[٥] أنه أراد: من بين أقرانه أو من بين من يتكلم فيه، وأين نحن ومَن فوقنا ومَن فوقهم من فهم كلام الغزالي والوقوف علىٰ مرتبته في العلم والدين والتألُّه، ولا يُنكَر فضل الشيخ ابن الصلاح وفقهه وحديثه ودينه وقصده الخير، ولكن لكل عمل رجال، ولا يُنكَر علو رتبة المازري، ولكن كل حال لا يعرفه من لم يذقه أو يشرف عليه، وكل أحد إنما يتكيف بما نشأ عليه ووصل إليه.

ثم قال: وإن كان في الإحياء أشياء يسيرة تُنتقد لا تدفع[٦] محاسن أكثره التي

---

(١) في طبقات السبكي: فتوهموا أيضًا أثر الدم عليه.

(٢) البيتان مع أربعة أبيات أخرىٰ في مرآة الجنان لأبي محمد اليافعي ٣/ ١٣٧ (ط - دار الكتب العلمية) منسوبة لأبي العباس أحمد بن معد الإقليشي تلميذ الغزالي.

(٣) في مرآة الجنان: من طاعة.

(٤) في طبقات السبكي: لا أرتضي قوله.

(٥) في طبقات السبكي: لفاعليه.

(٦) في المطبوعة: لا ترفع. والمثبت من طبقات السبكي.

لا توجد في كتاب غيره، وكم من منَّة[١] للغزالي.

وقد أطال في الكلام، فراجعْه في طبقات ولده؛ فإنه نفيس في الباب.

وفي الجزء التاسع عشر من تذكرة الحافظ جلال الدين السيوطي قال[٢]: ومما وقع للعلماء من ضرب المثل لأهل عصرهم بالآيات ما وقع لحجة الإسلام الغزالي في كتابه «الانتصار لما في الإحياء من الأسرار»[٣]، حين أنكر عليه علماء عصره مواضع منه ألَّف الكتاب المذكور لجواب ما أنكروه، فقال في أوله ما نصه: سألتَ - يسَّرك الله لمراتب العلم تصعد مراقيها، وقرَّب لك مقامات الولاية تحل معاليها - عن[٤] بعض ما وقع في الإملاء الملقَّب بالإحياء مما أشكل علىٰ مَن حُجب فهمه وقصر علمه ولم يفُز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه، وأظهرتَ التحزن لما شاش[٥] به شركاء الطغام وأمثال الأنعام وأتباع[٦] العوام وسفهاء الأحلام وذُعَّار[٧] أهل الإسلام، حتىٰ طعنوا عليه، ونهوا عن قراءته ومطالعته، وأفتوا بمجرد الهوىٰ علىٰ غير بصيرة باطِّراحه ومنابذته، ونسبوا ممليه إلىٰ ضلال وإضلال، ونبذوا قرَّاءه ومنتحليه بزيغ في الشريعة واختلال، فإلىٰ الله انصرافهم ومآبهم[٨]، وعليه في العرض الأكبر إيقافهم وحسابهم فـ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف: ١٩] ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا

---

(١) في المطبوعة: منقبة. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) الحاوي في الفتاوي لجلال الدين السيوطي ١/ ٢٦٦ - ٢٦٧ (ط - دار الكتب العلمية).

(٣) ويسمىٰ أيضًا: الإملاء عن إشكالات الإحياء، وهو مطبوع وملحق بكتاب الإحياء.

(٤) في المطبوعة: في. والمثبت من الحاوي والإملاء.

(٥) أي: اختلط عليهم الأمر. وفي الحاوي: غاش.

(٦) في المطبوعة والإملاء: وإجماع. والمثبت من الحاوي.

(٧) في الحاوي: وعار. يقال: رجل ذاعر: أي معيب.

(٨) في الحاوي: ومآلهم.

لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الأحقاف: ١١] ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣] ولا عجب، فقد ثوىٰ أدلاء الطريق، وذهب أرباب التحقيق، فلم يبقَ في الغالب إلا أهل الزور والفسوق، متشبثين بدعاوىٰ كاذبة، متصفين بحكايات موضوعة، متزينين بصفات منمقة، متظاهرين بظواهر من العلم[1] فاسدة، ومتعاطعين لحجج[2] غير صادقة، كل ذلك لطلب دنيا، أو محبة ثناء، أو مغالبة نظراء، قد ذهبت المواصلة بينهم بالبر، وتآلفوا جميعًا علىٰ الفعل المنكَر، وعدمت النصائح بينهم[3] في الأمر، وتصافَوا بأسرهم علىٰ الخديعة والمكر، إن نصحتهم العلماءُ أغروا بهم، وإن صمت عنهم العقلاء أزروا عليهم، أولئك الجهَّال في علمهم، الفقراء في طَوْلهم، البخلاء عن الله عَزَّوَجَلَّ بأنفسهم، لا يفلحون، ولا ينجح تابعهم، ولذلك لا تظهر عليهم مواريث[4] الصدق، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية، ولا تخفق[5] لديهم أعلام المعرفة، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية؛ لأنهم لم ينالوا أحوال النقباء ومراتب النجباء وخصوصية البدلاء وكرامات الأوتاد وفوائد الأقطاب[6]، وفي هذه أسباب السعادة وتتمَّة الطهارة، لو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق، وعلموا علة أهل الباطل[7] وداء أهل الضعف[8] ودواء أهل القوة، ولكن ليس هذا من بضائعهم، حُجبوا

---

(١) في المطبوعة: بالعلم. والمثبت من الإملاء.

(٢) في المطبوعة: ومتقاطعين بحجج. والمثبت من الإملاء.

(٣) في المطبوعة: منهم. والمثبت من الإملاء.

(٤) في المطبوعة: موارثة. والمثبت من الإملاء.

(٥) في المطبوعة: تتحقق. والمثبت من الإملاء.

(٦) في المطبوعة: القطب. والتصويب من الإملاء.

(٧) في المطبوعة: الباطن. والتصويب من الإملاء.

(٨) في المطبوعة: الغضب. والتصويب من الإملاء.

عن الحقيقة بأربعة: بالجهل، والإصرار، ومحبة الدنيا، وإظهار الدعوىٰ. فالجهل أورثهم السخف، والإصرار أورثهم التهاون، ومحبة الدنيا أورثتهم طول الغفلة، وإظهار الدعوىٰ أورثهم الكبر والإعجاب والرياء ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠] ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٤٧] فلا يغرنَّك - أعاذنا الله وإياك من أحوالهم - شأنُهم، ولا يذهلنك عن الاشتغال بصلاح نفسك تمردُهم وطغيانهم، ولا يغوينَّك بما زيَّن لهم من سوء أعمالهم شيطانُهم، فكأن قد جمع الخلائق في صعيد ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١] وتُلي ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢] فيا له من موقف[1] قد أذهل ذوي العقول عن القال والقيل ومتابعة الأباطيل! فـ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩] ولا تطع كل أفاك أثيم ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [هود: ١١٨] ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس: ١٠٩] ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨].

إلىٰ هنا كلام الغزالي.

تنبيه: وقد أُنكر علىٰ الإمام الغزالي في مواضع من الإحياء، منها ما هو قول منسوب إليه، ومنها ما نقله عن غيره من العارفين وأثبته وسكت عليه، فمن ذلك قوله فيه[2]: ليس في الإمكان أبدع مما كان. قالوا: هذا يُفهَم منه العجز في الجناب الإلهي، وهو كفر صريح. وقد أجاب عنه القطب سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية» بثلاثة أجوبة، الأول نقلاً عن

(١) في المطبوعة: فيا له موقفًا. والمثبت من الإملاء.

(٢) الإحياء: كتاب التوحيد والتوكل.

القطب ابن عربي، والثاني نقلاً عن عبد الكريم الجيلي، والثالث نقلاً عن الشيخ محمد المغربي شيخ الجلال السيوطي، وكل من الأجوبة الثلاثة قد أوردها شيخ مشايخنا سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي في كتابه «الذهب الإبريز»(١)، وبسط الكلام عليه، ورأيت ذلك بعينه في تأليف الشعراني المذكور بخط أحد تلامذته.

قال أحمد بن مبارك: وقلت لبعض الفقهاء: ما قولك في قول أبي حامد: ليس في الإمكان أبدع مما كان؟ فقال [لي](٢): قد تكلم عليه الشعراني وغيره. فقلت: إنما أسألك عما عندك فيه. فقال لي: وأي شيء عندي فيه؟ فقلت: ويحك! إنها عقيدة، أرأيت لو قال القائل(٣): هل يقدر ربنا جل جلاله علىٰ إيجاد أفضل من هذا الخلق؟ فقال: أقول له: إن مقدورات الله لا تتناهىٰ، فيقدر علىٰ إيجاد أفضل من هذا الخلق بألف درجة، وأفضل من هذا الأفضل ... وهكذا إلىٰ ما لا نهاية له. فقلت: وقوله «ليس في الإمكان أبدع مما كان» ينافي ذلك. فتفطن عند ذلك للعبارة(٤) المنسوبة لأبي حامد رحمه الله تعالىٰ، وهكذا وقع لي مع كثير من الفقهاء، فإذا سألتُهم عن عبارة أبي حامد استشعروا جلالة قدره(٥) فتوقفوا، فإذا بدَّلت العبارة وعبَّرت بما سبق في سؤالنا للعامة جزموا بعموم القدرة وعدم نهاية المقدورات. قال: وقد اختلف العلماء في هذه المقالة(٦) المنسوبة إلىٰ أبي حامد علىٰ ثلاث طوائف(٧)، فطائفة أنكرتها وردَّتها، وطائفة أوَّلتها، وطائفة كذَّبت النسبة إلىٰ أبي حامد ونزَّهت

---

(١) الذهب الإبريز في مناقب سيدي عبد العزيز لأحمد بن مبارك السجلماسي ص ٢٣٥ - ٢٥١ (ط - الميمنية بمصر).

(٢) زيادة من الذهب الإبريز.

(٣) في الذهب الإبريز: لو قال لك قائل.

(٤) في الذهب الإبريز: لمعنىٰ العبارة.

(٥) في الذهب الإبريز: جلالة الإمام حجة الإسلام.

(٦) في الذهب الإبريز: المسألة.

(٧) في المطبوعة: طرائق. والمثبت من الذهب الإبريز.

مقامه عنها[١]، والأولىٰ[٢] هم المحققون من أهل عصره ومَن بعدهم إلىٰ هلم جرًّا، منهم أبو بكر ابن العربي تلميذه فيما نقله أبو عبد الله القرطبي في «شرح أسماء الله الحسنىٰ» ما نصه[٣]: قال شيخنا أبو حامد الغزالي قولاً عظيمًا انتقده عليه أهل العراق، وهو بشهادة الله موضع انتقاد، قال: ليس في القدرة أبدع من هذا العالَم في الإتقان والحكمة، ولو كان في القدرة أبدع منه وادخره لكان ذلك منافيًا للجود[٤]. وأخذ ابن العربي في الرد عليه، إلىٰ أن قال: ونحن وإن كنا قطرة في بحره[٥] فإنَّا لا نردُّ عليه إلا بقوله. ثم قال: فسبحان مَن أكمل لشيخنا هذا فواضل الخلائق ثم صرف عنه هذه[٦] الواضحة في الطرائق.

وممن سلك هذا المسلك ناصر الدين ابن المنيِّر الإسكندري وصنف في ذلك رسالة سماها «الضياء المُتَلالي في تعقُّب الإحياء للغزالي»، وقال: المسألة المذكورة لا تتمشىٰ إلا علىٰ قواعد الفلاسفة والمعتزلة.

وفي مناقضة هذه الرسالة ألَّف السيد السمهودي رسالة عظيمة نحو سبعة كراريس[٧].

---

(١) في الذهب الإبريز: عن هذه المسألة.

(٢) في الذهب الإبريز: الطائفة الأولىٰ الرادَّة علىٰ أبي حامد.

(٣) الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ للقرطبي ١/ ٢٥٧ (ط - دار الصحابة للتراث بطنطا).

(٤) عبارة القرطبي: «ولو كان في القدرة أبدع من هذا العالم في الإتقان والحكمة منه وأحكم ولم يفعله لكان ذلك مناقضًا للجود، وذلك محال يبعد من الباري سبحانه».

(٥) في الأسنىٰ: نقطة من بحره.

(٦) في المطبوعة والذهب الإبريز: ثم صرف به عن هذه. والمثبت من الأسنىٰ.

(٧) في الذهب الإبريز: «وفي مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السمهودي رسالته منتصرًا لأبي حامد ومعترضًا علىٰ ابن المنير». واسم هذه الرسالة: إيضاح البيان لمن أراد الحجة من ليس في الإمكان أبدع مما كان.



وممن نُقل عنه إنكاره: الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»[(١)]، والإمام بدر الدين الزركشي، وقال: هذا من الكلمات العقم التي لا ينبغي إطلاق مثلها في حق الصانع[(٢)]، والكمال ابن أبي شريف[(٣)]، والبرهان البقاعي، وألّف رسالة في المسألة سماها «تهديم الأركان»[(٤)]، وغيرهم.

والطائفة الثانية وهم المنتصرون لأبي حامد والمؤولون لكلامه علىٰ وجه صحيح في ظنهم، فأول ذلك[(٥)] الإمام أبو حامد نفسه؛ فإنه سُئل في زمانه عن هذه المسألة، فأجاب بما هو مسطور في «الأجوبة المسكتة»[(٦)].

ومنهم محيي الدين ابن عربي، وعبد الكريم الجيلي، ومحمد المغربي، نقل عنهم الشعراني، كما سبقت الإشارة إليه. ومنهم الإمام جلال الدين أبو البقاء

---

(١) لم أقف عليه في تاريخ الإسلام، وإنما في سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٣٧، حيث ذكر كلام الغزالي، ثم أتبعه بكلام ابن العربي السابق ذكره.

(٢) بعده في الذهب الإبريز: ولعله إنما أراد تعظيم صنعة الصانع.

(٣) المسايرة بشرح المسامرة لكمال الدين محمد بن محمد بن أبي شريف المقدسي ص ٦١ (ط - الأميرية ببولاق) ونصه: «العقيدة أن كلا من مقدوراته ومعلوماته لا يتناهىٰ، كما صرح به حجة الإسلام في العقيدة المعروفة بترجمة عقيدة أهل السنة والجماعة من كتاب الإحياء، وتكرر في الإحياء، فما وقع في بعض كتب الإحياء ككتاب التوكل مما يدل علىٰ خلاف ذلك فإنه - والله أعلم - صدر عن ذهول عن ابتنائه علىٰ طريق الفلاسفة، وقد أنكره الأئمة في عصر حجة الإسلام وبعده».

(٤) في الذهب الإبريز أن هذه الرسالة تسمىٰ: دلالة البرهان علىٰ أن ليس في الإمكان أبدع مما كان. وهو خطأ؛ إذ هو عكس مقصود البقاعي، فالصواب حذف «ليس» من اسم الكتاب. ويبدو أن اسمه المبين أعلاه هو الأشهر، بدليل أن السيوطي سمىٰ كتابه الذي رد فيه علىٰ البقاعي «تشييد الأركان».

(٥) في الذهب الإبريز: فأول هذه الطائفة.

(٦) هو كتاب الإملاء علىٰ إشكالات الإحياء، وتقدم قريبًا أيضًا باسم: الانتصار لما في الإحياء من الأسرار.

محمد البكري الشافعي، والبدر الزركشي أيضًا، والشيخ سيدي أحمد زرُّوق في «شرح قواعد العقائد» للمصنف[1]، والبرهان ابن أبي شريف أخو الكمال المتقدم في الطائفة الأولىٰ، والشيخ أبو المواهب التونسي، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، والحافظ جلال الدين السيوطي، وألَّف رسالة ناقَضَ بها علىٰ البرهان البقاعي سماها «تشييد الأركان».

قلت: وقد سُئل عن هذه المسألة كلٌّ من مشايخنا: القطب نجم الدين أبي المكارم محمد بن سالم الحفني الشافعي نفعنا الله به، والسيد القطب أبي المراحم عبد الرحمن بن مصطفىٰ العيدروس نفعنا الله به، فأجابا بتأويل كلامه علىٰ أحسن المَظنَّات.

والطائفة الثالثة وهم الذاهبون إلىٰ عدم نسبة المقالة إلىٰ أبي حامد، وأنها مدسوسة في كتبه، ومستندهم في ذلك أنهم عرضوها علىٰ كلامه في كتبه فوجدوها مع كلامه علىٰ طرفَي النقيض، والعاقل لا يعتقد النقيض فضلاً عن أبي حامد، وعباراته التي هي مناقضة لتلك المقالة في مواضع من كتابه الإحياء، وفي «المنقذ من الضلال»، وفي «المستصفىٰ»، مما تصدىٰ لجمعها جميعًا البرهان البقاعي في رسالته المذكورة.

هذا خلاصة ما أشار إليه سيدي أحمد بن مبارك السجلماسي، ولم نطوِّل

---

(١) شرح عقيدة الغزالي لأحمد زروق ص ١٢٠ (ط - دار الكرز بمصر) ونصه: «يريد أن كل ما كان ويكون إلىٰ الابد متىٰ حصل في خبر كان فلا أبدع منه؛ لأن العلم أتقنه، ولا نقص في إتقانه، والإرادة خصصته، ولا نقص في تخصيصها، والقدرة أبرزته، ولا نقص في إبرازها، فبروزه علىٰ أبدع الوجوه وأكملها، وبحسب هذا فلا تفاوت بالنسبة لبارئه (ما ترىٰ في خلق الرحمن من تفاوت) والتفصيل لحكمة من الله تعالىٰ. علىٰ هذا تُفهَم هذه الكلمة، وإن لم تُفهم عليه لزم القول بقصور القدرة وما معها من الأوصاف، وذلك باطل لا يقوله أحمق فضلاً عن عاقل».

بنصوص الأجوبة وما نوقضت به؛ لما فيه من الإسهاب المخلّ في هذه المقدمة أمام الكتاب، وعسىٰ أن نلم بتفصيل كلامهم إن شاء الله تعالىٰ في كتاب التوكل، والله علىٰ ما يشاء قدير.

وقال القطب الشعراني في كتابه «الأجوبة المرضية»[(١)]:

* ومما أنكروه علىٰ الغزالي قوله[(٢)]: يباح للصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال إن قُطعت قطعًا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات، كما يجوز تمزيق الثوب ليُرقَّع به قميص آخر.

قال المنكِر[(٣)]: ولقد عجبتُ من هذا الرجل - يعني الغزالي - كيف استلبه حب مذهب الصوفية حتىٰ ذهل عن أصول الفقه ومذهب الشافعي، واختار بدع الصوفية علىٰ مذاهب الأئمة؟!

والجواب: أنه لا ينبغي الإنكار عليه بموافقة الصوفية في هذه المسألة؛ فإن ذلك غرض صحيح في معاملة أرباب القلوب؛ فإن الصوفي لولا رأىٰ صلاح قلبه وحضور قلبه مع الله تعالىٰ بذلك ما مزَّق ثوبه، بل كان هو ينكر علىٰ مَن فعل ذلك. وبالجملة، فلو كان جميع أموال الدنيا وأمتعتها بيد الفقير[(٤)] ورأىٰ حضور قلبه

---

(١) الشعراني هنا يرد علىٰ الإمام ابن الجوزي فيما أورده في كتابه «تلبيس إبليس» وانتقد فيه الصوفية انتقادًا لاذعًا. ويلاحظ أن الشعراني - وتبعه الزبيدي في ذلك - ينسب الكلام إلىٰ ابن القيم، اعتقادًا منه أن كتاب تلبيس إبليس لابن القيم الجوزية، وليس كذلك، فالكتاب اشتهرت نسبته إلىٰ ابن الجوزي. ولعل منشأ هذا الوهم هو التشابه في اللفظ بين «الجوزي» و«الجوزية». والشعراني يصرح أحيانـًا باسمه، وأحيانًا يقول: قال المنكر.

(٢) الإحياء: كتاب آداب السماع والوجد.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٥٥.

(٤) يعني الصوفي.

مع الله تعالىٰ لحظة بإتلافها كلها بحرقها أو رميها في بحر لكان له ذلك بطريق الاجتهاد، ولا لوم إلا علىٰ من يمزق ثيابه ويتلف ماله إسرافًا وسفهًا، ولكل مقام رجال. وأنشدوا[١]:

لـو ذاق عاذلـي صبابتـي صبـا معـي لكنـه مـا ذاقهـا

فاعلمْ ذلك، والزم الأدب مع حجة الإسلام في دولتَي الظاهر والباطن.

* قال: ومما أنكروا عليه قوله في الإحياء[٢]: المقصود بالرياضة تفريغ القلب، وليس ذلك إلا بالخلوة والجلوس في مكان مظلم، فإن لم يكن مظلمًا لف رأسه في جيبه أو تدثَّر بكساء أو رداء؛ فإنه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالىٰ، ويشاهد جلال الربوبية.

قال المنكِر[٣]: انظروا إلىٰ هذه الترهات العجيبة، وكيف صدرت من فقيه؟! ومن أين له أن الذي يسمعه إذ ذاك هو نداء الحق تعالىٰ أو أن الذي يشاهده جلال الربوبية؟ وما يؤمنه أن يكون ما يجده هو من الوساوس والخيالات الفاسدة؟ وهذا هو الغالب ممن يستعمل التقلل في المطعم؛ فإنه يغلب عليه الماليخوليا[٤].

والجواب: أن ما قاله الغزالي تبعًا لغيره صحيح، لكن له شروط عند أهل

(١) البيت في كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل العمري ١٧/ ٣٠٨ (ط - المجمع الثقافي بأبي ظبي) منسوب إلىٰ محمد بن سباع الصائغ الدمشقي (المتوفي سنة ٧٢٠). وقبله:

لو تعلم الوُرْق حنيني نحوكم لمزقت من طرب أطواقها

(٢) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨٠.

(٤) الماليخوليا أو السوداء: مرض نفسي يصيب الإنسان فيجعله منطويا علىٰ ذاته، وينتابه شعور بالدونية واحتقار النفس والقلق والنفور من الناس وكراهية الحياة والحزن، وأحيانا الرغبة في الانتحار.

الطريق من بلوغه في الورع الغاية القصوىٰ، ومداومة مراقبة الله مع الأنفاس، وعدم شغل قلبه بنعيم الدنيا والآخرة، وهناك يخرج العبد من مواطن التلبيس من النفس والشيطان، وتصير روحه مَلَكية، فيشاهد جلال الربوبية كما تشاهده الملائكة، وكل مَن دخل الخلوة علىٰ مصطلح أهل الله عرف ما أقول، ومن لم يدخل فهو معذور في إنكاره؛ لعدم وجدانه ما ذكره الغزالي في نفسه.

* ومما أنكروا عليه أيضًا تقريره في الإحياء قول أبي سليمان الداراني[١]: إذا طلب الرجل الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلىٰ الدنيا.

قال المنكِر[٢]: هذه الثلاثة أشياء مخالفة لقواعد الشريعة، وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد: «إن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم»؟ وكيف لا يطلب المعاش وقد قال عمر رضي الله عنه: لأنْ أموت من سعي رِجلي أطلب كفاف وجهي أحب إليَّ من أن أموت غازيًا في سبيل الله[٣]؟ وكيف لا يطلب التزويج وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول: «تناكحوا تناسلوا»؟ فما أدري هذه الأوضاع من الصوفية إلا علىٰ خلاف الشرع.

والجواب: أن مثل الإمام الغزالي لا يجهل مثل هذه الأمور، بدليل مدحِها في مواضع أُخَر من كتاب الإحياء، وإنما مراده أن الدخول في هذه الأمور من لازمِه غالبًا دخولُ الآفات التي تحبطها؛ فإنَّ مَن طلب الحديث لزمته الرياسة، وصار مقدَّمًا عند الناس في التعظيم والإكرام علىٰ من لم يطلبه، وقلَّ مَن يتخلص من الميل أو المحبة لمثل ذلك، وأما التجارة والبيع والشراء مع الخلاص من الميل إلىٰ الدنيا

---

(١) الإحياء: كتاب العلم.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٨٦.

(٣) ذكره ابن الجوزي في كتاب صيد الخاطر ص ١٥٦ (ط - دار الكتب العلمية) بلفظ: لأن أموت بين شعبتي جبل.

فلا يكون إلا ممَّن كمل سلوكُه ودخل حضرة الله وعرف المواقع كلها، فكلام أبي سليمان جرىٰ علىٰ الغالب، فلا لوم علىٰ الغزالي في تقريره إياه، وأما كون التزويج من جملة الميل إلىٰ الدنيا فهو ظاهر؛ لأنه في الغالب يُطلب للاستمتاع، وذلك لا يحصل إلا بالوقوع في الآفات التي كان عنها بمعزل أيام عزوبته لا سيما إن كان متجرِّدًا عن القيام في الأسباب التي تجلب له أمر معاشه؛ فإنه يَتلف بالكلية، ويلزمه الرياء لكل مَن أحسن إليه بلقمة أو خِرقة أو غيرهما، فأبغضُ الخلق إليه من يذمه عنده خوفًا أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بِرَّه، فكأن عبادة هذا كلها لأجل الذي أحسن إليه، وفي الحديث: «خيركم بعد المائتين الخفيف الحاذ»[1] أي: الذي لا زوجة له ولا ولد، وفي الحديث أيضًا: «سيأتي علىٰ أمتي زمان يكون هلاك الرجل علىٰ يد زوجته وولده ..»[2] فذكر الحديث إلىٰ أن قال: «وذلك أنهم يعيِّرونه بضيق المعيشة إلىٰ أن يوردوه موارد الهلاك». وقد استشار شخص سيدي عليًّا الخواص في التزويج، فقال له: شاورْ غيري. فقال له فقيه: ما منعك أن تشير عليه بفعل السنَّة؟ فقال له الشيخ: أنت ما حفظتَ إلا كونه سنَّة، أما تنظر الآفات المترتبة عليه من هلاك الدين وأكل الحرام والشبهات؟ فاعلمْ ذلك.

ومما أنكروه عليه: تقريره قول الجنيد: إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام؟

قال ابن القيم[3]: هذا غلط من الجنيد ومَن أقرَّه علىٰ ذلك؛ فإن الجماع سنَّة أو مباح، وكلاهما لا عقوبة علىٰ فاعله جريًا علىٰ قواعد الشريعة.

---

(١) ذكره ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ٣/ ٢٩٠ .

(٢) أخرجه البيهقي في الزهد وقال عنه العراقي في تخريجه الإحياء أنه ضعيف.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٨٧.

والجواب: أن مراد الجنيد العقوبة التي تحصل بلازم ذلك لا بعينه، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] ولا يحذِّر الله تعالىٰ إلا ما فيه رائحة الإثم، ومن مصطلح القوم أن يؤاخذوا المريد علىٰ فِعل المباح ويعاقبوه عليه من حيث كونه يوقِف عن الترقِّي، ولكل مقامٍ رجالٌ.

ومما أنكروه عليه أيضًا: تقريره قول أبي حمزة البغدادي[١]: إني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان وقد اعتقدت التوكل؛ لئلا يكون شبعي زادًا تزودت به.

قال المنكِر[٢]: ومن العجب اعتذاره عن أبي حمزة بقوله[٣]: كلام أبي حمزة صحيح، لكن محتاج إلىٰ شرطين، **أحدهما**: أن تكون للإنسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعًا ونحوه. **الثاني**: أن يمكنه التقوُّت بالحشيش، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذي معه طعام بعد أسبوع أو ينتهي إلىٰ محلة أو حشيش يجد به ما يقوته.

قال ابن القيم: أقبح ما في هذا القول صدوره من فقيه؛ فإنه قد لا يلقىٰ أحدًا، وقد يضل، وقد يمرض، فلا يصلح له الحشيش، وقد يلقاه من لا يطعمه، وقد يموت فلا يدفنه أحد.

والجواب: أما كلام أبي حمزة فهو في نهاية الإخلاص، وكذلك ما شرطه الغزاليُّ هو صحيح يتمشىٰ علىٰ قواعد الفقه، وأما ما ذكره ابن القيم فلا ينهض

---

(١) الرسالة في التصوف لأبي القاسم القشيري ص ٣٠٠ (ط - دار الشعب بالقاهرة).

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩١.

(٣) الإحياء: كتاب التوحيد والتوكل.

حُجة واضحة علىٰ أبي حمزة والغزالي؛ لأنه لو حمل أيضًا الزاد يجوز أن يقع له ما يقع لمن لم يحمله من الأحوال التي ذكرها، لكن لا يخفىٰ أنَّ حمل الزادِ سنَّة، ومَن فعل السنَّة كان تحت نظر الله تعالىٰ بالإمداد واللطف؛ لأنه فعل ما كلفه، بخلاف مَن لم يحمل زادًا فإنه موكول إلىٰ نفسه ولو كان ممن صحَّت تجربتُه للحق تعالىٰ؛ فإن الحق جل وعلا لا تقييد عليه، يفعل ما يشاء، إلا إن قيَّد علىٰ نفسه بشيء فللعبد طلبه منه عبوديةً، وقد قال رجل للحسن البصري: إني أريد أن أجلس في مسجد وأترك السبب لاعتقادي أن الله لا يضيعني. فقال له الحسن البصري: إن كنتَ علىٰ يقين السيد إبراهيم الخليل عليه السلام فافعلْ وإلا فالزم الحِرفة. والله أعلم.

* ومما أنكروه عليه أيضًا: تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند السباع في بَرِّية ليمتحن توكله علىٰ الله تعالىٰ هل صح أم لا.

قال المنكِر: كيف يجوز للغزالي أن يسكت علىٰ ما فعله هذا الرجل مع تعرُّضه لأسباب الهلاك بمبياته عند السباع لا سيما إن كانت جيعانة؟! وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والجواب: أن ذلك في حق أرباب الأحوال الذي يغلب حالُهم حالَ السبع ويركبونه ويعركون أذنه وينقاد لهم، بل يخاف هو منهم، وهذا مقام يبلغه المريد أوائل دخوله في الطريق، فيمسح الله من قلبه الخوف من شيء من المخلوقات جملة واحدة، وقد وقع ذلك لجملة من الأولياء، وفوق هذا المقام مقامٌ أرفع من هذا وهو الخوف من كل شيء يؤذي والتباعد عنه، ولو علمنا أن الحق تعالىٰ قدَّر علينا ما يؤذينا فنتحفظ من الأذىٰ حسب طاقتنا، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء نُثاب علىٰ ذلك الحذر لا سيما إن كان مشهد أحدنا أن أنفسنا وديعة عند الله تعالىٰ، وقد أمرنا بمدافعة الأقدار عنها. والله أعلم.

* ومما أنكروه عليه أيضًا: تقرير ما حكاه عن أبي الحسن الدينوري أنه حج اثنتي عشرة حجة وهو حافٍ مكشوف الرأس.

قال ابن القيم[١]: هذا من أعظم الجهل؛ لما في ذلك من الأذىٰ للرأس والرِّجلين، ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر، وكأنَّ هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف وتركوا شريعة محمد ﷺ بجانب، فنعوذ بالله من تلبيس إبليس؛ فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائدَ العوام، ويظنون أن فعله من الصواب.

والجواب: لا تنبغي المبادرة بالإنكار علىٰ من أتلف جسمه في مرضاة الله تعالىٰ وتعظيم حرماته، وربما كان مَن خرج للحج حافيًا مكشوف الرأس وقع في ذنب عظيم عنده وظن أن الحق تعالىٰ قد سخط عليه بسببه فخرج بتلك الهيئة يطلب التنصُّل من ذنوبه علىٰ وجه الذل والانكسار، وقد وقع لسفيان الثوري أنه حج من البصرة حافيًا، فتلقَّاه الفضيل بن عياض وابن أدهم وابن عيينة من خارج مكة، فقالوا له: يا أبا عبد الله، أما كان من الرفق بذاتك أن تركب ولو حمارًا؟ فقال: أما يرضىٰ العبدُ الآبق من سيده أن يأتي إلىٰ مصالحته إلا راكبًا؟ فبكىٰ الفضيل والجماعة. فانظر ذلك واقتدِ به. والله أعلم.

* ومما أنكروه عليه أيضًا: ما أجاب به[٢] مَن سأله عن رجل يدخل البادية بلا

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٩٧، ٣٠٠.

(٢) هذا الجواب ليس للغزالي، وإنما لأبي عبد الله أحمد بن يحيىٰ ابن الجلاء الشامي، كما في طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص ٥٦ (ط - دار الشعب بالقاهرة). وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٤/ ٣٢. وقد أورده ابن الجوزي أيضًا عن ابن الجلاء.

زاد من قوله: هذا من فعلِ رجال الله. قيل له: فإن مات؟ قال: الدية علىٰ القاتل[(١)].

قال المنكِر[(٢)]: هذه فتوىٰ جاهل بقواعد الشريعة؛ إذ لا خلاف بين فقهاء الإسلام أنه لا يجوز لأحد دخول البادية بغير زاد، وأن كل [مَن] فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاصٍ، مستحق للعقوبة في الآخرة.

والجواب: يحتمل أن يكون مراد الغزالي: من رجال الله أرباب الأحوال الذين غلبت عليهم أحوالُهم لا العارفين من مشايخ الطريق، بقرينة ما مر في الجواب قبله، فلا لوم علىٰ الغزالي إلا لو جعل ذلك شائعًا في حق كل الناس.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: تقريره عن أبي الخير الأقطع التيناتي قوله[(٣)]: إني عقدت مع الله عهدًا أن لا آكل شيئًا من الشهوات، فمددت يدي إلىٰ ثمرة في شجرة فقطعتها، فبينما أنا أمضغها إذ ذكرت العهد فرميت بها من فمي، فدار بي فرسان وقالوا: قم، وأخرجوني إلىٰ ساحل بحر الإسكندرية، وإذا أمير وحوله خيل وجند فقالوا: أنت من اللصوص. وإذا معهم جماعة من لصوص السودان، فسألوهم عني، فقالوا: لا نعرفه. فكذَّبهم الأمير، وشرع يقدِّم يدًا ويقطعها إلىٰ أن وصل إليَّ وقال لي: تقدمْ ومُدَّ يدَك. فمددتها فقُطعت ... إلىٰ آخرها.

قال: قال المنكِر[(٤)]: فانظروا إلىٰ هذا الجهل العظيم ما فعل بصاحبه، ولو أن عند التيناتي رائحة علم لعلم أن ما فعله حرام عليه، وليس لإبليس عون علىٰ الزهاد والعبَّاد أكثر من الجهل، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء إلا من الماليخوليات.

---

(١) في المطبوعة: علىٰ العاقلة. والتصويب من المصادر السابقة.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٩٠.

(٣) ذكر ابن الجوزي هذه الحكاية بطولها في تلبيس إبليس ص ٣٠٢.

(٤) تلبيس إبليس ص ٣٠٤.

والجواب: لا ينبغي الإنكار علىٰ أبي الخير، ولا علىٰ الغزالي؛ فإنهما مجتهدان في ذلك، فرأيا أن نقض العهد عند الأكابر أعظم من سرقة ربع دينار. وأيضًا، فإن مشهد الأكابر حضرة التقدير الإلهي، فهم مع الذي قدَّر القطع لا مع الجلاد الذي يقطع اليد مثلاً، فكلام الغزالي في حق الأكابر، وقول المنكِر في حق الأصاغر؛ فإنه كان تكفي عقوبة أحدهم أن يتوب ويستغفر من نقض العهد، وليس له أن يمكِّن الجلادَ من قطع يده ما أمكن؛ لأن ذلك لم يأمر به الشرع. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: قوله(١): إن الاشتغال بعلم الظاهر بطالة.

قال ابن القيم: هذا جهل مفرط منه، وأصل ذم الصوفية العلمَ أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم إلىٰ الرياسة إلا بعد طول زمان، بخلاف طريقتهم المبتدعة من لبسهم الزي، وصلاتهم بالليل، وصيامهم بالنهار، وتقصير الثياب والأكمام.

والجواب: لا يُنكَر عليه ذلك؛ فإن مراده [أن] الاشتغال به علىٰ طريق الجدال بطالة بالنسبة إلىٰ طريق العلماء العاملين، لا أن مراده بطالة من كل وجه، وكيف يُظن به أن يريد ما فهمه المنكِر وهو يعلم أن علم الشريعة هو أساس علم الحقيقة؛ إذ الشريعة لها تقويم صور العبادات الظاهرة، والحقيقة لها تقويم صور العبادات الباطنة بحيث تستحق أن يقبلها الله تفضُّلاً منه، وقد بلغنا أن الغزالي ما قال ذلك إلا في حق نفسه لما دخل طريق القوم ورأىٰ كمالها وآدابها فقال: ضيَّعنا عمرنا في البطالة. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: قوله(٢): اعلمْ أن ميل قلوب أهل التصوف إنما هو إلىٰ تحصيل العلوم اللدنية دون العلوم النقلية، ولذلك لم يحضوا علىٰ دراسة

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣١٠، ونسبه إلىٰ بعض الصوفية، وليس إلىٰ الغزالي.

(٢) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.

العلم، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون، وإنما حضُّوا علىٰ الاشتغال بالله تعالىٰ وحده والاشتغال بذكر الله فقط ... إلىٰ آخر ما قال، وعدَّ المنكرون ذلك من جملة ما غلط فيه الغزالي وقالوا[1]: قد حث الشارع علىٰ طلب العلم، فكيف يُمدح من لم يحض علىٰ تحصيله من الصوفية؟ وقالوا: عزيز هذا الكلام أن يصدر من متشرع[2]؛ فإنه لا يخفىٰ قبحه، وهو كالطي لبساط الشريعة حقيقةً، ثم علىٰ هذا المذهب فقد فاتت الفضائل علماء الأمصار كلهم؛ فإنهم لم يسلكوا طريق الصوفية علىٰ هذا النحو الذي ذكره الغزالي، وإذا ترك الإنسان الاشتغال بعلم الشريعة خلت النفسُ بوساوسها وخيالاتها، ولم يبقَ عندها من العلم ما يطرد ذلك فيلعب بها إبليس أي ملعب.

والجواب: أن مراد الغزالي - فيما حكاه عنهم - إنما هو بعد إحكام الفقير علم الشريعة؛ فإنه حكىٰ إجماع القوم علىٰ أنه لا ينبغي لأحد أن يدخل طريق القوم إلا بعد تضلُّعه من علوم الشريعة، بحيث يصير يقطع علماء الشريعة بالحجج في مجلس المناظرة، فلا ينبغي حملُ مثل كلامه علىٰ أن مراده مدحُ الاشتغال بأحوال طريق القوم من غير تقدم عِلمهم بالشريعة؛ فإن ذلك أبعد من البعيد، فالغزالي في وادٍ، والمنكِر في وادٍ. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا في تفسير قوله تعالىٰ حكايةً عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥] أن الأصنام هي الذهب والفضة، وعبادتهما: حبُّهما والاغترار بهما[3].

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣١٣.

(٢) أي فقيه.

(٣) الإحياء: كتاب ذم البخل وذم حب المال.

قال ابن القيم[1]: وهذا تفسير لم يقل به أحد من المفسرين.

والجواب: لا ينبغي أن ينكر عليه بسبب ذلك، فقد ورد في الحديث: «تعس عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة»، فسمَّىٰ محب هذه الأمور عبدًا لها، مع أنها لا تعقل ولا تدري من يحبها ولا من يبغضها، فكانت كالأصنام، والعبادة في اللغة: الميل للشيء والطاعة له، قال تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ ﴾ [يس: ٦٠] أي: لا تطيعوه في وسوسته لكم بالسوء، فلما كنىٰ الحقُّ تعالىٰ عن طاعة إبليس بالعبادة له استعارةً مجازيةً كذلك صح للغزالي استعارة العبادة للذهب والفضة الذي هو عبارة عن شدة محبتهما ومقاتلة الناس لأجلهما بجامع أن القلب يشتغل بهما عن الله تعالىٰ كما يشتغل عُبَّاد الأصنام بها عن الله تعالىٰ. والله أعلم.

* ومما أنكروه عليه: تقريره في الإحياء قول سهل التستري[2]: إن للربوبية سرًّا لو ظهر لبطلت النبوة، وإن للنبوة سرًّا لو ظهر لبطل العلم، وإن للعلماء بالله سرًّا لو ظهر لبطلت الأحكام والشرائع.

قال ابن القيم[3]: انظروا إلىٰ هذا التخليط القبيح ودعواه أن باطن الشريعة يخالف ظاهرها، وذلك من الهذيان.

والجواب: لا ينكَر علىٰ سهل ولا علىٰ الغزالي؛ لأن ما ذكراه إنما هو علىٰ سبيل الفرض، والتقدير: أي إن لله تعالىٰ في عباده وشرائعه أسرار اختص بها دون خلقه؛ لشدة حجابهم، ولو رُفع ذلك الحجاب لتساوىٰ علمهم وعلم سيدهم، ولا

(١) والصواب ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٢٢.
(٢) الإحياء: كتاب قواعد العقائد. ولم ينسبه الغزالي إلىٰ سهل صراحة، بل قال: قال بعضهم.
(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٨.

قائل بذلك، ومن أراد أن يشم رائحة ما ذكرناه فلينظر إلىٰ حضرة ربه سبحانه قبل خلقه الخلق سجدا أحد أفراد الأثاثي[١] معه يشهد أبدًا، ثم يستصحب هذا المشهد وهو نازل في المراتب من غير تخلُّل غفلة أو حجاب، وأكثر من هذا لا يقال، وإذا لم يكن إلا واحد لا خَلْقَ معه ذهبت الرسالة والرسول؛ لعدم وجود من تتوجه عليهم الأحكام، فكان بقاء الرسالة وأحكامها بعدم كشف أسرار الربوبية، فافهمه. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: قوله[٢]: ضاع لبعض الصوفية ولد صغير، فقيل له: لو سألتَ الله تعالىٰ أن يردَّه عليك. فقال: اعتراضي عليه أشد من ذهاب ولدي.

قال ابن القيم[٣]: لقد طال تعجبي من أبي حامد هذا كيف يحكي هذه الحكايات علىٰ وجه الاستحسان لها والرضا عن أصحابها، ويعد الدعاء والسؤال لله تعالىٰ اعتراضًا، لقد طوىٰ هذا بساطَ الشريعة طيًّا؛ إذ الدعاء مشروع بالإجماع.

والجواب: أن مراد الغزالي أن ذلك فيه معنىٰ الاعتراض لا أنه اعتراض، وإيضاحه: أن الاعتراض يرجع إلىٰ تمنِّي غير ما سبق في علم الله عَزَّوَجَلَّ، وقد سبق في علمه تعالىٰ ضياع ولد هذا الصوفي، فرضي بقضاء ربه، ولم يطلب رجوع ولده؛ ليتساوىٰ وجود ولده وعدمه عنده في أي مكان كان، ولا فرق بين كونه في داره أو أقصىٰ الأرض؛ لأنه عبدٌ لله تعالىٰ لا عبد لولده، فافهمه.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: قوله في الإحياء[٤]: كان بعض الشيوخ في بدايته

---

(١) كذا في المطبوعة.

(٢) الإحياء: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

(٣) تلبيس إبليس ص ٣٢٩.

(٤) الإحياء: كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق ومعالجة أمراض القلب.

يكسل عن قيام الليل، فألزم نفسه القيام علىٰ رأسه طول الليل؛ لتصير نفسه تجيبه إلىٰ قيام الليل اختيارًا، وكذلك عالج بعضُهم حب المال فباع جميع أمتعته ورمىٰ ثمنها في البحر خوفًا من أن يقع في حب تزكية الناس له ووصفِه بالجود أو الرياء في فعلها المذكور، ولذلك كان بعضهم يستأجر من يشتمه علىٰ رؤوس الأشهاد؛ ليعوِّد نفسه الحِلم، وكان آخر يركب البحر في الشتاء عند اضطراب الموج؛ ليعوِّد نفسه الشجاعة، وكان بعضهم إذا خاف النوم يقف علىٰ رأس حائط عالٍ حتىٰ لا يأخذه النوم.

قال المنكر[1]: أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد كيف حكىٰ هذه الأشياء ولم ينكرها، ولكن كيف ينكرها وقد أتىٰ بها في معرض التعليم، ولم يزنها بميزان الشريعة، وقبل أن يورد هذه الحكايات قال: ينبغي للشيخ أن ينظر حال المبتدئ، فإن رأىٰ معه مالاً حاضرًا زائدًا عن حاجته أخذه فصرفه في الخير وفرَّغ قلب المريد منه حتىٰ لا يلتفت إليه، وإن رأىٰ الكِبْر قد غلب عليه أمره أن يخرج إلىٰ السوق للحرفة والسؤال بالإلحاح، ويكلِّفه المواظبة علىٰ ذلك، وإن رأىٰ الغالب عليه البطالة استخدمه في تعهد الأخلية وتنظيفها من القذر، وملازمة المطبخ، وكنس القاذورات ومواضع الدخان، وإن رأىٰ شره حب الطعام غالبًا عليه ألزمه الصوم، وإن رآه عزبًا ولم تنكسر شهوته بالصوم أمره أن يفطر ليلة علىٰ الماء دون الخبز، وليلة علىٰ الخبز دون الماء، ويمنعه اللحم رأسًا.

قال ابن القيم: وإني لأتعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور التي تخالف ظاهر الشريعة، وكيف يحل لأحد أن يقوم علىٰ رأسه طول الليل، وكيف يحل رميُ المال في البحر؟! وكيف يحل سب المسلم بلا سبب؟! وهل يجوز

---

(١) تلبيس إبليس ص ٣٤١.

لمسلم أن يستأجر من يشتمه؟ وهل يجوز لأحد أن يقوم علىٰ رأس جدار عالٍ ويعرِّض نفسه للوقوع بالنوم فتنكسر رقبته فيموت؟! فما أرخص ما باع أبو حامد الفقه بالتصوف الذي يراه!

والجواب: أن أهل الطريق في جميع ذلك مجتهدون لا سيما في ترجيح الأعمال بعضها علىٰ بعض، فكل ما أدىٰ اجتهادهم إلىٰ أنه أرضىٰ لله تعالىٰ أو فيه تقريب للطريق علىٰ المريدين قدَّموه. علىٰ أنه يحتمل أن الشيخ كان ممن أقدره الله تعالىٰ علىٰ جمع ذلك المال الذي أمر مريده برميه في البحر، وكذلك يحتمل أن الشيخ ما أمره بالوقوف علىٰ رأسه أو علىٰ رأس جدار إلا بعد أن علم قدرته علىٰ ذلك ولو بإدمان سابق. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: حكايته عن أبي تراب النخشبي أنه قال لمريد له[1]: لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من رؤية الله عَزَّوَجَلَّ سبعين مرة.

قال ابن القيم[2]: هذا الكلام فوق الجنون بدرجات.

والجواب: لا ينكر تقريره أبا تراب علىٰ مقالته؛ لأن مراده أن ذلك المريد يجهل مقام الأدب والمعرفة بالله تعالىٰ، فهو لا ينتفع برؤيته، ولا يصح أن يمنحه الحق تعالىٰ بشيء من الآداب، بخلاف رؤية أبي يزيد؛ فإنها تعلِّمه طريق الأدب مع الله تعالىٰ ومع خلقه، فكانت أنفع له من رؤية ربه، وهو لا يعرف أنه هو، وهذا شأن أكثر الناس اليوم، فلا يصح لهم الأخذ عن الله تعالىٰ؛ لكثرة حُجُبهم التي بينهم وبينه، فهذا معنىٰ قول أبي تراب، وليس مراده أن رؤية أبي يزيد أفضل من رؤية الله تعالىٰ لمن يعرفه، فافهمْه. والله أعلم.

---

(١) الإحياء: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٤٣.

* ومما أنكروا عليه أيضًا في حكايته عن ابن الكريني شيخ الجنيد أنه قال[1]: نزلت في محلة فعُرفت فيها بالصلاح، فشت قلبي ونفر مني، فدخلت الحمَّام، وسرقت ثيابًا فاخرة ولبستها، ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت، فجعلت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني وأخذوا مني الثياب وصفعوني وسمُّوني: لص الحمام. فسكنت نفسي. قال الغزالي: فهكذا كانوا يروِّضون نفوسهم حتىٰ يخلِّصهم الله تعالىٰ من فتنة النظر إلىٰ الخلق ومراعاتهم لهم، ثم أهل النظر إلىٰ النفس وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا صلاح قلوبهم بذلك، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا في الحمام.

قال ابن القيم[2]: سبحان مَن أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الإحياء! فليته لم يحكِ فيه مثل هذه الأمور التي لا يحل لأحد السكوت عليها، والعجب أنه يحكي هذه الأمور ويستحسنها ويسمي أصحابها: أرباب الأحوال، وأيُّ حالة أقبح من حال مَن خالف الشريعة؟ وأي المصلحة في النهي عن اتباعها؟ وكيف يجوز أن يُطلب صلاح القلوب بفعل المعاصي؟ ثم كيف يجوز التصرف في مال الغير بغير إذنه؛ فإن في نص الإمام أحمد والشافعي أن مَن سرق من الحمَّام ثيابًا عليها حافظ وجب قطع يده. ثم أين أرباب الأحوال أولاً حتىٰ يعمل العبد علىٰ وفاقهم من الرياضة؟ كلا، واللهِ إنها شريعة لو رام مثل أبي بكر رضي الله عنه أن يخرج عنها لَما وجد لذلك مساغًا، ولو أنه خالفها وعمل برأيه لكان عمله مردودًا عليه؛ إذ الحق تعالىٰ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان علىٰ وفق الشريعة المطهرة. قال: وتعجُّبي من هذا الفقيه الذي استلب التصوف عمله وعقله أكثر من تعجبي من هذا

---

(١) الإحياء: كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٤٣.

المستلب للثياب من الحمام، فيا ليت أبا حامد بقي مع قواعد الفقه واستغنىٰ عن هذه الهذيانات.

والجواب عن هذا كله كما سبق قريبًا: أن القوم مجتهدون في أحكام الطريق، فكل ما رأوه أصلح لقلوبهم عملوا به، وذلك من باب تعارض المفسدتين، فيجب ارتكاب الأخف منهما، وأما ما يترتب علىٰ ذلك الفعل شرعًا فقد جربوا حمايتهم من وقوع العقوبة لهم بسببه، بل يعرفهم الناس بعد ذلك ويقبِّلون أيديهم، فاعلمْ ذلك.

قلت: وقد نقل الغزالي مثل هذه الحكاية التي جرت في الحمام لابن الكريني عن إبراهيم الخوَّاص، وأنكر عليه ابن القيم كإنكاره من الأول، وتعجَّب من أبي حامد وقال: فيا ليته لم يتصوف، والجواب واحد، وأن للفقير أن يداوي قلبه ببعض المحرمات ليدفع عنه محرَّمًا آخر هو أشد منه قياسًا علىٰ مداواة الأجسام، والأمراض إنما تُداوَىٰ بأضداد عِلَلها، وأين هلاك الأبدان من هلاك القلوب؟

* ومما أنكروا عليه أيضًا في تقريره الشبلي علىٰ رمي ما كان معه من الدنانير في دجلة وقال: ما أعزك عبدٌ إلا أذله الله تعالىٰ[1].

قال ابن القيم[2]: وأنا أتعجب من أبي حامد أكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشريعة كيف يحكي ذلك عنهم علىٰ وجه المدح لهم لا علىٰ وجه الإنكار، وأي رائحة بقيت من الفقه عند أبي حامد حتىٰ يُكتب عنه شيء من العلم؛ فإن الفقهاء كلهم يقولون: إن رمي المال في البحر لا يجوز.

والجواب قد تقدم مرارًا أن أهل الطريق مجتهدون في أحوالها، وأن من قواعد

(١) الإحياء: كتاب شرح عجائب القلب.
(٢) تلبيس إبليس ص ٣٥٠.

أهل الشريعة ارتكاب أخف الضررين إذا تعارض معنا مفسدتان، وقد تعارض هنا أمران أحدهما مَفسدة للدين فقدموه على المفسد للدنيا، فافهمْ. والله أعلم.

* ومما أنكروا عليه أيضًا: ما حكاه[١] عن شقيق البلخي أنه رأى مع شخص رغيفًا ليفطر عليه من صومه، فهجره وقال: تمسك رغيفًا إلى الليل؟!

قال ابن القيم[٢]: انظروا إلى هذا الجهل العظيم بالشريعة كيف يفعل محرَّمًا لأجل أمر مباح، وكيف يجوز هجر المسلم بغير سبب مسوِّغ لذلك؟! والذي عندي أن هؤلاء لما قل علمهم بالشرع صدرت منهم هذه الأقوال والأفعال المخالفة للشريعة، وقد كان يحيى بن يحيى يقول: عندي أن مخالفة الصوفية من جملة طاعة الله عَزَّوَجَلَّ[٣]، ولكن اصطلح الذئب والغنم، وقد أنكر الفقهاء بمصر على ذي النون وأخرجوه من إخميم[٤] إلى الجزيرة إلى بغداد، وكذلك أنكروا على أبي يزيد البسطامي وعلى أبي سليمان الداراني وأحمد بن أبي الحواري وسهل التستري وغيرهم، كل ذلك لما كانوا يقعون فيه من مخالفة ظاهر الشرع. قال:

---

(١) الإحياء: كتاب ذكر الموت وما بعده.

(٢) تلبيس إبليس ص ٣٥٠، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٦٢.

(٣) في كتاب ذم الرياء لأبي محمد الضرَّاب ص ١٨٧ (ط - دار البخاري بالمدينة المنورة) ما نصه: «ثنا عبد الملك بن بحر قال: ثنا أبو جعفر الوراق قال: سمعت ابن الحجاج الحافظ في مسجد أبي زرعة يقول: سمعت يحيى بن يحيى قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: مخالفة الصوفية من طاعة الله».

ويحيى بن يحيى هو ابن بكر بن عبد الرحمن التميمي النيسابوري، ويحيى بن سعيد هو التميمي المعروف بالقطان، الإمام المشهور. وبهذا يتبين أن صاحب هذه المقولة هو يحيى بن سعيد القطان لا يحيى بن يحيى، وأن هناك سقطًا في المطبوعة. ويحتمل أنه اشتبه الاسمان على الشارح: يحيى ابن يحيى ويحيى بن سعيد.

(٤) إخميم: إحدى مدن محافظة سوهاج بجنوب مصر، وتقع على الضفة الشرقية للنيل، وبها الكثير من الآثار القديمة.

وكانت الزنادقة في العصر الأول يكتمون حالهم ولم يتجاسروا علىٰ إظهار ما عندهم حتىٰ جاءت الصوفية، فرفضوا الشريعة جهرًا، وتستروا بمسمَّىٰ الحقيقة، وصاروا يقولون: هذا شريعة وهذا حقيقة، وهذا من أقبح الأمور؛ لأن الشريعة قد وضعها الحق تعالىٰ لصالح العباد في الدارين، فما الحقيقة بعد ذلك إلا إلقاء الشيطان في النفس، وقد تمادىٰ هؤلاء الجهلة في غيِّهم حتىٰ صار أحدهم يقول: حدثني قلبي عن ربي، وفي ذلك تصريح بالاستغناء عن بعثة الرسل، وهو كفر، وهي حكمة مدسوسة في الشريعة تحتها هذه الزندقة، ولكن قد صار الخوارج عن الشريعة كثيرًا بالسكوت علىٰ هؤلاء الجهَّال الذين سموا أنفسهم صوفية.

وأطال في ذلك.

والجواب: أما هجر شقيق لمن أمسك الرغيف إلىٰ آخر النهار فهو جائز؛ ليخرجه من ورطة الحرص وطول الأمل والوقوع في رائحة الاتهام للحق جل وعلا في أن يضيعه ويميته جوعًا إذا لم يمسك الرغيف، ولو أنه قوي يقينُه لكان تركُه إمساك الرغيف وطلبه وقت الحاجة إليه فقط واستراح من الوقوع في الحرص والشك في أن الله تعالىٰ يضيعه؛ فإن ذلك الرغيف لا يخلو: إما أن يكون مقسومًا له فلا يقدر أحد أن يأكله، فهو ولو رماه في السوق يعود إليه، وإما أن لا يكون مقسومًا له، فأيُّ فائدة في إمساكه؟ فإنه إذا أمسكه إلىٰ وقت الفِطر لا يقدر علىٰ أكله، بل يأكله غيره، فتأملْ. ثم إن العلة في تحريم الهجر إنما هو الأذىٰ للمسلم بغير طريق شرعي، كأنْ يكون لحظِّ نَفْسٍ، وأما هجر الشيخ للمريد ليقبِّح في عينه المباحَ الذي يجرُّه إلىٰ حرام فلا مَنْعَ منه؛ لأنه بطِيب نفسٍ من الشيخ والمريد، وقد كان تابعه[1] علىٰ امتثال أمره والرضا بما يفعله معه من العقوبات علىٰ أعماله الرديئة، فافهم.

---

(١) كذا في المطبوعة، ولعل الصواب: كانت متابعته.

وأما قول ابن القيم: إن مخالفة الصوفية من طاعة الله، فهو في غاية القبح؛ فإن حقيقة الصوفي أنه عالمٌ عمل بعلمه علىٰ وجه الإخلاص، فكيف تكون مخالفة مثل هذا في أفعاله وأقواله من طاعة الله تعالىٰ؟! والإطلاق في محل التفصيل خطأ، وكان الواجب عليه أن يقول: إن مخالفة من انتسب إلىٰ الصوفية وليس هو منهم طاعة وقُربة إلىٰ الله تعالىٰ؛ ليخرج أئمة الطريق.

وأما إنكاره علىٰ أهل الحقيقة وقوله: إن الشريعة كانت كافية عن الحقيقة، فهو كلام صدر بلا تأمُّل، فقد قدَّمنا أن الحقيقة غاية مرتبة الشريعة، وذلك أن الناس في مرتبة الشريعة علىٰ مرتبتين، **إحداهما**: مَن عمل بالشريعة تقليدًا من غير أن يصل إلىٰ مقام اليقين. **والثانية**: مَن عمل بها بعد وصوله إلىٰ مقام اليقين، فليست الحقيقة بأمر زائد علىٰ الشريعة؛ لأن الحقيقة هي الإخبار بالأمور علىٰ ما هي عليه في نفسها، وهذا هو حقيقة الشريعة؛ فإن الشارع لا يخبر إلا بالواقع، فغاية أمر التصوف: الوصول بالرياضات والمجاهدات إلىٰ مقام العلم واليقين.

وأما قوله: إن من قال: حدثني قلبي عن ربي، يكفر، فليس بمسلَّم لقائله علىٰ الإطلاق، إنما يكون كفرًا لو قال: أعطاني الله أمرًا يخالف الشريعة، وصار يتديَّن به، وأما إذا أطلعه الله من طريق الإلهام والتحديث - الذي هو مقام سيدنا عمر رضي الله عنه - علىٰ أسرار الشريعة ودقائقها وعلىٰ زيادة آداب في العمل بها فلا مَنْعَ من ذلك، وما بلغنا أن أحدًا من الأولياء ادَّعىٰ أنه خرج من التقليد للشارع أو خرج عن دائرة عِلمه ﷺ أبدًا، بل كلهم مجمعون علىٰ أن جميع علومهم من باطن شرعه ﷺ، ولا يجوز لأحد منهم العمل بما فهمه منها إلا بعد عرضه علىٰ الكتاب والسُّنة وموافقته لهما، فاعلمْه. والله يغفر لابن القيم ما ظنه بالصوفية؛ فإنه ذب عن الشريعة بحسب فهمه.

* ومما أنكروا عليه: قوله[١]: لا وجه لتحريم سماع الأصوات المطربة مع الضرب بالقضيب والتصفيق؛ فإن آحاد هذه الأمور حلال، فكذلك إذا اجتمعت تكون مباحة، ولا دليل علىٰ تحريم السماع من نص ولا قياس، وإذا كان الصوت موزونًا فلا تحريم.

قال ابن القيم[٢]: لقد نزل أبو حامد بهذا الاحتجاج عن رتبة الفهم الصحيح، وإني لأتعجب من انسلاخه عن الفقه إلىٰ مثل هذه الهذيانات.

والجواب: أن الغزالي رحمه الله كان مجتهدًا في مثل ذلك، فلا لوم عليه من قوله بإباحة اجتماع هذه الأمور.

قال ابن القيم[٣]: وقد بلغنا عن الغزالي ما هو أقبح من القول بإباحة الغناء مع الآلة المطربة وهو قوله[٤]: من أحب الله تعالىٰ وعشقه واشتاق إلىٰ لقائه فالسماع في حقه مؤكد لعشقه. قال[٥]: وهذا خطأ، لا يجوز إطلاق العشق علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنه يقتضي مماسة العاشق لله تعالىٰ، وذلك مُحال. ثم أيُّ توكيد لعشقه في نحو قول المغنِّي[٦]:

---

(١) الإحياء: كتاب آداب السماع والوجد.

(٢) تلبيس إبليس ص ٢٣٧.

(٣) تلبيس إبليس ص ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) الإحياء: كتاب آداب السماع والوجد.

(٥) أي ابن الجوزي.

(٦) البيت في تفسير القرطبي ١٥/ ٤٨٥ (ط - مؤسسة الرسالة) ونهاية الأرب للنويري ٢/ ٤٤ (ط - دار الكتب العلمية) دون نسبة، وبعده:

خوفوني من فضيحته ... ليته وافىٰ وأفتضح

ذهبي اللون تحسب من وجنتيه النار تُقتَدح[1]

وما وجه المناسبة بين الماء والطين وبين خالق السموات والأرضين حتىٰ يعشق؟! تعالىٰ الله عن قول هؤلاء الملحدين علوًّا كبيرًا. قال: ثم العجب من الصوفية بإباحة مثل ذلك مع دعواهم أنهم أعرف بالله تعالىٰ من غيرهم، هذا من أدل دليل علىٰ جهلهم بالله تعالىٰ. قال: وكثيرًا ما يقولون عن بعض الناس: سلِّموا له حاله، وليس لنا أحد من الخلق يُسلَّم له ما يفعل إلا الشارع ﷺ لا غير؛ لعصمته، بخلاف غير المعصوم.

والجواب: أنه لا إنكار علىٰ الغزالي وغيره في تسمية محبة الله عشقًا؛ لأنه لم يَرِد لنا نهيٌ عن ذلك. وأيضًا، فإن العشق أوائل مقدمات المحبة، فلو سمينا العاشق لله تعالىٰ محبًّا له كان كذبًا، فالعاشق يطلب القرب من حضرة محبوبه لا الاتصال به؛ لأنه يعلم أن ذلك مُحال، فلا اعتراض علىٰ الغزالي، ولا لوم عليه في قوله بأخذ الإشارات من الأشعار وغيرها؛ فإن كل ما في الوجود دليلٌ علىٰ الله تعالىٰ، فلا فرق بين أن يأخذ تلك الإشارات المحرِّكة للوَجْد من نفسه أو من غيره، كلُّه علىٰ حد سواء، وتقدم أن القوم يتكلمون غالبًا بلسان السُّكْر والشوق لا بلسان الصحو والعلم، وأن جميع ما تجده في كلامهم لا ينبغي لنا إنكاره إلا إذا وجدنا أحدهم صاحيًا من سُكْر الحال.

فهذا ما تيسَّر لنا بيانه مما أُنكرَ علىٰ أبي حامد الغزالي في كتابه الإحياء، وهم - أي المنكرون - من طوائف شتَّىٰ ما بين مغاربة ومشارقة، ومالكية وشافعية وحنابلة، فمن الأولىٰ: ابن العربي والمازري والطُّرطوشي والقاضي عياض وابن المنيِّر، ومن الثانية: ابن الصلاح ويوسف الدمشقي والبدر الزركشي والبرهان البقاعي، ومن الثالثة: ابن الجوزي وابن تيمية وابن القيم، وآخرون. وقد أوردنا

---

(١) في المطبوعة: تنقدح. والمثبت من تفسير القرطبي ونهاية الأرب.

اعتراضاتهم، وبيَّنَّا وجه الجوابات والاعتذار عن الغزالي حسبما نقلناه عن الأثبات المتقنين، وأما المحبُّون لطريقته والمهتدون بهَدْيه فكثيرون، وجلالة قدره وفخامة كتابه أشهر من الشمس في رائعة النهار، وما أحاط بمقام كتابه إلا مَن أفاض الله علىٰ قلبه الأنوارَ؛ إذ كتابه متكفل ببيان العلوم الشرعية - التي هي علم العقل - وعلم الأحوال وعلم الأسرار، وما فيه من علم الأحوال فلا سبيل إلىٰ معرفته إلا بالذوق، ولا يقدر عاقل علىٰ ذوقه ولا وجدانه ولا أن يقيم علىٰ معرفته دليلاً، وهو متوسط بين علم العقل وعلم الأسرار، وهو إلىٰ علم الأسرار أقرب منه إلىٰ علم العقل النظري، ولا يكاد يلتذ به إذا جاء من غير نبي إلا أصحاب الأذواق السليمة، وعلامة هذا الذوق كونُه خارجًا عن موازين العقول، عكس العلم المكتسَب؛ إذ العلم المكتسب من شأنه أن يكون داخلاً في ميزان العقول، ولذلك لا تتسارع الناس إلىٰ إنكاره، وعلم الأذواق لمَّا كان خارجًا عن موازين العقول تسارعت الناس إلىٰ إنكاره وردِّه.

وهذا القدر كافٍ في بيان المقصود. والله أعلم.

❊ ❊ ❊

عَوْد وانعطاف إلى بيان ما يتعلق بكتاب الإحياء

بيان مَن خدم الإحياء:

لم أرَ مَن خدم هذا الكتاب، ولا تعرَّض أحدٌ لإيضاح سياقه المستطاب، إلا ما كان من المصنف نفسه لمَّا بلغه إنكارُ بعض المنكِرين علىٰ مواضع منه كتب في الرد عليهم كتابًا صغيرًا سماه «الإملاء علىٰ الإحياء»، وسيأتي ذِكره في تعداد مصنفاته، وإنما خرَّج[1] أحاديثه الإمام الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي رحمه الله تعالىٰ في كتابين، أحدهما كبير الحجم في مجلدات، وهو الذي صنفه في سنة ٧٥١، وقد تعذر الوقوف فيه علىٰ بعض أحاديثه، ثم ظفر بكثير مما عزب عنه إلىٰ سنة ٧٦٠، ثم اختصره في مجلد وسماه «المغني عن حمل الأسفار»، اقتصر فيه علىٰ ذِكر طريق الحديث وصحابيه ومخرِّجه وبيان صحته وضعف مَخرجه، وحيث كرر المصنفُ الحديث اكتفىٰ بذكره في أول مرة، وربما أعاده لغرض من الأغراض.

ثم أتىٰ تلميذه الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني فاستدرك عليه ما فاته في مجلد.

وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي كتابًا سماه «تحفة الأحياء فيما فات من تخريج أحاديث الإحياء». ولابن السبكي كلامٌ علىٰ بعض أحاديثه المتكلَّم فيها، سرده علىٰ ترتيب الأبواب في آخر ترجمته من طبقاته الكبرىٰ[2].

---

(١) انظر: كشف الظنون ١/ ٢٤.

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٢٨٧ - ٣٨٨.

بيان من اختصر كتاب الإحياء:

أول من اختصره أخو المصنف وهو أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي - توفي سنة ٥٢٠ - وسماه «لباب الإحياء»، ثم اختصره أحمد بن موسىٰ الموصلي المتوفي سنة ٦٢٢، ثم محمد بن سعيد اليمني، ويحيىٰ بن أبي الخير اليمني، ومحمد بن عمر بن عثمان البلخي وسماه «عين العلم»، وعبد الوهاب بن علي الخطيب المراغي وسماه «لباب الإحياء»، أَلَّفه في بيت المقدس، وهو عندي، والشمس محمد بن علي بن جعفر العجلوني المشهور بالبِلالي، وهو شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر، توفي سنة ٨٢٠، قال الحافظ السخاوي[١]: وهو أحسن المختصرات. والجلال السيوطي الحافظ، وآخرون.

عَوْد وانعطاف إلى ذكر بقية مصنفاته:

١ - الإملاء علىٰ مشكل الإحياء[٢]. أجاب فيه عن بعض ما اعترض عليه في كتابه، ويسمىٰ أيضًا: الأجوبة المُسكِتة عن الأسئلة المبهتة[٣]، وهو مؤلَّف لطيف، عندي.

٢- ومنها: الأربعين[٤]. وهو قسم من كتابه المسمىٰ بجواهر القرآن، وقد أجاز أن يُكتب مفردًا، فكتبوه وجعلوه [كتابًا] مستقلاً، وهو عندي.

---

(١) الضوء اللامع للسخاوي ٨/ ١٧٨ (ط - دار الجيل ببيروت) ونصه: «ولازم النظر في الإحياء، بحيث كاد يأتي عليه حفظًا، وصارت له به ملكة قوية، بحيث اختصره اختصارًا حسنًا جدًا، وكان بالنسبة لأصله كالحاوي مع الرافعي، وانتفع به الناس، وأقبلوا علىٰ تحصيله سيما المغاربة، وقرئ عليه غير مرة».

(٢) كشف الظنون ١/ ٢٣، ١٦٩.

(٣) كشف الظنون ١/ ١٢.

(٤) كشف الظنون ١/ ٦١. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

٣- ومنها: كتاب الأسماء الحسنىٰ[١].

٤ - ومنها: الاقتصاد في الاعتقاد[٢].

٥ - ومنها: إلجام العوام عن علم الكلام[٣].

٦ - ومنها: أسرار معاملات الدين[٤].

٧ - ومنها: أسرار الأنوار الإلهية بالآيات المتلوة[٥]. وهو مرتب علىٰ ثلاثة فصول.

٨ - ومنها: أخلاق الأبرار والنجاة من الأشرار[٦].

٩ - ومنها: أسرار اتباع السُّنة[٧].

١٠ - ومنها: أسرار الحروف والكلمات[٨].

١١ - ومنها: أيها الولد[٩]. وهي فارسية، عرَّبها بعض العلماء وسماها بهذا الاسم، مشهور.

---

(١) ويسمىٰ: المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ. قال حاجي خليفة: «رتبه علىٰ ثلاثة فنون، الأول: في السوابق والمقدمات، وفيه أربعة فصول. الثاني: في المقاصد والغايات، وفيه ثلاثة فصول. الثالث: في اللواحق والتكميلات، وفيه ثلاثة فصول. وقد اختصره شمس الدين محمد بن إبراهيم الخطيب الوزيري المتوفي سنة ٨٦٧». كشف الظنون ٢/ ١٨٠٥.

(٢) كشف الظنون ١/ ١٣٥.

(٣) كشف الظنون ١/ ١٤٨.

(٤) كشف الظنون ١/ ٨٤ باسم: أسرار المعاملات.

(٥) كشف الظنون ١/ ٨٢.

(٦) كشف الظنون ١/ ٣٦.

(٧) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٨) كشف الظنون ١/ ٨٣.

(٩) كشف الظنون ١/ ٢١٦ وفيه: كتبها لبعض أصدقائه نصحًا له، وخاطب بأيها الولد كذا وكذا، وذكر نصائح ووصايا في الزهد والترغيب والترهيب.

حرف الباء:

١٢ - بداية الهداية[١]. وهو مختصر في الموعظة، ذكر فيه ما لا بد منه للعامة من المكلَّفين من العادات والعبادات.

١٣ - ومنها: البسيط[٢]. في فروع المذهب، وهو كالمختصر لـ «نهاية المطلب» لشيخه إمام الحرمين، قال فيه[٣] ابن خلكان[٤]: ما صُنِّف في الإسلام مثله.

١٤ - ومنها: بيان القولين للشافعي[٥].

١٥ - ومنها: فضائح الإباحية[٦].

١٦ - ومنها: بدائع الصنيع[٧].

حرف التاء:

١٧ - تنبيه الغافلين[٨].

١٨ - ومنها: تدليس[٩] إبليس.

١٩ - ومنها: تهافُت الفلاسفة[١٠]. صدَّره بأربع مقدمات، ردَّ فيها علىٰ الفلاسفة،

---

(١) كشف الظنون ١/ ٢٢٨.

(٢) كشف الظنون ١/ ٢٤٥.

(٣) أي كتاب نهاية المطلب.

(٤) وفيات الأعيان ٣/ ١٦٨.

(٥) كشف الظنون ١/ ٦٧٤ باسم: حقيقة القولين. وسيأتي في حرف الحاء.

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٢٧٤. وهذا الكتاب موضعه حرف الفاء.

(٧) كشف الظنون ١/ ٢٣٠.

(٨) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

(٩) في المطبوعة: تلبيس. والمثبت من كشف الظنون ١/ ٣٨٢.

(١٠) كشف الظنون ١/ ٥٠٩.

ثم ذكر بعدها المسائل التي تناقَض مذهبُهم فيها وهي عشرون مسألة، وذكر في خاتمته ما يقطع القول بكفرهم من ثلاثة وجوه. وقد صنَّف في الرد عليه أحدُ علماء الأندلس [وهو][1] القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، قال فيه في آخره[2]: لا شك أن هذا الرجل أخطأ علىٰ الشريعة كما أخطأ علىٰ الحكمة، ولولا ضرورة طلب الحق [مع أهله] ما تكلمت في ذلك [بحرف]. ثم تكلم فيما بعد في المحاكمة بينهما من علماء الروم مصطفىٰ بن يوسف البروسوي[3] المعروف بخواجه زاده، والمولىٰ علاء الدين علي الطوسي[4]، وعلىٰ الأول منهما تعليقة لابن كمال باشا[5].

٢٠- ومنها: التعليقة[6]. في فروع المذهب، كتبه بجُرجان عن الإسماعيلي.

٢١ - ومنها: تحصين المآخذ[7].

٢٢ - ومنها: تحصين الأدلة[8].

---

(١) زيادة للإيضاح.

(٢) تهافت التهافت لابن رشد ٢/ ٨٧٤ (ط - دار المعارف بالقاهرة). والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٣) في المطبوعة: البرموني. والتصويب من كشف الظنون والأعلام للزركلي ٧/ ٢٤٧.

(٤) في المطبوعة: الطرسوسي. والتصويب من كشف الظنون والأعلام ٥/ ٩. وهو علاء الدين علي بن محمد الطوسي البتاركاني، أحد فقهاء الحنفية، من أهل سمرقند. واسم كتابه في المحاكمة: الذخيرة.

(٥) شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا، قاضٍ من العلماء بالحديث، تركي الأصل، ولي قضاء أدرنة ثم الإفتاء بالآستانة إلىٰ أن مات سنة ٩٤٠.

الأعلام ١/ ١٣٣.

(٦) كشف الظنون ١/ ٤٢٤ باسم: التعليقة الكبرىٰ.

(٧) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٥.

(٨) كشف الظنون ١/ ٣٦٠.

٢٣ - ومنها: تفسير القرآن العظيم[١].

٢٤ - ومنها: التفرقة بين الإيمان والزندقة. ذكره عياض في آخر الشفاء[٢].

حرف الجيم:

٢٥ - جواهر القرآن[٣]. ذكر فيه أنه ينقسم إلىٰ علوم وأعمال [والأعمال] ظاهرة وباطنة، والباطنة إلىٰ تزكية وتخلية، فهي أربعة أقسام: [علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مذمومة ومحمودة]، وكل قسم يرجع إلىٰ عشرة أصول، فيشتمل علىٰ زبدة القرآن، وهو عندي.

حرف الحاء:

٢٦ - حجة الحق[٤].

٢٧ - ومنها: حقيقة الروح[٥].

٢٨ - ومنها: حقيقة القولين[٦].

حرف الخاء:

٢٩ - خلاصة الوسائل[٧] إلىٰ علم المسائل. في فروع المذهب، أحد الكتب المشهورة، ذكر فيه أنه اختصره من مختصر المزني وزاد عليه.

---

(١) سيأتي في حرف الياء باسم: ياقوت التأويل.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ للقاضي عياض ٢/ ٢٨١ (ط - دار الكتب العلمية).

(٣) كشف الظنون ١/ ٦١٥. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

(٦) تقدم في حرف الباء باسم: بيان القولين للشافعي.

(٧) في المطبوعة: الرسائل. والتصويب من كشف الظنون ١/ ٧١٩.

حرف الراء:

٣٠ - رسالة الأقطاب[١].

٣١ - ومنها: رسالة الطير[٢].

٣٢ - ومنها: الرد علىٰ من طغىٰ[٣].

٣٣ - ومنها: الرسالة القدسية بأدلتها البرهانية[٤]. في علم الكلام، كتبها لأهل القدس، وقد شرحها المصنف.

حرف السين:

٣٤ - السر المصون[٥]. وهو مؤلف صغير رتب فيه الآيات القرآنية علىٰ أسلوب غريب، يذكر بعد كل جملة منها: أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة، لا قدرة لهم علىٰ إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال.

حرف الشين:

٣٥ - شرح دائرة علي بن أبي طالب المسماة: جنة[٦] الأسماء، وهو مشهور بين

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٢) كشف الظنون ١/ ٨٧٧.

(٣) في المطبوعة: طعن. والتصويب من طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٤) كشف الظنون ١/ ٨٨١ وفيه: «وهي الرسالة التي كتبها لأهل القدس مفردة، ثم أودعها في كتاب قواعد العقائد وهو الثاني من كتب الإحياء، ذكر فيها أن كلمتَي الشهادة تتضمن إثبات ذات الله سبحانه وتعالىٰ وصفاته وأفعاله وصدق الرسول، فعُلم أن بناء الإيمان علىٰ هذه الأركان. وهي أربعة، يدور كل ركن منها علىٰ عشرة فصول».

(٥) في كشف الظنون ٢/ ٩٨٩: «السر المصون والجوهر المكنون، للغزالي، وهو المشهور بالخاتم، ويسمىٰ: الدر النظيم. استخرجه من الجفر. قال البقاعي: وهو مدسوس علىٰ الغزالي كالمضنون به».

(٦) في المطبوعة: نخبة. والمثبت من كشف الظنون ١/ ٦٠٦.

أيدي الناس.

٣٦ - ومنها: شفاء العليل في بيان مسألة التعليل[١]. رتبه على مقدمة وخمسة أركان، وهو عندي. المقدمة في بيان معاني القياس والعلة والدلالة. الركن الأول: في إثبات علة الأصل. الثاني: في العلة. الثالث: في الحكم. الرابع: في القياس. الخامس: في الفرع الملحق بالأصل.

حرف العين:

٣٧ - عقيدة المصباح[٢].

٣٨ - ومنها: عجائب صنع الله[٣].

٣٩ - ومنها: عنقود المختصر[٤]. وهو تلخيص المختصر المقتصر من المزني لأبي محمد الجويني.

حرف الغين:

٤٠ - غاية الغور في مسائل الدور[٥]. ألَّفها في المسألة السُّرَيجية على عدم وقوع الطلاق، ثم رجع وأفتى بوقوعه[٦].

---

(١) في طبقات السبكي ٦/ ٢٢٥: مسالك التعليل. وفي كشف الظنون ٢/ ١٠٥١: القياس والتعليل.

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧، ولعله ما طبع باسم «الحكمة في مخلوقات الله» بتحقيق محمد رشيد قباني، وصدر عن دار إحياء العلوم ببيروت عام ١٣٩٨هج. والله أعلم.

(٤) في كشف الظنون ٢/ ١١٧٤: عنقود المختصر ونقاوة المعتصر.

(٥) كشف الظنون ٢/ ١١٩٢.

(٦) زاد في كشف الظنون: «ذكر فيه أنه لما دخل بغداد سنة ٤٨٤ تواترت عليه الأسئلة عن دور الطلاق، وذكر أنه رأى أكثرهم قد أطبقوا على إبطال الدور، فصنف هذه الرسالة».

٤١ - ومنها: غور الدور[١]. في المسألة المذكورة، وهو المختصر الأخير، ألفه ببغداد في سنة ٤٨٤.

حرف الفاء:

٤٢ - الفتاوىٰ. مشتملة علىٰ مائة وتسعين مسألة. غير مرتب[٢].

٤٣ - فاتحة العلوم[٣]. وهو مشتمل علىٰ فصلين.

٤٤ - فضائح الباطنية[٤].

٤٥ - الفكرة والعبرة[٥].

٤٦ - فواتح السور[٦].

٤٧ - الفرق بين الصالح وغير الصالح. ذكره في كتابه: نصيحة الملوك[٧].

---

(١) كشف الظنون ٢/ ١٢١٣ باسم: الغور في الدور.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٢٢٧. وفيه: «وله فتاوىٰ غير ذلك ليست بمشهورة».

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٢١٤.

(٤) هو كتاب المستظهري، وسيأتي في حرف الميم.

(٥) كشف الظنون ٢/ ١٢٨٨.

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٢٩٣.

(٧) التبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي ص ٨٨ (ط - دار الكتب العلمية) وعبارته: «وإنما ذكرنا هذا ليعلم من يقرأ كتابنا هذا الفرق بين الصالح وغير الصالح». وهذه العبارة صريحة في أنه ليس للغزالي كتاب يسمىٰ: الفرق بين الصالح وغير الصالح، فقوله «كتابنا هذا» يشير به إلىٰ كتاب التبر المسبوك. وقوله «الصالح وغير الصالح» هو كلام الغزالي في معرض حديثه عن الوزير الصالح والوزير غير الصالح، فتوهم الزبيدي أنه اسم كتاب. ولم يذكر السبكي ولا حاجي خليفة كتابًا بهذا الاسم في مصنفات الغزالي. وقد أشار الزركلي في الأعلام ٧/ ٢٢ إلىٰ أن كتاب «الفرق» هذا مخطوط، ولم يزد علىٰ ذلك. والعلم عند الله تعالىٰ.

حرف القاف:

٤٨ - القانون الكلي[١].

٤٩ - ومنها: قانون الرسول[٢].

٥٠ - ومنها: القربة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ[٣].

٥١ - ومنها: القسطاس المستقيم[٤]. مختصر جعله ميزانًا لإدراك حقيقة المعرفة[٥].

٥٢ - قواعد العقائد[٦]. وهو في علم الكلام، شرحه السيد ركن الدين [الحسن ابن محمد] الأستراباذي والعلامة محمد أمين بن صدر الدين الشرواني.

٥٣ - القول الجميل في الرد علىٰ من غيَّر الإنجيل[٧].

حرف الكاف:

٥٤ - كيمياء السعادة والعلوم[٨]. بالفارسية، وهو كتاب كبير، يقال إنه ترجم فيه

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٣١٠.

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٣٢٤.

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٣٢٦.

(٥) زاد في كشف الظنون: «وقسمه إلىٰ الأكبر والأوسط والأصغر».

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٣٥٨. والزيادة التي بين حاصرتين منه.
وهو جزء من كتاب الإحياء.

(٧) ذكره في كشف الظنون ١/ ٨٣٧ باسم: الرد الجميل علىٰ من غيَّر التوراة والإنجيل، وقال: «ذكره البقاعي في الأقوال القويمة». ثم ذكره مرة أخرىٰ في ٢/ ١٣٦٣ باسم: القول الجميل في الرد علىٰ من غير الإنجيل.

(٨) كشف الظنون ٢/ ١٥٣٣ وفيه: «كيمياء السعادة، فارسي في الموعظة والأخلاق للغزالي، رتبه علىٰ أربعة عنوانات وأربعة أركان للعوام الملتمسين طريق المعرفة، كما قال في خطبته، العنوان الأول: في معرفة النفس. العنوان الثاني: في معرفة الرب. العنوان الثالث: في معرفة الدنيا. العنوان الرابع: في معرفة العقبىٰ».

كتابه الإحياء، وقد رأيته بمكة، وقد تكلم عليه في مواضع منه، تقدمت الإشارة إليه. وكتاب آخر صغير بالعربية نحو أربعة كراريس سماه كذلك، وهو عندي.

٥٥ - ومنها: كشف علوم الآخرة[١].

٥٦ - ومنها: كنز العدة[٢].

حرف اللام:

٥٧ - اللباب المنتحل في الجدل[٣].

حرف الميم:

٥٨ - المستصفىٰ في أصول الفقه[٤]. مؤلف ضخم، رتَّبه علىٰ مقدمة وأربعة أقطاب[٥] وخاتمة، فالمقدمة فيها للتوطئة والتمهيد، والأقطاب هي المشتملة علىٰ لباب المقصود، القطب الأول: في الأحكام[٦]. الثاني: في الأدلة الحُكْمية. الثالث: في ذكر الاشتهار[٧] والمناسبة. الرابع: في الاستمرارات[٨]. والخاتمة: في الإيقاعات. وذكر في أوله أنه صنفه قبل الإحياء. واختصره أبو العباس أحمد ابن محمد الإشبيلي المتوفي سنة ٦٥١. وشرحه الفاضل أبو علي الحسين بن

---

(١) كشف الظنون ١/ ٧٤٢ باسم: الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٥١٧.

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٨٤٨.

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٦٧٣.

(٥) في المطبوعة: أقطار. والمثبت من كشف الظنون.

(٦) في المطبوعة: والقطر الأول في الأحكام المشتملة علىٰ لباب المقصود. والتصويب من كشف الظنون.

(٧) في كشف الظنون: في طريق الاستثمار.

(٨) في كشف الظنون: في المستثمر.

عبد العزيز الفهري المتوفى سنة ٧٧٦[1]. وعليه تعليقة لسليمان بن داود[2] الغرناطي المتوفى سنة ٨٣٢.

٥٩ - ومنها: المنخول في الأصول. قال ابن السبكي[3]: ألَّفه في حياة أستاذه إمام الحرمين. قلت: والذي يقتضيه سياق عبارة «المستصفىٰ» في أوله أنه متأخر عن الإحياء وكيمياء السعادة وجواهر القرآن؛ لأنه بعدما ذكر هذه الكتب الثلاثة قال[4]: ثم ساقني التقدير الإلهي إلىٰ التصدُّر للتدريس، فكتبت من تقريري في علم أصول الفقه، فحصَّلوا تصنيفًا علىٰ طريق لم يقع مثله في تهذيب الأصول، فلما أكملوه عرضوه عليَّ، ولم أخيب سعيهم،، وسميته: المنخول. وللشيخ شمس الائمة الكردري الحنفي[5] في الرد عليه مصنف لطيف، وهو عندي.

---

(١) ذكره الزركلي في الأعلام ٢/ ٢٤١ وقال: «أبو علي، المعروف بابن الناظر، قاض أندلسي، من العلماء بالحديث والقراءات، له مصنفات فيهما» ولم يذكر شرحه علىٰ المستصفىٰ، وأرخ وفاته سنة ٦٩٩. وأرخ حاجي خليفة وفاته سنة ٦٧٩.

(٢) في كشف الظنون: سليمان بن محمد، وأرخ وفاته سنة ٦٣٩.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٥.

(٤) المستصفىٰ ١/ ٥ ونصه: «ثم ساقني قدر الله تعالىٰ إلىٰ معاودة التدريس والإفادة، فاقترح عليَّ طائفة من محصِّلي علم الفقه تصنيفًا في أصول الفقه أصرف العناية فيه إلىٰ التلفيق بين الترتيب والتحقيق، وإلىٰ التوسط بين الإخلال والإملال علىٰ وجه يقع في الحجم دون كتاب تهذيب الأصول؛ لميله إلىٰ الاستقصاء والاستكثار، وفوق كتاب المنخول؛ لميله إلىٰ الإيجاز والاختصار. فأجبتهم إلىٰ ذلك مستعينًا بالله، وجمعت فيه بين الترتيب والتحقيق، الترتيب للحفظ، والتحقيق لفهم المعاني، فلا مندوحة لأحدهما عن الثاني، فصنفته وأتيت فيه بترتيب لطيف عجيب، يطلع الناظر في أول وهلة علىٰ جميع مقاصد هذا العلم، ويفيده الاحتواء علىٰ جميع مسارح النظر فيه، وقد سميته: المستصفىٰ».

(٥) هو أبو الوحدة محمد بن عبد الستار العمادي، توفي سنة ٦٤٢. والكردري نسبة إلىٰ كردر، وهي ناحية كبيرة من بلاد خوارزم.

٦٠ - ومنها: المآخذ. في الخلافيات بين الحنفية والشافعية[١].

٦١ - ومنها: المبادئ والغايات في أسرار الحروف المكنونات[٢].

٦٢ - ومنها: المجالس الغزالية[٣]. ذكر ابن السبكي أنه لما عقد مجلس الوعظ ببغداد ازدحم الناس عليه، فكان يدوِّن مجالس وعظِه من وراء الناس الشيخُ صاعد بن فارس المعروف بابن اللَّبَّان، فبلغت ثلاثة[٤] وثمانين مجلسًا، ثم قرأها بعد ذلك عليه فأجازه بها بعد أن صححها، فبيَّضها في مجلدين ضخمين.

٦٣ - ومنها: مقاصد الفلاسفة[٥]. عرَّف فيه مقصدهم، وحكىٰ عن معلوماتهم.

٦٤ - ومنها: المنقذ من الضلال والمُفصِح عن الأحوال[٦]. [وهو مختصر] بث فيه غاية العلوم وأسرارها، والمذاهب وأغوارها، وردَّ فيه علىٰ الحكماء الفلاسفة، ونسبهم إلىٰ الكفر والضلال، وهو عندي.

٦٥ - ومنها: معيار النظر[٧].

٦٦ - ومنها: معيار العلم[٨]. في المنطق.

(١) كشف الظنون ٢/ ١٥٧٣ وزاد: «ثم صنف كتابًا آخر لتقويته سماه: حصن المأخذ».

(٢) ذكر في كشف الظنون ٢/ ١٥٧٩ أن هذا الكتاب لمحيي الدين ابن عربي، ثم ذكر بعده كتاب الغزالي باسم: المبادئ والغايات في قتل المسلم بالذمي.

(٣) هذا وهم من الزبيدي رحمه الله، فهذه المجالس لأخيه أحمد، كما في كشف الظنون ٢/ ١٥٩٠. وكلام السبكي مذكور في ترجمته من الطبقات ٦/ ٦٠.

(٤) في المطبوعة: مائة وثلاثة. والمثبت من طبقات السبكي وكشف الظنون.

(٥) كشف الظنون ٢/ ١٧٨٠. وعبارته: «عرف فيه مذاهبهم، وحكىٰ مقاصدهم من علومهم».

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٨٦٩. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٧) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٥.

(٨) كشف الظنون ٢/ ١٧٤٤.

٦٧ - ومنها: محك[١] النظر.

٦٨ - ومنها: مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار[٢]. في الموعظة، حصر مقصوده في ثمانية وأربعين بابًا، قال في أوله: انكشف لأرباب القلوب أن لا وصول إلىٰ السعادة للإنسان إلا بإخلاص العلم والعمل للرحمن، فسنح في خاطري أن أجمع كتابًا جامعًا لجميع أشياء من آيات القرآن العظيم وسنن الرسول عليه الصلاة والسلام وكلمات الأولياء ونكت المشايخ رحمهم الله تعالىٰ وحِكَم أهل العرفان، وأخذت من كلٍّ ما يشوق القلب إليه سبحانه وطاعته، ويقطع لذة النفس عن الدنيا وشهواتها، ويرغِّبها في الآخرة ودرجاتها ... إلىٰ آخر ما قال. وهو عندي.

٦٩ - ومنها: المستظهري في الرد علىٰ الباطنية[٣].

٧٠ - ومنها: ميزان العمل[٤].

٧١ - ومنها: قواصم[٥] الباطنية. قال ابن السبكي: وهو غير المستظهري في الرد

(١) في المطبوعة: محل. والمثبت من طبقات السبكي ٦/ ٢٢٥ وكشف الظنون ٢/ ١٦١٦.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٦٩٣. وقد ذكر له حاجي خليفة كتابًا آخر بعنوان: مشكاة الأنوار في رياض الأزهار، وقال: «وهو رسالة علىٰ ثلاثة فصول كتبها لبعض أحبابه، الفصل الأول: في بيان أن النور الحق الفصل. الثاني: في بيان المشكاة والمصباح. الفصل الثالث: في معنىٰ قوله ﷺ: إن لله تعالىٰ سبعين حجابًا». ثم ذكر كتابًا آخر بعنوان: مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار، وقال: «رسالة مشتملة علىٰ فصول في قوله تعالىٰ (الله نور السموات والأرض) مع قوله ﷺ: إن لله سبعين ألف حجاب». ثم عقب علىٰ ذلك بقوله: «هذا هو مشكاة الغزالي، علىٰ ما رأيته بخط بعض الأكابر، وأما الأول ففي كونه له نظر ما رأيت التصريح به، وإنما اشتهر بالنسبة إليه غلطًا والتباسًا بهذه المشكاة».

(٣) كشف الظنون ٢/ ١٦٧٤. ويسمىٰ أيضًا: فضائح الباطنية.

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٩١٨.

(٥) في المطبوعة: مواهم. والتصويب من طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

عليهم.

٧٢ - ومنها: المنهج الأعلىٰ[١].

٧٣ - ومنها: معراج السالكين[٢]. وهو مختصر أورد فيه المواعظ والتذكير.

٧٤ - ومنها: المكنون في الأصول[٣].

٧٥ - ومنها: مسلَّم السلاطين[٤].

٧٦ - ومنها: مفصل الخلاف في أصول القياس[٥].

٧٧ - ومنها: منهاج العابدين إلىٰ جنة رب العالمين[٦]. قيل: هو آخر تآليفه، رتَّبه علىٰ سبع عقبات[٧]، وقال في أوله[٨]: صنفنا في قطع طريق الآخرة وما يحتاج إليه من علم وعمل كتبًا كإحياء العلوم والقربة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يحسنوها، فأيُّما كلام أفصح من كلام رب العالمين؟ وقد قالوا: أساطير الأولين، واقتضت الحال النظر إلىٰ كافة خلق الله بعين الرحمة، وترك المماراة، فابتهلت إلىٰ الله سبحانه أن يوفِّقني لتأليف كتاب يقع عليه الإجماع، ويحصل بقراءته الانتفاع، فأجابني، وأطلعني بفضله وكرمه علىٰ أسرار ذلك، وألهمني

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٦.

(٢) كشف الظنون ٢/ ١٧٣٨.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ٢٢٧.

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٨٧٦.

(٧) زاد في كشف الظنون: «الأولىٰ: عقبة العلم، الثانية: عقبة التوبة، الثالثة: عقبة العوائق، الرابعة: عقبة العوارض، الخامسة: عقبة البواعث، السادسة: عقبة القوادح، السابعة: عقبة الحمد والشكر. وهو كتاب لطيف نافع لمن أراد الآخرة وأعرض عن الدنيا».

(٨) منهاج العابدين للغزالي ص ٤٩ (ط - مؤسسة الرسالة).

ترتيبًا عجيبًا لم أذكره في [المصنفات][١] التي تقدمت. وقد شرحه شمس الدين البلاطنسي[٢] شرحين كبيرًا وصغيرًا، ثم اختصر المنهاج في جزء سماه: بغية الطالبين. قلت: ولم يذكره ابن السبكي في تعداد مصنفاته، ورأيت في كتاب «المسامرة» للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي قُدِّس سرُّه ما نصه[٣]: إن الشيخ أبا الحسن علي بن خليل السُّبْتي[٤] كان عالمـًا بالحقيقة، عارفًا، مخمول[٥] الذكر، رأيته بسُبْتة، وتباحثت معه، ورأيت له تصانيف، منها: منهاج العابدين، الذي يُعزَىٰ لأبي حامد الغزالي، وليس له. وهو غريب يستفاد.

حرف النون:

٧٨ - نصيحة الملوك[٦]. فارسي، نقله بعضهم إلىٰ العربية وسماه: التبر المسبوك.

حرف الواو:

٧٩ - الوجيز في الفروع[٧]. أخذه من «البسيط» و«الوسيط» له، وزاد فيه أمورًا، وهو كتاب جليل، عمدة في المذهب، شرحه الفخر الرازي، وأبو الثناء محمود بن

---

(١) زيادة من منهاج العابدين.

(٢) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل البلاطنسي ثم الدمشقي، فقيه شافعي صوفي، له مصنفات، توفي سنة ٨٦٣. وهو منسوب إلىٰ بلاطنس: حصن قرب اللاذقية. الأعلام ٦/ ٢٣٧.

(٣) محاضرات الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي ١/ ٢٢٤ (ط - دار اليقظة العربية).

(٤) المعروف بالمسفِّر، وهو من القائلين بوحدة الوجود، توفي سنة ٦٠٠ تقريبًا. الأعلام ٤/ ٢٨٥.

(٥) في المحاضرات: محمود.

(٦) كشف الظنون ٢/ ١٩٥٨. وفيه: «نصيحة الملوك، وهو التبر المسبوك، وترجمته: نتيجة السلوك، نقله صفي الدين أبو الحسن الإربيلي عم ابن المستوفي إلىٰ العربية بغير تغيير شيء من وضع الكتاب علىٰ ترتيبه وصورته».

(٧) كشف الظنون ٢/ ٢٠٠٢.

أبي بكر الأرموي، والعماد أبو حامد محمد بن يونس الإربلي، وأبو الفتوح العِجلي، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي وسماه: العزيز علىٰ الوجيز. وقد تورَّع بعضُهم فسماه: فتح العزيز، وقد اختصر النووي من شرح الرافعي كتابًا سماه: الروضة. وقد خدم «الوجيز» علماء كثيرون، يقال: إن له نحو سبعين شرحًا، وقد قيل: لو كان الغزالي نبيًّا لكان معجزته الوجيز. وأما مَن خرَّج أحاديثه فابن الملِّقن في سبع مجلدات سماه: البدر المنير، ثم اختصره في أربع مجلدات[١] سماه: الخلاصة، ثم لخصه وسماه: المنتقىٰ، في جزء، وهو عندي، ولخصه أيضًا الحافظ ابن حجر، ومنهم: البدر ابن جماعة، والبدر الزركشي، والشهاب البوصيري، والجلال السيوطي، وآخرون.

٨٠ - ومنها: الوسيط في فروع الفقه[٢]. وهو ملخَّص من بسيطه مع زيادات، وهو أحد الكتب الخمس المتداولة [بين الشافعية][٣] شرحه تلميذه محمد بن يحيىٰ النيسابوري وسماه: المحيط، في ستة عشر مجلدًا، وشرحه نجم الدين أحمد بن علي ابن الرفعة في ستين مجلدًا وسماه: المطلب، وشرحه النجم القَمُولي وسماه: البحر المحيط، وشرحه الظهير جعفر بن يحيىٰ التِّزْمَنْتي[٤]، ومحمد بن عبد الحكم، والعز عمر بن أحمد المدلجي، وأبو الفتوح العِجلي، وإبراهيم بن عبد الله بن أبي الدم، وابن الصلاح علىٰ الربع الأول في ضربين[٥]، والكمال أحمد بن عبد الله الحلبي[٦] الشهير بابن الأستاذ

---

(١) في كشف الظنون: في مجلدين.

(٢) كشف الظنون ٢/ ٢٠٠٨.

(٣) زيادة من الكشف.

(٤) نسبة إلىٰ تزمنت، وهي قرية كبيرة تقع جنوب مدينة بني سويف بمصر.

(٥) في الكشف: في جزأين.

(٦) في المطبوعة: الحلبي. والتصويب من كشف الظنون وطبقات ابن كثير ٢/ ٨٠٧.

في أربع مجلدات، ويحيىٰ بن أبي الخير اليمني. وعليه حواشٍ للعماد عبد الرحمن بن علي المصري القاضي. وخرَّج أحاديث «الوسيط» السراج ابن الملقن وسماه: تذكرة الأخيار بما في الوسيط من الأخبار، في مجلد[١]. واختصره النور إبراهيم بن هبة الله الإسنوي. وشرح فرائضه فقط إبراهيم بن إسحاق المناوي.

وقد مدح كتبه الأربعة أبو حفص عمر بن عبد العزيز [بن عبيد] بن يوسف الطرابلسي فقال[٢]:

هذَّبَ المذهب حبرٌ أحسن اللهُ خَلاصَهْ
ببسيط ووسيط ووجيز وخُلاصَهْ

حرف الياء:

٨١ - ياقوت التأويل في تفسير التنزيل[٣]. أربعون مجلدًا.

تنبيه:

اعلم أنه قد عُزي إلىٰ الشيخ أبي حامد الغزالي كتبٌ، وقد صرَّح أهل التحقيق أنها ليست له، من جملتها: «السر المكتوم في أسرار النجوم»، ونُسب هذا الكتاب إلىٰ الإمام الفخر، فأنكر كونه له أيضًا، لكن أصحاب الروحانيين وأهل التصحيح ينقلون منه أشياء كثيرة بقولهم: قال الفخر الرازي في كتابه السر المكتوم في أسرار النجوم كذا وكذا. قال صاحب «تحفة الإرشاد»: هو موضوع عليه[٤].

---

(١) في المطبوعة: في مختصر. والتصويب من كشف الظنون.

(٢) البيتان في طبقات السبكي ٦/ ٢٢٣، ومعجم البلدان ٤/ ٢٦، والوافي بالوفيات ٢٢/ ٣١٦.

(٣) كشف الظنون ٢/ ٢٠٤٨.

(٤) قال حاجي خليفة: «السر المكتوم في مخاطبة الشمس والقمر والنجوم، للإمام فخر الدين الرازي، قيل: إنه مختلق عليه، فلم يصح أنه له، وقد رأيت في كتاب أنه لأبي الحسن الحوالي =

ومنها: كتاب «تحسين الظنون»[١]، وله فيه[٢]:

لا تظنوا الموت موتًا إنه لَحياةٌ وهي غايات المُنَىٰ

أحسنوا الظن برب راحم تشكروا السعىٰ وتأتوا أمنا

ما أرىٰ نفسي إلا أنتم واعتقادي أنكم أنتم أنا

وقد صرَّح الشيخ الأكبر أنه موضوع.

ومنها: كتاب «النفخ والتسوية»، فإنه كذلك موضوع عليه[٣].

ومنها: «المضنون به علىٰ غير أهله»[٤]. قال ابن السبكي[٥]: ذكر ابن

= المغربي. قال الذهبي في الميزان أن له كتاب أسرار النجوم، سحر صريح. قال التاج السبكي في هامشه: هذا الكتاب المسمىٰ بالسر المكتوم في مخاطبة النجوم لم يصح أنه له، وقيل إنه مختلق عليه، وبتقدير صحة نسبته إليه فليس بسحر، فليتأمله من يحسن السحر. وعليه رد للشيخ زين الدين سريجا بن محمد الملطي سماه: انقضاض البازي في انفضاض الرازي» كشف الظنون ٢/ ٩٨٩، ولأخينا الشيخ عثمان النابلسي كتاب بعنوان: (موقف الإمام الرازي من السحر ودعوة الكواكب)، أثبت فيه براءة الإمام الرازي من السحر، وبيّن بالأدلة القطعية أن كتاب السرِّ المكتوم المنسوب للرازي يتضمَّن نصوصـًا صريحةً في إبطال السحر وأصوله، وأن غرض مؤلفه تحقيق مذاهب السحرة مع التبرِّي من كل ما يُخالف الدين وسُلَّم اليقين كما قال مُصنِّفُه.

(١) لم يذكر حاجي خليفة ولا السبكي كتابًا بهذا الاسم في مصنفات الغزالي. وكذلك لم يذكره ابن عربي في محاضرات الأبرار.

(٢) الأبيات الثلاثة ضمن قصيدة طويلة لعلي بن خليل السبتي المسفر، أوردها ابن عربي في محاضرات الأبرار ١/ ٢٢٤. وقد أورد الأبيات الثلاثة فقط حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٨٧٧ نقلاً عن كتاب ابن عربي.

(٣) كما ذكره ابن عربي في محاضرات الأبرار ١/ ٢٢٤ وقال: «وتسميه الناس: المضنون الصغير». ونقله عنه حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ٩٨٩ وسماه: النصح والتسوية.

(٤) كشف الظنون ٢/ ١٧١٣.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ٢٥٧.

الصلاح[١] أنه منسوب إليه وقال: معاذ الله أن يكون له. وبيَّن سبب كونه مختلَقًا موضوعًا عليه، والأمر كما قال، وقد اشتمل علىٰ التصريح بقِدَم العالَم ونفيِ العلم القديم بالجزئيات [ونفي الصفات][٢] وكل واحدة من هذه يكفِّر الغزاليُّ قائلَها هو وأهل السنة أجمعون، فكيف يُتصوَّر أنه يقولها[٣]؟! وهو عندي. وفي «المسامرة» أنه من تأليف علي بن خليل السبتي[٤]، وكذلك صرَّح صاحب «تحفة الإرشاد» بأنه موضوع عليه. وقد صنَّف أبو بكر محمد بن عبيد الله المالقي كتابًا في رده[٥]، وتوفي سنة ٧٥٠.

❊ ❊ ❊

(١) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح ١/ ٢٦٣ ونصه: «كتاب المضنون المنسوب إليه معاذ الله أن يكون له، وقد شاهدت علىٰ ظهر كتاب نسخة منه بخط الصدر المكين القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري أنه موضوع علىٰ الغزالي ومختَرَع من كتاب مقاصد الفلاسفة، الذي نقضه بكتاب تهافت الفلاسفة، وأنه نفذ في طلب هذا الكتاب إلىٰ البلاد البعيدة فلم يقف له علىٰ خبر، قال: وهذه النسخة ظهرت في هذا الزمان الغريب، ولا يليق بما صح عندنا من فضل الرجل ودينه. قلت: وقد نُقل كتاب آخر مختصر نُسب إليه، ولما بحثنا عنه تحققنا أنه وُضع عليه، وفي آخر هذه النسخة بخط آخر: هذا منقول من مقاصد الفلاسفة حرفًا بحرف، والغزالي إنما ذكره في المقاصد حكاية عنهم غير معتقد له، وقد نقضه بكتاب التهافت. وهذا الكتاب فيه التصريح بقدم العالم ونفي الصفات وبأنه لا يعلم الجزئيات سبحانه وتعالىٰ، والإشارة إلىٰ إحالة حشر الأجساد بإثبات التناسخ، ولم يكن هذا معتقده».

(٢) زيادة من كشف الظنون وطبقات السبكي.

(٣) زاد في الكشف: «وهو أجوبة مسائل تسع سئل عنها الغزالي، وفي التاسعة فصول كثيرة، قال: يشتمل علىٰ أربعة أركان، الأول: في معرفة الربوبية، الثاني: في معرفة الملائكة، الثالث: في حقائق المعجزات، الرابع: في معرفة ما بعد الموت».

(٤) لم يرد ذلك في محاضرات ابن عربي. وقد نسب ابن عربي كتابين فقط لعلي بن خليل وهما: منهاج العابدين، والنفخ والتسوية.

(٥) اسم هذا الكتاب: السجم الواكفة في الرد علىٰ ما تضمنه المضنون به من اعتقادات الفلاسفة. كما في الأعلام ٦/ ٢٦٠.

الفصل العشرون: في بيان من تتلمذ عليه وتفقه به وصحبه وروى عنه

وفي أثناء ذلك نورد بعض أسانيدنا إلىٰ المصنِّف.

فمنهم: القاضي[١] أبو نصر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الخَمْقَري، منسوب إلىٰ خمس قرىٰ التي تُعرَف بـ «بَنْج دِيه»[٢]. ولد سنة ٤٦٦، وتفقَّه بطوس علىٰ أبي حامد الغزالي، وسمع الحديث من آخرينَ. توفي سنة ٥٤٤.

ومنهم: الإمام[٣] أبو الفتح أحمد بن علي بن محمد بن بَرْهان - بفتح الموحدة - الأُصولي. كان حنبليًّا، ثم انتقل وتفقَّه علىٰ الشاشي وأبي حامد الغزالي والكيا، وكان يدِّرس في النِّظامية في أنواع العلوم، وكان يدِّرس لهم في الإحياء في نصف الليل، وقد سمع الحديث من ابن البَطِر وأبي عبد الله النِّعالي، وسمع «البخاري» قراءةً علىٰ أبي طالب الزينبي. وُلد سنة ٤٧٩، وتوفي سنة ٥١٨.

ومنهم: أبو منصور[٤] محمد بن أسعد بن محمد[٥] بن الحسين بن القاسم العَطَّاري الطوسي الواعظ الملقب بحَفَدة. وُلد[٦] سنة ٤٨٦، وتفقه بطوس علىٰ أبي حامد الغزالي، وبمرو علىٰ أبي بكر السمعاني، وسمع من البغوي كتبه وأبي

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ٢٠.

(٢) في المطبوعة: بسيخ ريه. والتصويب من طبقات السبكي ومعجم البلدان ١/ ٤٩٨. قال ياقوت: «وهي كذلك خمس قرىٰ متقاربة من نواحي مرو الروذ ثم من نواحي خراسان، عمرت حتىٰ اتصلت العمارة بالخمس قرىٰ وصارت كالمَحالِّ بعد أن كانت كل واحدة مفردة، وقد تعرَّب فيقال لها: فنج ديه، وينسبون إليها: فنجديهي، وقد يختصرون فيقولون: بَنْدَهي». وذكر السبكي أسماء هذه القرىٰ الخمس وهي: أبغاني، ومرست، ويزد، وكريكان، وبهونة.

(٣) طبقات السبكي ٦/ ٣٠.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ٩٢.

(٥) في المطبوعة: محمد بن إسماعيل بن الحسين. والتصويب من طبقات السبكي.

(٦) في المطبوعة: توفي. وهو خطأ.

الفتيان الدِّهستاني الحافظ. توفي بتبريز[1] سنة ٥٧٣.

ومنهم: السديد[2] أبو سعد محمد بن أسعد بن محمد النوقاني، تفقه علىٰ أبي حامد الغزالي، وقُتل في مشهد علي بن موسىٰ الرضا في سنة ٥٥٦ في واقعة الغُزِّ[3].

ومنهم: أبو عبد الله[4] محمد بن عبد الله بن تُومَرْت المَصْمُودي الملَّقب بالمهدي، صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن علي ملك المغرب. دخل المشرق فتفقه علىٰ أبي حامد الغزالي والكيا، وأخباره طويلة ذكرها الإخباريون.

ومنهم: أبو حامد[5] محمد بن عبد الملك بن محمد الجَوْزَقاني الأسفراييني، تفقه علىٰ أبي حامد الغزالي ببغداد، وسمع من أبي عبد الله الحُمَيدي الحافظ. لقيه ابنُ السمعاني بأسفرايين.

ومنهم: أبو عبد الله[6] محمد بن علي بن عبد الله العراقي البغدادي، تفقه علىٰ أبي حامد الغزالي والكيا والشاشي، وبقي بعد الأربعين وخمسمائة.

---

(١) في المطبوعة: بمرو. والمثبت من طبقات السبكي.

(٢) طبقات السبكي ٦/ ٩٤.

(٣) في المطبوعة: النفر. والتصويب من طبقات السبكي. والغز أمة كبيرة من الترك، وكانوا في طاعة سلاطين بني سلجوق إلىٰ زمن السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقي، حيث بعث إليهم من يستوفي الخراج منهم، فتجاوز الجابي فضربه ملك الغز حتىٰ مات، فاعتذر للسلطان سنجر فقبل عذره، لكن حاشيته ظلوا يلحون عليه بالخروج لقتالهم فخرج، فتضرع الغز إليه أن يتركهم فقبل منهم، غير أن أصحابه تأهبوا للقتال فقاومهم الغز وحملوا علىٰ جيش سنجر وهزموه وأسروا السلطان، ودخلوا بلاد خراسان وخربوها ونهبوها وقتلوا خلقًا لا يحصيهم إلا الله عزَّ وجلَّ.

(٤) طبقات السبكي ٦/ ١٠٩.

(٥) طبقات السبكي ٦/ ١٤٧.

(٦) طبقات السبكي ٦/ ١٥٣.

ومنهم: أبو سعيد[١] محمد بن علي الجاواني[٢] الكردي، حدَّث بكتاب «إلجام العوامّ» للغزالي عنه، وقرأ المقامات الحريرية علىٰ مؤلِّفها.

ومنهم: الإمام[٣] أبو سعيد محمد بن يحيىٰ بن منصور النيسابوري، وُلد سنة ٤٧٦، وهو من أشهر تلامذة أبي حامد الغزالي، تفقه عليه، وشرح كتابه «الوسيط»[٤]، وسمع الحديث من أبي حامد ابن عبدوس ونصر الله الخُشْنامي، وعليه تفقه الموفَّق الخوشاني المدفون تحت رجلَي الإمام الشافعي بمصر. استشهد في رمضان سنة ٥٤٨ في واقعة الغُزِّ[٥].

ومنهم: أبو طاهر[٦] إبراهيم بن المطهر الشَّبَّاك[٧]. حضر دروس إمام الحرمين بنيسابور، ثم صحب الغزالي، وسافر معه إلىٰ العراق والحجاز والشام، ثم عاد إلىٰ وطنه بجُرجان، وأخذ في التدريس والوعظ. قُتل شهيدًا سنة ٥١٣.

ومنهم: أبو الفتح نصر بن محمد بن إبراهيم الأذربيجاني المراغي الصوفي. حكىٰ عن أبي حامد الغزالي وغيره. حكىٰ عنه أبو سعد ابن السمعاني قال[٨]: سمعت أبا الفتوح نصر بن محمد بن إبراهيم المراغي مذاكرةً[٩] بآمُل طَبَرستان يقول: اجتمع الأئمة أبو حامد الغزالي وإسماعيل الحاكمي وإبراهيم الشَّبَّاك وأبو

---

(١) طبقات السبكي ٦/ ١٥٢.

(٢) نسبة إلىٰ جاوان: وهي قبيلة من الأكراد سكنت الحلة.

(٣) طبقات السبكي ٧/ ٢٥.

(٤) في المطبوعة: البسيط. والمثبت من طبقات السبكي. واسم هذا الشرح: المحيط.

(٥) في المطبوعة: الفنز. وهو خطأ.

(٦) طبقات السبكي ٧/ ٣٦.

(٧) في المطبوعة: الشيباني. والتصويب من طبقات السبكي.

(٨) نقله السبكي في طبقاته ٧/ ٤٨ عن كتاب «بغية المشتاق إلىٰ ساكني العراق» للسمعاني.

(٩) في المطبوعة: إملاء. والمثبت من طبقات السبكي.

الحسن البصري وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء [والصلحاء][1] في مهد عيسىٰ عليه السلام ببيت المقدس، فأنشد قوَّالٌ[2] هذين البيتين:

فديتُكَ لـولا الحبُّ كنتَ فديتَني ... ولكـن بسِحر المُقْلتيـنِ سَبَيْتَني

أتيتُك لمَّا ضاق صدري من الهوىٰ ... ولو كنتَ تدري كيف شوقي أتيتَني

فتواجد أبو الحسن البصري وجدًا أثَّر في الحاضرين، ودمعت العيون، ومُزِّقت الجيوب، وتوفي محمد الكازَرُوني من بين الجماعة في الوجد. قال المراغي: وكنت معهم حاضرًا، وشاهدتُ ذلك.

ومنهم: الإمام[3] أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين الجُهَني الموصلي. تفقه علىٰ الغزالي، وسمع من طراد الزينبي وابن البَطِر. توفي سنة ٥٥٢.

ومنهم: خلف بن أحمد النيسابوري[4]، ممن تفقه علىٰ الغزالي، وله عنه تعليقة. ذكره ابن الصلاح في «[شرح][5] مشكل الوسيط» وقال: بلغني أنه توفي قبل الغزالي.

ومنهم: أبو الحسن[6] سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد الأنصاري البَلَنسي المحدِّث، أحد السَّيَّاحين. تفقه ببغداد علىٰ الغزالي، وسمع بها من طراد وابن البَطِر، روىٰ عنه السمعاني وابن الجوزي وابنته فاطمة بنت سعد. توفي سنة ٥٤١.

---

(١) زيادة من طبقات السبكي.

(٢) في المطبوعة: فقال. والتصويب من طبقات السبكي.

(٣) طبقات السبكي ٧/ ٨١.

(٤) طبقات السبكي ٧/ ٨٣.

(٥) زيادة من طبقات السبكي.

(٦) طبقات السبكي ٧/ ٩٠.

ومنهم: أبو عبد الله[١] شافع بن عبد الرشيد بن عبد القاسم الجيلي. تفقه على الكيا والغزالي، وسمع الحديث بالبصرة، روى عنه ابن السمعاني. توفي سنة ٥٤١.

ومنهم: أبو عامر عبد الرحمن[٢] بن علي بن أبي العباس النُّعَيمي الموفَّقي. خرج إلى طوس، وأقام عند أبي حامد الغزالي مدة، وأخذ عنه. توفي سنة ٥٤٢.

ومنهم: الأستاذ[٣] أبو طالب عبد الكريم بن علي بن أبي طالب الرازي. تفقه على الغزالي ببغداد والكيا ومحمد بن ثابت الخُجَندي، روى عنه أبو النضر الفامي مؤرخ هراة، وكان أبو طالب يحفظ الإحياء سردًا على القلب. توفي بمرو الروذ سنة ٥٢٨[٤].

ومنهم: الإمام[٥] أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر بن منصور الرزَّاز. ولد سنة ٤٦٢، وتفقه على الشاشي والغزالي والمتولي والطبري والكيا، ودرَّس بالنظامية. توفي سنة ٥٣٩. وولده سعيد، وحفيده سعيد بن محمد، وحفيد حفيده سعيد بن محمد بن سعيد، كلهم حدَّثوا، ذكرتُهم في شرح القاموس[٦].

ومنهم: أبو الحسن[٧] علي بن محمد بن حَمُّويه الجويني الصوفي. صحب الإمام الغزالي بطوس، وتفقه عليه، وروى الحديث عن عبد الغفار الشِّيروي.

ومنهم: أبو محمد صالح بن محمد بن عبد الله بن حرازم، لقَّبه بالقوس،

(١) طبقات السبكي ٧/ ١٠١.
(٢) في المطبوعة: أبو عامر دغش بن علي. والمثبت من طبقات السبكي ٧/ ١٥٢.
(٣) طبقات السبكي ٧/ ١٧٩.
(٤) في طبقات السبكي: «توفي بفارس سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ظنًّا أو قبلها بسنة أو بعدها بسنة».
(٥) طبقات السبكي ٧/ ٩٣.
(٦) تاج العروس بشرح جواهر القاموس للزبيدي ١٥/ ١٥٦ (ط - الكويت).
(٧) طبقات السبكي ٧/ ٢٣٠.

وصحبه، واتفقت له معه غريبةٌ حكاها الشهاب أحمد بن عبد الله بن القاضي السجلماسي في كتابه «الإصليت».

ومنهم: أبو الحسن(١) علي بن المطهَّر بن مكي بن مِقْلاص الدِّينَوري، من كبار تلامذة الغزالي في الفقه، وسمع الحديث من ابن البَطِرِ وطبقته، روىٰ عنه ابن عساكر. توفي سنة ٥٣٣.

ومنهم: مروان(٢) بن علي بن سلامة بن مروان بن عبد الله الطَّنْزي، من قرية بديار بكر. ورَدَ بغداد، وتفقه بها علىٰ الغزالي والشاشي، روىٰ عنه ابن عساكر، توفي بعد سنة ٥٤٠.

ومنهم: أبو الحسن(٣) علي بن مسلَّم بن محمد بن علي السُّلَمي، جمال الإسلام. لازم الغزاليَ مدة مقامه بدمشق، وأخذ عنه. يُحكىٰ أن الغزالي قال بعد خروجه من الشام: خلَّفت بالشام شابًّا إن عاش كان له شأن. يعني جمال الإسلام هذا، فكان كما تفرَّسَ فيه. وممَّن روىٰ عنه: الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، والحافظ السلفي، وبركات الخُشوعي، والقاسم ابن [الحافظ ابن] عساكر، آخرهم وفاةً القاضي عبد الصمد الحَرَسْتاني. توفي سنة ٥٣٣. وقعت لنا رواية الكتاب من طريقه، أخبرناه غير واحد من الشيوخ كالسيدين المعمرين عبد الحي بن الحسن بن زين العابدين ومحمد بن محمد الحَسَنيينِ إجازةً منهما شفاهًا عن محمد بن عبد الباقي بن يوسف ومحمد بن القاسم بن إسماعيل، قال الأول: أخبرنا أبو الحسن علي بن علي الأزهري، أخبرنا أحمد بن خليل، أخبرنا محمد بن أحمد بن علي، وقال الثاني - وهو أعلىٰ -: أخبرنا عمي موسىٰ بن إسماعيل، أخبرنا عبد الوهاب بن

(١) طبقات السبكي ٧/ ٢٣٧.

(٢) طبقات السبكي ٧/ ٢٩٥.

(٣) طبقات السبكي ٧/ ٢٣٥.



أحمد قالا: أخبرنا قاضي القضاة أبو يحيىٰ الأنصاري، أخبرنا الحافظان أبو الفضل ابن حجر وأبو النعيم العُقْبي قال: أخبرنا الحافظان الزين العراقي والنور علي بن سليمان الهيتمي قالا: أخبرنا مسنِد الشام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي، أخبرنا أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر حضورًا في الرابعة، أخبرنا أبو طاهر بركات ابن إبراهيم الخشوعي قال: أخبرنا جمال الإسلام علي بن المسلَّم بن محمد بن علي السُّلمي قال: أخبرنا مؤلفه، فذكره.

وممَّن روىٰ عنه كتاب الإحياء: عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف البغدادي، وقعت لنا روايته من طريقه. أخبرنا السيد المسنِد عمر بن أحمد بن عقيل الحسني إذنًا خاصًّا، أخبرني خالي محدِّث الحجاز عبد الله بن سالم بن محمد بن عيسىٰ البصري، أخبرنا الحافظ شمس الدين محمد بن العلاء قراءةً عليه وأنا أسمع من أوله إلىٰ كتاب العلم، ومن أول «بداية الهداية» إلىٰ القسم الأول في الطاعات، وإجازةً لسائرهما وسائر تصانيفه عن سليمان بن عبد الدائم البابلي، عن النجم محمد بن أحمد، عن الأمين محمد بن أحمد بن عيسىٰ بن النجار البدراني، عن الشيخ جلال الدين ابن الملِّقن، عن أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنُّوخي، عن التقي سليمان بن حمزة، عن عمر بن كرم الدينوري، عن عبد الخالق بن أحمد، عن مؤلفها.

وممَّن روىٰ عنه كتاب الإحياء: محمد بن ثابت بن الحسن بن علي الخُجَنْدي، من ولد المهلَّب بن أبي صُفْرة، وقد روىٰ عنه الحافظ أبو سعد ابن السمعاني وعبد الكريم بن أبي طالب الرازي. ومن أحفاده محمد بن عبد اللطيف بن محمد، كان رئيس أصبهان، وتوفي سنة ٥٥٢، وولدُه[١] عبد اللطيف

---

(١) يعني محمد بن عبد اللطيف. وأبو الوقت هو عبد الأول بن عيسىٰ السجزي.

سمع من أبي الوقت، توفي سنة ٥٨٠، وولده محمد انتهت إليه الرياسة بأصبهان، توفي سنة ٥٩٢، وقعت لنا روايتُه من طريقه. أخبرنا الشيخ المحدِّث الصوفي رضي الدين عبد الخالق بن أبي بكر بن الزين المِزجاجي الحنفي الزبيدي والسيد العارف الصوفي عبد الله بن أحمد بن دامل الحسيني، قال الأول: أخبرنا السيد المحدِّث عماد الدين يحيىٰ بن عمر بن عبد القادر الحسيني، أخبرنا أبو الأسرار الحسن ابن علي بن يحيىٰ الحنفي المكي، أخبرنا البرهان إبراهيم بن محمد الميموني، أخبرنا الشمس محمد بن أحمد بن حمزة الرملي. ح. وقال شيخنا الثاني وهو أعلىٰ: أخبرنا عبد الخالق بن الزين المزجاجي الحنفي نزيل صنعاء، أخبرنا أبو الوفاء أحمد بن محمد بن العجل المعمر، أخبرنا يحيىٰ بن مكرم الطبري إجازةً قالا: أخبرنا شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري، زاد الطبري فقال: والحافظ شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السَّخاوي قالا: أخبرنا الحافظان الشهاب أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني وأبو النعيم رضوان بن محمد بن يوسف العقبي مشافهةً قالا: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن أبي المجد الدمشقي - قدم علينا - حدثنا التقي سليمان بن حمزة الحاكم، حدثنا محمد بن عماد الحَرَّاني في كتابه، حدثنا أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني الحافظ في كتابه، حدثنا محمد بن ثابت، أخبرنا مؤلفه.

وبالسند إلىٰ الحافظ السخاوي وشيخ الإسلام قالا: أخبرنا أبو محمد عبد الرحيم بن محمد بن الفُرات الحنفي، أخبرنا التاج أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، أخبرنا الشمس أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ، أخبرنا مؤرخ هراة أبو النضر الفامي، أخبرنا عبد الكريم بن أبي طالب الرازي، أخبرنا محمد بن ثابت.

وأعلىٰ من ذلك رواه الرازيُّ عن مؤلفه.

وكتب إليَّ فخر الديار الشامية أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي، أنبأنا أبو المواهب محمد بن عبد الباقي وأبو التقىٰ عمر بن أبي تغلب الشيباني وعبد الغني بن إسماعيل النابلسي والمعمر عبد الرحمن بن محيي الدين السُّلَيمي قالوا: أخبرنا أبو التقىٰ عبد الباقي بن عبد الباقي البَعْلي - وهو والد الأول - أخبرنا الشمس [محمد بن][1] محمد بن يوسف المَيْداني، عن الشهاب أحمد بن بدر الطيبي، عن الكمال محمد بن حمزة الحسيني، عن أبي حفص الحنبلي، عن سليمان بن حمزة بسنده المتقدِّم.

قال شيخنا[2]: ونروي أكثر الإحياء سماعًا عن الشيخ إسماعيل العجلوني عن أبي المواهب عن والده بسنده المذكور.

وممَّن روىٰ عنه كتاب الإحياء: أبو الفتوح أسعد بن أحمد الأسفراييني[3]، وقعت لنا روايته من طريقه. أخبرنا شيخنا العلامة شمس الدين محمد بن علاء الدين المزجاجي الحنفي الزبيدي وشيخنا سيدي عبد الخالق قالا: أخبرنا علاء الدين بن عبد الباقي المزجاجي - وهو والد الأول - عن أخيه عبد الله ابن عبد الباقي، عن عبد الهادي بن عبد الجبار بن موسىٰ بن جُنَيد القُرَشي، عن البرهان إبراهيم بن أبي القاسم بن جعمان الزَّبيدي، أخبرنا الشريف طاهر بن الحسين الأهدل، أخبرنا الوجيه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الربيع الشيباني الزبيدي، أخبرنا الشهاب أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشَّرْجي، أخبرنا النفيس

---

(١) زيادة من كتاب فهرس الفهارس والأثبات لعبد الحي الكتاني ١/ ٣٢٦ (ط - دار الغرب الإسلامي) والأعلام للزركلي ٧/ ٦٢.

(٢) هو محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي المعروف بالسفاريني.

(٣) كذا سماه المؤلف، والذي في الأنساب للسمعاني ١/ ٥٠٢ أن اسمه أسعد بن محمد بن أحمد الثابتي، من أهل بنج ديه، وكنيته أبو سعد، منسوب إلىٰ الصحابي زيد بن ثابت الأنصاري، قال السمعاني: «تفقه علىٰ والدي وحصل كتب أبي حامد الغزالي ونسخها بخطه».

سليمان بن إبراهيم العلوي، أخبرنا موفَّق الدين علي بن أبي بكر بن شدَّاد المُقْرِي، أخبرنا الشهاب أحمد بن أبي الخير الشمَّاخي السعدي، أخبرنا العز الفاروثي، أخبرنا أبو الفضل الموفَّق البُوشَنْجي، أخبرنا أبو الفتوح الأسفراييني، أخبرنا مؤلفه إجازةً مناوَلةً.

وممن روىٰ عنه كتاب الإحياء: أبو عبد الله محمد اللُّبْنِي المالكي، تفقه علىٰ الغزالي، وروىٰ الحديث، روىٰ عنه ولده الفقيه أبو محمد عبد المولىٰ أحد مشايخ ابن الجَوَّاني النَّسَّابة بمصر. وقعت لنا روايته، وكذا «بداية الهداية» له من طريقه، وبالسند إلىٰ الحافظ البابلي، أخبرنا أبو محمد عبد الرؤوف بن محمد المناوي، أخبرنا الشمس محمد بن عبد الرحمن العلقمي، أخبرنا الحافظ السيوطي، أخبرتني أم الفضل هاجر بنت الشرف محمد القدسية إجازةً، أخبرنا أبو الفرج الغَزِّي سماعًا في الخامسة، أخبرنا أبو الحسن علي بن قُرَيش، أخبرنا الكمال أبو الحسن علي بن شجاع الضرير، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد المولىٰ اللُّبْني، أخبرنا أبي عن المؤلف.

وممن روىٰ عنه كتاب الإحياء: القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي، وقعت لنا روايته من طريقه. أخبرنا شيخنا السيد عمر بن أحمد بن عقيل، وشيخنا الفقيه المحدِّث أبو العباس أحمد بن الحسن بن عبد الكريم الخالدي، والعلاَّمة المعمِّر بركة الوجود أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف المُجِيري، والأستاذ الأجَلُّ عبد الله بن محمد بن عامر الشافعيون إذنًا منهم لي خاصًا قالوا: أخبرنا محدِّث الحجاز عبد الله بن سالم بن محمد والشهاب أحمد بن محمد بن أحمد المكي. ح. وأخبرنا الإمام الصوفي العارف عبد الله بن إبراهيم بن حسن الحُسَيني النَّسَفي، أخبرنا أحمد بن محمد بن أحمد المكي. ح. وأخبرنا الإمام أبو المعالي الحسن ابن علي بن أحمد بن عبد الله القاهري، أخبرنا المحدِّث أبو العز محمد بن

أحمد بن أحمد القاهري، قالوا وهم ثلاثة: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن محمد ابن سليمان السُّوسي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الأجهوري والشهاب أحمد بن محمد الخَفاجي، كلاهما عن الشمس محمد بن أحمد الرملي والسراج عمر بن أُلْجاي والبدر الكرخي قالوا: أخبرنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري. ح. وأخبرنا ذو الفنون محمد بن الطيب بن محمد الفاسي وإسماعيل بن عبد الله بن علي في آخرينَ قالوا: أخبرنا محمد بن إبراهيم بن حسن، أخبرنا والدي، أخبرنا القطب صفي الدين أحمد بن محمد القُشاشي[1]، أخبرنا أبو المواهب أحمد ابن علي بن عبد القدُّوس، أخبرنا والدي، أخبرنا القطب سيدي عبد الوهاب الشَّعْراني، أخبرنا شيخ الإسلام، أخبرنا الحافظ أبو الفضل ابن حجر. ح. زاد ابن سليمان: وأخبرنا أبو عثمان سعيد بن إبراهيم الجزائري، أخبرنا أبو عثمان سعيد ابن أحمد التِّلِمْساني، عن أبي زيد عبد الرحمن بن علي بن أحمد العاصِمي، عن البرهان القَلْقَشَنْدي، أخبرنا الحافظ ابن حجر، عن أبي حيَّان محمد بن حيـان، عن جده أبي حيان محمـد بن يوسف بن حيان الأندلسي ، عن الحسن بن أبي الأحوص الفِهْري ، عن أحمد بن محمد الخزرجي ، عن القاضي أبي بكر ابن العربي، عن مؤلفه.

وممن روىٰ عنه كتاب الإحياء والبداية: أبو العباس أحمد بن [بختيار بن علي بن][2] محمد المَنْدائي، وقعت لنا روايتهما من طريقه. وبالسند إلىٰ الحافظ السَّخاوي، أخبرنا المسنِد محمد بن مُقْبِل الحلبي، أخبرنا محمد بن علي

(١) نسبة إلىٰ بيع القُشاشة، وهي سقط المتاع.

(٢) زيادة من طبقات السبكي ٦/ ١٤.

وفي كتاب توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي ٨/ ٣١٩ (ط - مؤسسة الرسالة): «قال أبو العباس المندائي: كان قوم من العجم تأخر إسلامهم من أجدادي، فقيل لهم: المندائي، وهو بالفارسية: الباقي».

الحراوي، أخبرنا الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدِّمياطي، أخبرنا المسند المعمِّر أبو الحسن علي بن محمد البغدادي الشهير بابن المغير، أخبرنا أبو العباس المَنْدائي، عن مصنِّفه.

وممن روىٰ عنه كتابه الإحياء إجازةً: الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السِّلَفي نزيل الإسكندرية، وقعت لنا روايته من طريقه. وبالسند إلىٰ النور الأجهوري قال: أخبرنا البدر محمد بن يحيىٰ القَرافي، أخبرنا الحافظ جلال الدين السيوطي، أنبأني أبو الفرج محمد بن أبي بكر المَراغي، عن أبيه. ح. وبالسند المتقدِّم إلىٰ ابن الفرات عن التاج عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي. ح. وبالسند إلىٰ الحافظ ابن حجر وأبي النعيم العقبي قال: أخبرنا البرهان إبراهيم بن عبد الواحد التنوخي، قالوا وهم ثلاثة: أخبرنا أبو العباس أحمد بن أبي طالب الصالحي، عن جعفر بن علي الهَمَذاني، أخبرنا الحافظ أبو طاهر السِّلَفي، أنبأنا الإمام أبو حامد الغزالي إجازةً مراسَلةً.

وممن روىٰ عنه كتابه الإحياء: أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد بن الخليل النوقاني، وقعت لنا روايته من طريقه. وبالسند المتقدم إلىٰ ابن السمعاني قال: سمعت أبا سعيد النوقاني بمرو يقول: حضرت درس الإمام أبي حامد الغزالي لكتاب «إحياء علوم الدين» ... وذكر الإنشاد الذي قدَّمناه آنفا[1].

* * *

---

(١) تقدم ذلك في الفصل التاسع.

الفصل الحادي والعشرون

وهو خاتمة الفصول: في الاعتذار عن المصنِّف في إيثاره الرُّخصة والسَّعة في النقل والرواية في كتابه هذا من الأخبار عن النبي ﷺ ثم الآثار عن الأصحاب وعن التابعين وتابعيهم ثم عمَّن بعدهم من متقدِّمي السلف؛ فإنه قد يتفق له في سياقه مخالفة الألفاظ والتقديم والتأخير والزيادة والنقص مع موافقة المعنىٰ، ولم يعتبر رحمه الله تعالىٰ في بعض المواضع ألفاظ الأخبار والآثار؛ إذ لم يكن تحرير الألفاظ عنده واجبًا إذا أتىٰ بالمعنىٰ بعد عِلمه بتصريف الكلام وبتفاوُت وجوه المعاني، واجتنابه لِما يكون به تحريف أو إحالة بين لفظتين، وقد رخَّص في سَوْق الحديث بالمعنىٰ دون سياقه علىٰ اللفظ جماعة، منهم: علي، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو الدرداء، وواثلة بن الأسقع، وأبو هريرة، ﷺ، ثم جماعة من التابعين يكثر عددُهم، منهم: إمام الأئمة الحسن البصري، ثم الشعبي، وعمرو بن دينار، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، وعكرمة؛ نُقل ذلك عنهم في كتب سِيَرِهم بأخبار مختلفة الألفاظ.

وقال ابن سيرين[1]: كنت أسمع الحديث من عشرة، المعنىٰ واحد، والألفاظ مختلفة.

وكذلك اختلفت ألفاظ الصحابة في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ، فمنهم من يرويه تامًّا، ومنهم من يأتي بالمعنىٰ، ومنهم من يورده مختصَرًا، وبعضهم

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٤٥١ (ط - المكتب الإسلامي) بلفظ: «كنت أسمع الحديث من عشرة، كلهم يختلف في اللفظ، والمعنىٰ واحد». وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٣٤٤ (ط - دار ابن الجوزي بالرياض) والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٢٠٦ (ط - دائرة المعارف العثمانية بالهند) بلفظ: «كنت أسمع الحديث من عشرة، اللفظ مختلف، والمعنىٰ واحد».

يغاير بين اللفظين ويراه واسعًا إذا لم يخالف المعنىٰ، وكلهم لا يتعمَّد الكذب، وجميعهم يقصد الصدق ومعنىٰ ما سمع، فلذلك وَسِعَهم، وكانوا يقولون: إنما الكذب علىٰ من تعمَّده.

وقد رُوي عن عمران بن مسلم قال[١]: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، إنك تحدِّث بالحديث أنت أحسن له سياقًا وأجود تحبيرًا وأفصح به لسانًا منه[٢] إذا حدثتنا به. فقال: إذا أصبتُ المعنىٰ فلا بأس بذلك.

وقد قال النضر بن شُمَيل[٣]: كان هُشَيم لحَّانًا، فكسوتُ لكم حديثه كسوةً حَسَنة. يعني بالإعراب، وكان النضر نحويًّا.

وكان سفيان يقول[٤]: إذا رأيتَ الرجل يشدد في ألفاظ الحديث في المجلس فاعلم أنه يقول: اعرفوني.

قال: وجعل[٥] رجل يسأل يحيىٰ بن سعيد القَطَّان عن حرف في الحديث علىٰ لفظه، فقال له يحيىٰ: يا هذا، ليس في الدنيا[٦] أجلُّ من كتاب الله تعالىٰ، وقد رُخِّص بالقراءة فيه بالكلمة علىٰ سبعة أحرُف، فلا تشدِّدْ.

وفي «شرح التقريب» للحافظ السيوطي في النوع السادس والعشرين في الفرع الرابع منه ما نصُّه مع بعض اختصار[٧]: إن لم يكن الراوي عالمًا بالألفاظ

---

(١) قوت القلوب ١/ ٢٩٩.

(٢) في القوت: منا.

(٣) الكفاية في علم الرواية ص ١٩٦ بلفظ: كان عوف بن أبي جميلة رجلًا لحانًا ... الخ.

(٤) قوت القلوب ١/ ٢٩٩.

(٥) قوت القلوب، نفسه.

(٦) في القوت: أيدينا.

(٧) تدريب الراوي بشرح تقريب النواوي للسيوطي ٢/ ٥٣٢ - ٥٣٦ (ط - مكتبة الكوثر بالرياض).

[ومدلولاتها ومقاصدها][1] خبيرًا بما يحيل معانيها [بصيرًا بمقادير التفاوت بينهما] [2] لم تجُز له الرواية لِما سمعه بالمعنىٰ بلا خلاف، بل يتعين اللفظُ الذي سمعه، فإن كان عالمًا بذلك، فقالت طائفة من أهل[3] الحديث والفقه والأصول: لا يجوز إلا بلفظه، وإليه ذهب ابن سيرين وثعلب وأبو بكر الرازي من الحنفية، ورُوي عن ابن عمر [وجوَّزه بعضُهم في غير حديث النبي ﷺ، ولم يجوِّزه فيه][4] وقال جمهور السلف والخلف من الطوائف منهم الأئمة الأربعة: يجوز بالمعنىٰ في جميع ذلك إذا قطع بأداء المعنىٰ؛ لأن ذلك هو الذي تشهد به أحوال الصحابة والسلف، وتدل عليه روايتهم القصة[5] الواحدة بألفاظ مختلفة، وقد ورد في المسألة حديثٌ مرفوع رواه ابن مَنْدَه في معرفة الصحابة[6] والطبراني في الكبير[7] من حديث عبد الله بن سليمان بن أكثم الليثي[8] قال: قلت: يا رسول الله، إني إذا

---

(١) زيادة من التدريب.

(٢) زيادة من التدريب.

(٣) في التدريب: أصحاب.

(٤) زيادة من التدريب.

(٥) في المطبوعة: اللفظة. والتصويب من التدريب.

(٦) معرفة الصحابة لابن منده ٢/ ٧٢٤ (ط - جامعة الإمارات) وفي إسناده عمر بن إبراهيم الكردي الهاشمي، كذَّبه الدارقطني.

(٧) المعجم الكبير للطبراني ٧/ ١١٧ (ط - مكتبة ابن تيمية). وفي إسناده الوليد بن سلمة الطبراني، قال عنه ابن حبان في المجروحين ٢/ ٤٢٢: «كان يضع الحديث علىٰ الثقات، لا يجوز الاحتجاج به بحال».

(٨) كذا سماه المؤلف، وفي المعرفة: سليم بن أكيمة، من رواية حفيده محمد بن إسحاق عنه. وفي المعجم الكبير: سليمان بن أكيمة، من رواية حفيده يعقوب بن عبد الله عنه. فالصحبة والرواية لسليم - أو سليمان - بن أكيمة. ولعله سقط من المطبوعة عبارة: «عن أبيه». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٥٤ (ط - دار الكتاب العربي ببيروت): «لم أرَ من ذكر يعقوب ولا أباه».

سمعت منك الحديث لا أستطيع أن أرويه[١] كما أسمع منك، يزيد حرفًا أو ينقص حرفًا. فقال: «إذا لم تُحِلُّوا حرامًا ولم تحرِّموا حلالاً وأصبتم المعنىٰ فلا بأس». فذُكر ذلك للحسن فقال: لو لا هذا ما حدَّثْنا.

وقد استدل الشافعي[٢] لذلك بحديث «أُنزل القرآن علىٰ سبعة أحرف».

وروىٰ البيهقي عن مكحول قال[٣]: دخلت أنا وأبو الأزهر علىٰ واثلة بن الأسقع، فقلنا له: [يا أبا الأسقع][٤] حدِّثْنا بحديث سمعتَه من رسول الله ﷺ ليس فيه وهمٌ ولا مزيد[٥] ولا نسيان. فقال: هل قرأ أحد منكم من القرآن شيئًا؟ فقلنا: نعم، وما نحن له بحافظين جدًّا، إنَّا لنزيدُ الواو والألف وننقص. قال: فهذا القرآن مكتوب بين أظهُركم لا تألونه حفظًا، وأنتم[٦] تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون، فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله ﷺ عسىٰ أن لا نكون سمعناها[٧] منه إلا مرة واحدة، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث علىٰ المعنىٰ.

---

(١) في التدريب والمعرفة: أؤديه.

(٢) الرسالة للشافعي ص ٢٧٤ (ط - دار الكتب العلمية) قال بعد أن ذكر حديث اختلاف هشام بن حكيم وعمر بن الخطاب في قراءة سورة الفرقان: «فإذا كان الله لرأفته بخلقه أنزل كتابه علىٰ سبعة أحرف، معرفةً منه بأن الحفظ قد يزلُّ ليحل لهم قراءته وإن اختلف اللفظ فيه ما لم يكن في اختلافهم إحالة معنىٰ - كان ما سوىٰ كتاب الله أولىٰ أن يجوز فيه اختلاف اللفظ ما لم يُحِلْ معناه، وكل ما لم يكن فيه حكم فاختلاف اللفظ فيه لا يحيل معناه».

(٣) مسند الشاميين للطبراني ٢/ ٣٦٨ (ط - مؤسسة الرسالة). الجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي ٢/ ٢٠ (ط - مؤسسة الرسالة). جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/ ٣٤٨.

(٤) زيادة من التدريب.

(٥) في المطبوعة: تزيد. والمثبت من التدريب.

(٦) في المطبوعة: وإنكم. والمثبت من التدريب.

(٧) في المطبوعة: سمعنا لها. والتصويب من التدريب.

وأسند أيضًا في المدخل عن جابر بن عبد الله قال: قال حُذَيفة[١]: إنَّا قوم عرب، نورد الحديث[٢] فنقدِّم ونؤخِّر.

وأسند أيضًا عن شعيب بن الحَبْحاب[٣] قال[٤]: دخلت أنا وعبدان[٥] علىٰ الحسن فقلنا: يا أبا سعيد، الرجل يحدِّث بالحديث فيزيد فيه أو ينقص منه. قال: إنما الكذب [علىٰ][٦] مَن تعمَّد ذلك.

وأسند أيضًا عن جرير بن حازم قال[٧]: سمعت الحسن يحدِّث بأحاديث، الأصل واحد، والكلام مختلف.

وأسند عن ابن عَوْن قال: كان الحسن وإبراهيم والشعبي يأتون بالحديث علىٰ المعاني[٨].

وأسند عن [أبي][٩] أُوَيْس قال[١٠]: سألنا الزهريَّ عن التقديم والتأخير في الحديث، فقال: هذا يجوز في القرآن فكيف به في الحديث؟ وإذا أصبتَ معنىٰ الحديث فلم تحلَّ به حرامًا ولم تحرِّم به حلالاً فلا بأس.

---

(١) تاريخ دمشق ١٢/ ٢٩٠.

(٢) في التدريب وتاريخ دمشق: نردد الأحاديث.

(٣) في المطبوعة: الحجاب. والتصويب من التدريب.

(٤) الكفاية في علم الرواية ص ٢٠٨.

(٥) كذا في المطبوعة والتدريب، وفي الكفاية: غيلان بن جرير. وهو الصواب.

(٦) زيادة من التدريب والكفاية.

(٧) الكفاية ص ٢٠٧. سنن الدارمي ١/ ١٠٥.

(٨) بعده في التدريب: «وكان القاسم بن محمد وابن سيرين ورجاء بن حيوة يعيدون الحديث علىٰ حروفه».
الكفاية ص ٢٠٦. معرفة السنن والآثار للبيهقي ١/ ١٣٤. تاريخ دمشق ٢٥/ ٣٧٦.

(٩) زيادة من التدريب.

(١٠) الوافي بالوفيات للصفدي ٥/ ١٨.

ونقل ذلك سفيان عن عمرو بن دينار(١).

وأسند عن وكيع قال(٢): إن لم يكن المعنىٰ واسعًا فقد هلك الناس. ا.هـ. ما تعلق الغرضُ به.

وقوله في أول سياقه: «منهم الأئمة الأربعة»، أي أئمة المذاهب، والمشهور عن إمامنا الأعظم أبي حنيفة رحمه الله تعالىٰ عند الأصحاب أنه لا يجوز نقل الحديث إلا باللفظ دون المعنىٰ. قالوا: وبهذا الاعتبار قلَّت روايته للحديث.

وروينا عن الإمام أبي جعفر الطَّحاوي أنه قال(٣): حدثنا سليمان بن شعيب، حدثنا أبي قال: أملىٰ علينا أبو يوسف قال: قال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا ينبغي للرجل أن يحدِّث من الحديث إلا بما حفظَه من يوم سمعَه إلىٰ يوم يحدِّث به.

وهكذا ذكره الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام من تاريخه(٤) عن أبي يوسف عنه، فافهمه؛ فإن إطلاقه في العبارة ربما يوهم خلافَ ما ذكرناه.

وإليه ذهب القاضي عياض من المالكية، حيث قال(٥) - فيما نقله السيوطي

---

(١) في التدريب: «وأسند عن سفيان قال: كان عمرو بن دينار يحدث بالحديث علىٰ المعنىٰ، وكان إبراهيم بن ميسرة لا يحدث إلا علىٰ ما سمع».
الكفاية ص ٢٠٦. معرفة السنن والآثار ١/ ١٣٥.

(٢) العلل للترمذي (ملحق بالسنن) ٦/ ٢٤٠.

(٣) شرح مسند أبي حنيفة لعلي القاري ص ٧ (ط - دار الكتب العلمية).

(٤) تاريخ الإسلام ٩/ ٣١٠. وسير أعلام النبلاء ٦/ ٤٠١.

(٥) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم للقاضي عياض ١/ ٩٥ (ط - دار الوفاء بالمنصورة) ونصه: «رُوي الحديث الواحد عن النبي ﷺ بألفاظ مختلفة في القصة الواحدة والمقالة الفذة والقضية المشهورة من عهد الصحابة فمَن بعدهم، لكن لحماية الباب من تسلُّط من لا يحسن وغلط الجهلة في نفوسهم وظنهم المعرفة مع القصور - يجب سد هذا الباب؛ إذ فعلُ هذا علىٰ من لم يبلغ درجة الكمال في معرفة المعاني حرام باتفاق».

في شرح الكتاب المذكور[١] -: ينبغي سدُّ باب الرواية بالمعنىٰ؛ لئلاَّ يتسلَّط مَن لا يُحسِن ممَّن يظن أنه يحسِن، كما وقع للرواة كثيرًا قديمًا وحديثًا. وعلىٰ الجواز، الأَولىٰ إيرادُ الحديث بلفظه دون التصرُّف فيه.

ثم إن المصنف[٢] قد روىٰ في كتابه هذا مراسيل ومقاطيع، ومنها ما في سنده مقالٌ، وربما كان المقطوع والمرسَل أصحَّ من بعض المسنَد إذ رواه الأئمة، وجاز لهم رسمُ ذلك في الورع لمعانٍ:

أحدها: يقول: إنَّا لسنا علىٰ يقين من باطلها.

والثاني: يقول: إن معنا حُجة بذلك، وهو رواية أصحاب الحديث له، وهم قد سمعوه، فإن أخطأوا الحقيقة عند الله تعالىٰ فذلك ساقطٌ عنهم.

والثالث: يقول: إن الإخبار الضعاف غير مخالفة للكتاب والسُّنة، فلا يلزمنا ردُّها، بل فيهما ما يدل عليها.

والرابع: يقول: إنَّا متعبَّدون بحُسن الظن، منهيُّون عن كثير من الظن.

والخامس: يقول: إنه لا يُتوصَّل إلىٰ حقيقة ذلك إلا من طريق المعاينة، ولا سبيل إليها، فاضطررنا إلىٰ التقليد والتصديق؛ لحُسن الظن بالنَّقَلة مع ما تسكن إليه قلوبنا وتلين له أبشارنا ونرىٰ أنه حق، كما جاء في الخبر. ويقول أيضًا: إنه ينبغي أن نعتقد في سلفنا المؤمنين أنهم خير منَّا، ثم يقول: نحن لا نكذب علىٰ رسول الله ﷺ ولا علىٰ التابعين، فكيف يُظَن بهم أن يكذبوا وهم فوقنا. علىٰ أنه قد جاءت أحاديث ضِعاف بأسانيد صحاح، فكذلك يصلُح أن تَرِد أحاديث صِحاح بسند

---

(١) تدريب الراوي ٢/ ٥٣٧.

(٢) هذا الكلام مأخوذ عن قوت القلوب ١/ ٢٩٩ - ٣٠١.

ضعيف؛ لاحتمال أن يكون قد رُوي من وجه صحيح؛ إذ لم نُحِطْ بجملة العلم، أو لأن بعض ما يُضعَّف به رواة الحديث وتعلَّل به أحاديثهم لا يكون تعليلاً ولا جرحًا عند الفقهاء ولا عند العلماء بالله تعالىٰ، مثل أن يكون الراوي مجهولاً لإيثاره الخمول، وقد نُدِبَ إليه، أو لقلة الأتباع له؛ إذ لم تُقسَم لهم الأثرة عنه، أو ينفرد بلفظ أو حديث حفظه أو خُصَّ به دون غيره من الثقات، أو يكون غير سائق للحديث علىٰ لفظه، أو لا يكون معتنيًا بدرسه وحفظه، أو يُسمَع منه كلام لا يجرِّحه عند الفقهاء علَّله به بعضُ المجروحين من الرُّواة، وأن بعض مَن يضعِّفه أصحابُ الحديث هو من علماء الآخرة ومن أهل المعرفة بالله تعالىٰ، وله في الرواية والحديث مذهب غير طريقة بعض أصحاب الحديث فيعمل في روايته بمذهبه، فلا يكون أصحاب الحديث حُجة عليه، بل هو حُجة عليهم؛ إذ ليس هو عند أصحابه من العلماء دون أصحاب الحديث ممَّن ضعَّفه إذ رأىٰ غيرَ مذهبه، وقد يتكلم بعض الحفَّاظ - كابن الجَوْزي وأضرابه - بالإقدام والجراءة فيجاوز الحدَّ في الجرح، ويتعدَّىٰ في اللفظ، ويكون المتكلَّم فيه أفضل منه، وعند العلماء بالله تعالىٰ أعلىٰ درجةً، فيعود الجرحُ علىٰ الجارح، وإن بعض مَن يضعِّفه أهل الحديث يقوِّيه بعضهم، وبعض من يجرحه ويذمه واحدٌ يعدلِّه ويمدحه آخر، فصار مختلَفًا فيه، فلم يُرَدَّ حديثُه بقولِ واحدٍ دون مَن فوقه أو مثله.

وقال بعض العلماء: الحديث وإن كان شهادة فقد وُسِّعَ فيه بحُسن الظن، كما جُوِّزَ فيه قبولُ شاهد واحد، أي للضرورة، كشهادة القابلة ونحوها. ويُروَىٰ بمعناه عن الإمام أحمد.

والحديث إذا لم يُنافِه كتابٌ أو سُنَّة وإن لم يشهدا له أو لم يخرج تأويله عن إجماع الأمة فإنه يوجب العمل والقبول؛ لقوله ﷺ: «كيف وقد قيل»؟ والحديث الضعيف عند الإمام أحمد آثَرُ من الرأي والقياس.

وقال أبو محمد ابن حزم: جميع الحنفية مجمعون علىٰ أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولىٰ من القياس والرأي؛ نقله الذهبي[١].

والحديث إذا تداوله عصران أو رواه القرون الثلاثة أو دارَ في العصر الواحد ولم ينكره علماؤه أو كان مشهورًا لا تنكره الطبقة من المسلمين احتمل ووقعت به حُجة وإن كان في سنده قولٌ، إلا ما خالف الكتابَ والسنة الصحيحة أو إجماع الأمة، أو ظهر كذب ناقليه بشهادة الصادقين من الأئمة.

وذكر رجل عند الزُّهري حديثًا، فقال: ما سمعنا بهذا. فقال: أكُلَّ حديثِ رسول الله ﷺ سمعتَ؟ قال: لا. قال: فثلثاه؟ قال: لا. قال: فنصفه؟ فسكت، فقال: عُدَّ هذا من النصف الذي لم تسمعه؛ نقله صاحب «القوت». وهو في «الحلية» لأبي نُعَيم في ترجمة الزهري[٢].

وأخرج ابن عساكر في التاريخ[٣] في ترجمة أبي سُهَيل نافع بن مالك[٤] عم مالك بن أنس من رواية أبي أسامة عن جرير بن حازم عن الزبير بن سعيد الهاشمي عنه قال: قلتُ للزهري: أما بلغك أن رسول الله ﷺ قال: «مَن طلب شيئًا من هذا العِلم الذي يُراد به وجه الله ليطلب به شيئًا من عَرَض الدنيا دخل النار»؟ فقال الزهري: لا، ما بلغني هذا عن رسول الله ﷺ. فقلت له: وكل حديث رسول الله ﷺ بلغك؟ قال: لا. قلت: فنصفه؟ قال: عسىٰ. قلت: فهذا من النصف الذي لم يبلغك.

---

(١) تاريخ الإسلام ٩/ ٣١٠.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصفهاني ٨/ ١٧٥ - ١٧٦ (ط - دار الكتب العلمية)

(٣) تاريخ دمشق ٥٥/ ٣٦٦.

(٤) بل في ترجمة الزهري.

وقال وكيع بن الجراح: ما ينبغي لأحد أن يقول: هذا الحديث باطل؛ لأن الحديث أكثر من ذلك.

وقال أبو داود: قال أبو زُرعة الرازي: قُبض رسول الله ﷺ عن عشرين ألف عين نظرتْه، كل واحد قد روىٰ عنه ولو حديثًا ولو كلمة رواية[١]، فحديث رسول الله ﷺ أكثر من ذلك[٢].

وقال أحمد بن حنبل: كان يزيد بن هارون يكتب عن الرجل ويعلم أنه ضعيف، وكان له ذكاء وعِلم بالحديث.

وقال إسحاق بن راهويه[٣]: قيل لأحمد: هذه الفوائد التي فيها المناكير ترىٰ

(١) كذا في المطبوعة، ويبدو أن في الكلام سقطًا.

(٢) أورده الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٤٤٧ بغير هذا السياق من طريقين:

الأول: من طريق الحسن بن علي الرازي قال: سمعت أبا زرعة الرازي وسئل عن عدة من روىٰ عن النبي ﷺ، فقال: ومن يضبط هذا؟ شهد مع النبي ﷺ حجة الوداع أربعون ألفًا، وشهد معه تبوك سبعون ألفًا.

والثاني: من طريق محمد بن أحمد بن جامع الرازي قال: سمعت أبا زرعة وقال له رجل: يا أبا زرعة، أليس يقال: حديث النبي ﷺ أربعة آلاف حديث؟ قال: ومن قال ذا قلقل الله أنيابه؟! هذا قول الزنادقة، ومن يحصي حديث رسول الله ﷺ؟ قُبض رسول الله ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن روىٰ عنه وسمع منه. فقال له الرجل: يا أبا زرعة، هؤلاء أين كانوا وسمعوا منه؟ قال: أهل المدينة ومكة ومَن بينهما والأعراب ومَن شهد معه حجة الوداع، كل رآه وسمع منه بعرفة.

وهذه الرواية الثانية ذكرها السيوطي في تدريب الراوي ٢/ ٦٨٠.

(٣) كذا قال المؤلف تبعًا لما في قوت القلوب، وإنما هو إسحاق بن إبراهيم بن هانئ النيسابوري، ولعل منشأ هذا الخطأ هو تشابه الاسمين: إسحاق بن إبراهيم بن راهويه، وإسحاق بن إبراهيم بن هانئ. وهذه السؤالات مذكورة في مسائل الإمام أحمد رواية ابن هانئ عنه ٢/ ١٦٧ (ط - المكتب الإسلامي).

أن يُكتب الحديث المنكر[١]؟ فقال: المنكر أبدًا منكر. قيل [له][٢]: فالضعفاء؟ قال: [قد][٣] يُحتاج إليهم في وقت. كأنه لم يَرَ بالكتابة عنهم بأسًا.

وقال أبو بكر المروزي عنه[٤]: إن الحديث عن الضعفاء قد يُحتاج إليه.

ومما يدلُّك علىٰ مذهبه في التوسعة أنه أخرج حديثه كلَّه في المسند المأثور عنه، ولم يعتبر الصحيح منه، وفيه أحاديث يعلم النُّقَّاد[٥] أنها ضعيفة، وهو أعلم بضعفها منهم، ثم أدخلها في مسنده؛ لأنه أراد تخريج المسنَد، ولم يقصد صحيح السند، فاستجاز روايتها [كما سمعها][٦]،وقد أخرج ابن الجوزي بعضًا منها في «الموضوعات»، وافقه علىٰ بعضها الحافظُ العراقي في جزء لطيف[٧]، وردَّ عليهما تلميذه[٨] الحافظُ ابن حجر فأوسع الكلامَ علىٰ تلك الأحاديث التي طعن عليها ابن الجوزي في جزء سمَّاه «القول المسدَّد في الذَّبِّ عن مسند الإمام أحمد»، كلاهما عندي.

وكان الإمام أحمد قد قطع أن يحدِّث الناس في سنة ثمان وعشرين [ومائتين][٩]،

(١) في المطبوعة: ترىٰ أن يكتب الجيد منها. والمثبت من سؤالات ابن هانئ.

(٢) زيادة من سؤالات ابن هانئ.

(٣) زيادة من سؤالات ابن هانئ.

(٤) العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد رواية المروزي عنه ص ١٦٣ (ط - الدار السلفية بالهند).

(٥) في القوت: الثقات.

(٦) زيادة من القوت.

(٧) أورد فيه تسعة أحاديث حكم عليها بالوضع.

(٨) أي تلميذ الحافظ العراقي.

(٩) زيادة للإيضاح. وكان ذلك في عهد الواثق بالله العباسي، حيث أمره بلزوم بيته واعتزال الناس بسبب موقفه من قضية خلق القرآن، مع التعهد بعدم إيذائه أو التعرض له.

وتوفي سنة إحدىٰ وأربعين، فلم يسمع أحدٌ منه في هذه المدة إلا [ابنه عبد الله و][١] ابن [بنت ابن][٢] منيع جزءًا واحدًا بشفاعة جدِّه أحمد بن منيع.

ويُروَىٰ عنه قال: كان عبد الرحمن[٣] ينكر الحديث ثم يخرج إلينا بعدُ في وقت فيقول: هو صحيح، قد وجدتُه. قال: وأما وكيع فلم يكن ينكر، ولكن كان يقول إن سُئل عنه: لا أحفظه.

ويُروَىٰ عن ابن أخت عبد الرحمن بن مهدي[٤] قال: كان خالي قد خطَّ علىٰ أحاديث ثم صحَّح عليها بعد ذلك، وقرأتُها عليه، فقلتُ: قد كنتَ خططتَ عليها. فقال: نعم، ثم تفكَّرتُ أنِّي إذا ضعَّفتُها أسقطتُ عدالةَ ناقليها، فإن جاثاني بين يدَي الله تعالىٰ وقال لي: [لِمَ] أسقطتَ عدالتي؟ رأيتَني؟ سمعتَ كلامي؟ لم يكن لي حُجة.

كان هذا مذهب الوَرِعين من السلف.

وقال بعضهم في تضعيف الرواة: إن خلصت نيتُك - يعني إن أردتَ الله تعالىٰ والدينَ بذلك - لم يكن لك ولا عليك[٥].

فهذا الذي ذكرتُ لك هو أصل في معرفة الحديث، وهو عِلمٌ لأهله، وطريق هم سالكوه[٦]، وما قصدتُ بذلك الإزراء ولا التنقيص لمقام أصحاب الحديث،

---

(١) زيادة من القوت.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة. وابن بنت ابن منيع هو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي.

(٣) ابن مهدي.

(٤) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن حميد بن الأسود البصري.

(٥) أورده أبو طالب المكي في القوت ١/ ٢٢٩ بأبسط من هذا السياق.

(٦) هنا آخر النقل عن القوت.

كلا والله، بل إني محبٌّ لهم، ومعتقد حُسن طريقتهم، وإنما أوسعتُ في الكلام ليظهر بذلك علوُّ نظر الإمام أبي حامد، وأن أكثر ما قيل فيه من جهة إيراده الأحاديث الضعيفة في كتابه غيرُ متَّجه؛ إذ مقصده جميل لا يتعدىٰ عن حُسن الظن بهؤلاء الذين رووها في كتبهم ونقل هو عن تلك المصنَّفات، والله تعالىٰ يجعل ما كتبتُه خالصًا لوجهه الكريم، ومقرِّبا إلىٰ جنات النعيم ... آمين آمين آمين.

* * *

خاتمة الفصول: في بيان الجرح والتعديل

ومعرفة هذه المسألة مهمة.

قال ابن السبكي في الطبقات في ترجمة أبي جعفر أحمد بن صالح من الطبقة الأولىٰ من أصحاب الشافعي ما نصه[١]: ننبهك هنا علىٰ قاعدة عظيمة في الجرح والتعديل ضرورية نافعة، لا تراها في شيء من كتب الأصول.

قلت: وقد انتقيتُ من كلامه في هذه المسألة ما يدل علىٰ المقصود منه.

قال: فإنك إذا سمعتَ أن الجرح مقدَّم علىٰ التعديل، ورأيت الجرح والتعديل في الإنسان وكنت غِرًّا بالأمور وفَدْمًا مقتصرًا علىٰ منقول الأصول حسبتَ أن العمل علىٰ جرحه، فإياك ثم إياك والحذر كل الحذر من هذا الحسبان، بل الصواب [عندنا] أن مَن ثبتت إمامته وعدالته وكثُر مادحوه ومزكُّوه وندر جارحوه، وكانت هناك قرينة دالَّة علىٰ سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره، فلا نلتفت إلىٰ الجرح فيه، ونعمل فيه بالعدالة، وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا بتقديم الجرح علىٰ إطلاقه لَمَا سَلِمَ لنا أحدٌ من الأئمة؛ إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون، وهلك فيه هالكون، وقد أشار لذلك ابن عبد البر في كتاب «العلم»[٢]، واستدل بأن السلف تكلم بعضهم في بعض بكلامٍ منه ما حمل عليه التعصب[٣] والحسد، ومنه ما دعاه إليه التأويل واختلاف الاجتهاد مما[٤] لا يلزم المَقُولَ فيه ما قال القائل فيه، وقد حمل بعضهم علىٰ بعض بالسيف تأويلاً واجتهادًا.

---

(١) طبقات السبكي ٢/ ٩ - ٢٢. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/ ١٠٨٧ - ١١١٧.

(٣) في طبقات السبكي وجامع بيان العلم: الغضب.

(٤) في المطبوعة: كما. وفي طبقات السبكي: فيما. والمثبت من جامع بيان العلم.

قال: ومما نُقم به علىٰ يحيىٰ بن مَعِين وعِيبَ به كلامُه في الشافعي، وهو[١] لا يعرف الشافعي، ولا يعرف ما قاله الشافعي، ومَن جهل شيئًا عاداه، وكلام ابن أبي ذئب وإبراهيم بن سعد وعبد العزيز بن أبي سَلَمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ومحمد بن إسحاق وابن أبي يحيىٰ وابن أبي الزِّناد في مالك، وعابوا عليه أشياء [من مذهبه] وقد برَّأه الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا قالوا.

قال: وما مثل مَن تكلم في مالك والشافعي ونظائرهما [من الأئمة][٢] إلا كما قال الأعشىٰ[٣]:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليفلِقها فلم يَضِرْها وأوهي قرنَه الوَعِلُ[٤]

أو كما قال الحسين بن حُمَيد:

يا ناطح الجبل العالي ليَكْلُمَه أشفِقْ علىٰ الرأس لا تشفق علىٰ الجبلِ

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول[٥]:

ومَن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا وللناس قال بالظنون وقيلُ

وقيل لابن المبارك: فلان يتكلم في أبي حنيفة. فأنشد[٦]:

حسدوك لما رأوك[٧] فضَّلك الله بما فُضِّلتْ به النُّجَباءُ

---

(١) من هنا إلىٰ قوله «عاداه» من كلام الإمام أحمد بن حنبل ردًا علىٰ يحيىٰ بن معين.

(٢) زيادة من جامع بيان العلم.

(٣) البيت في ديوانه ص ٩٤ (ط - مكتبة الآداب بالقاهرة).

(٤) الوعل، ويسمىٰ أيضا: الأيل الأحمر.

(٥) البيت في ديوانه ص ٣٥٦ (ط - دار بيروت).

(٦) البيت لعبد الله بن قيس الرقيات في ديوانه ص ٩١ (ط - دار صادر ببيروت) من قصيدة يمدح بها مصعب بن الزبير بن العوام.

(٧) في الديوان: حسدًا إذ رأوك. وفي طبقات السبكي وجامع بيان العلم: أن رأوك.

وقيل لأبي عاصم النبيل: فلان يتكلم في أبي حنيفة. فقال: هو كما قال نُصَيبٌ:

سلمتِ وهل حيٌّ من الناس سالم[١]

وقال أبو الأسود الدؤلي[٢]:

حسدوا الفتىٰ إذ لم ينالوا سعيَه   فالقوم أعداء له وخصوم

هذا كله كلام ابن عبد البر، وفصلُ الخِطاب فيه أن الجارح لا يُقبَل منه الجرح وإن فسَّره في حق مَن غلبت طاعاته علىٰ معاصيه، ومادحوه علىٰ ذامِّيه، ومزكُّوه علىٰ جارحيه، إذا كانت هناك قرينة يشهد العقل أن ذلك من تعصب مذهبي أو منافسة دنيوية كما يكون بين النُّظراء، فلا يُلتفَت إلىٰ كلام ابن أبي ذئب في مالك، وابن مَعِين في الشافعي، والنسائي في أحمد بن صالح؛ لأن هؤلاء [أئمة] مشهورون، صار الجارح لهم كالآتي بخبر غريب لو صح لتوفَّرت الدواعي علىٰ نقله، فكان القاطع قائمًا علىٰ كذبه فيما قاله، ومما ينبغي أن يُتفقَّد عند الجرح حالُ العقائد واختلافها بالنسبة إلىٰ الجارح والمجروح، فربما خالف الجارحُ المجروحَ في العقيدة فجرحه لذلك، وقد وقع هذا لكثير من الأئمة، جُرِّحوا بناءً علىٰ معتقدهم وهم المخطئون، والمجروح مصيب، وإلىٰ هذا أشار ابن دقيق العيد في «الاقتراح» وقال[٣]: أعراض المسلمين حفرة من حُفَر النار وقف علىٰ شفيرها طائفتان من الناس: المحدِّثون والحكَّام. ا.هـ.

---

(١) عجز بيتٍ، صدرُه:

لأسلم من قول الوشاة وتسلمي

وهو في ديوان نصيب بن رباح ص ١٢٣ ولفظه: من الناس يسلم. وكذا في طبقات السبكي وجامع بيان العلم.

(٢) البيت في ديوانه ص ٤٠٣ (ط - دار الهلال ببيروت).

(٣) الاقتراح في بيان الاصطلاح لابن دقيق العيد ص ٥٩ (ط - دار المشاريع ببيروت).

ثم قال: ومَن شهد علىٰ آخر وهو مخالف له في العقيدة أوجبت مخالفتُه له ريبةً عند الحاكم المتبصِّر لا يجدها إذا كانت الشهادة صادرة من غير مخالف في العقيدة. ثم المشهود به يختلف باختلاف الأغراض والأحوال، فربما وضح غرضُ الشاهد علىٰ المشهود عليه إيضاحًا لا يخفىٰ علىٰ أحد، وذلك لقُربه من نص[1] معتقده أو ما أشبهَ ذلك، وربما دق وغمض بحيث لا يدركه إلا الفَطِن من الحكَّام، ورُبَّ شاهدٍ من أهل السُّنَّة ساذَج قد مقت المبتدعَ مقتًا زائدًا علىٰ ما يطلبه الله منه وأساء الظن به إساءةً أوجبت له تصديقَ ما يبلغه عنه فبلغه عنه شيء فغلب علىٰ ظنِّه صدقُه - كما قدَّمناه - فشهد به، فسبيلُ الحاكمِ التوقُّفُ في مثل هذا إلىٰ أن يتبيَّن له الحالُ فيه، وسبيلُ الشاهدِ الوَرِع - ولو كان من أصلب أهل السُّنة - أن يعرض علىٰ نفسه ما نُقل له عن هذا المبتدع وقد صدَّقه وعزم علىٰ أن يشهد عليه به، ويعرض علىٰ نفسه مثل هذا الخبر بعينه [وهذا المخبر بعينه] أن لو كان عن شخص من أهل عقيدته هل كان يصدِّقه؟ وبتقدير أنْ لو كان يصدِّقه، فهل كان يبادر إلىٰ الشهادة عليه به؟ وبتقدير أنه كان يبادر، فليوازن ما بين المبادرتين، فإن وجدهما سواء فدونه وإلا فليعلم أن حظ النفس داخَلَه، وأزْيَدُ من ذلك أن الشيطان استولىٰ عليه فخيَّل له أن هذه قُرْبة وقيام في نصر الحق، وليعلم مَن هذه سبيله أنه أُتِيَ من جهل وقلة دين. هذا قولنا في سُني يجرح مبتدعًا، فما الظن بمبتدع يجرح سنيًّا؟ وفي المبتدعة [لا سيما المجسِّمة] زيادة لا توجد في غيرهم وهو أنهم يرون الكذب لنصرتهم[2]، والشهادة علىٰ مَن يخالفهم في العقيدة بما يسوءه في نفسه وماله بالكذب تأييدًا لاعتقادهم، ويزداد حَنَقُهم وتقرُّبهم إلىٰ الله بالكذب عليه بمقدار زيادته في النَّيل منهم، فهؤلاء لا يحل لمسلم أن يعتبر كلامهم.

(١) في طبقات السبكي: نصر.

(٢) في طبقات السبكي: لنصرة مذهبهم.

ثم قال: ومما ينبغي أن يُتفقَّد عند الجرح أيضًا: حال الجارح في الخبرة بمدلولات الألفاظ ولا سيما العُرْفية التي تختلف باختلاف عُرْفِ الناس وتكون في بعض الأزمنة مدحًا وفي بعضها ذمًّا، وهذا أمر شديد لا يدركه إلا فقيه[1] بالعلم، ويُعتبر أيضًا حاله في العِلم بالأحكام الشرعية، فرُبَّ جاهل ظن الحلال حرامًا فيجرِّح به، ومن هنا أوجب الفقهاءُ التفسيرَ؛ ليتضح الحال. قال صاحب «البحر»: حُكي أن رجلاً جرَّح رجلاً وقال: إنه طَيَّنَ سطحَه بطينٍ استُخرج من حوض السبيل.

ومما ينبغي أيضًا تفقُّده: الخلاف الواقع بين كثير من الصوفية وأصحاب الحديث، فقد أوجب كلامَ بعضهم في بعض، كما تكلم بعضهم في حق الحارث المُحاسِبي وغيره، وهذا - في الحقيقة - داخل في قسم مخالفة العقائد، والطامَّة الكبرىٰ إنما هي في العقائد المثيرة للتعصُّب والهوىٰ، نعم، وفي المنافسات الدنيوية علىٰ حُطام الدنيا، وهذا في المتأخرين أكثر منه في المتقدمين، وأمرُ العقائد سواء في الفريقين.

ثم قال: ولا شك أن مَن تكلم في إمام استقر في الأذهان عَظَمتُه وتناقلت الرواة مَمادحه فقد جرَّ المَلام إلىٰ نفسه، ولكنَّا لا نقضي أيضًا علىٰ مَن عُرفت عدالته إذا جرح مَن لم يُقبَل منه جرحه إياه بالفسق، بل نجوِّز أمورًا:

أحدها: أن يكون واهمًا، ومَن ذا الذي لا يَهِمُ؟

والثاني: أن يكون مأوِّلاً قد جرح بشيء ظنه جارحًا ولا يراه المجروح كذلك، كاختلاف المجتهدين.

والثالث: أن يكون نقله إليه مَن يراه هو صادقًا ونحن نراه كاذبًا، وهذا لاختلافنا

---

(١) في طبقات السبكي: قعيد.

في الجرح والتعديل، فرُبَّ مجروحٍ عند عالم معدَّل عند غيره، فيقع الاختلاف في الاحتجاج حسب الاختلاف في تزكيته، فلم يتعيَّن أن يكون الحامل للجارح علىٰ الجرح مجرد التعصب والهوىٰ حتىٰ يجرحه بالجرح، ومعنا أصلان نستصحبهما إلىٰ أن نتيقن خلافهما: أصل عدالة الإمام المجروح الذي قد استقرت عَظَمتُه، وأصل عدالة الجارح الذي يثبت، فلا يُلتفَت إلىٰ جرحه، ولا نجرحه بجرحه.

ثم قال: وقولهم «إن الجرح مقدَّم» إنما يعنون به حالة تعارُض الجرح والتعديل، فإذا تعارضا عند الترجيح قدَّمْنا الجرحَ؛ لِما فيه من زيادة العلم، وتعارُضُهما هو استواء الظن عندهما؛ لأن هذا شأن المتعارضين، أما إذا لم يقع استواء الظن عندهما فلا تعارُض، بل العمل بأقوىٰ الظَّنَّينِ من جرح أو تعديل، وفيما نحن فيه لم يتعارضا؛ لأن غلبة الظن بالعدالة قائمة، وهذا كما أن عدد الجارح إذا كان أكثر قُدِّم الجرح إجماعًا؛ لأنه لا تعارُض والحالة هذه، ولا يقول هنا[1] أحد بتقديم التعديل، لا من قال بتقديمه عند التعارض ولا غيره، فظهر بهذا أنه ليس كل جرح مقدَّمًا.

ثم قال: ولنختم هذه القاعدة بفائدتين عظيمتين:

إحداهما: أن قولهم «لا يُقبَل الجرح إلا مفسَّرًا» إنما هو أيضًا في جرح من ثبتت عدالة صاحبه[2] واستقرت، فإذا أراد رافعٌ رَفْعَها بالجرح قيل له: ائتِ ببرهان علىٰ هذا، أو مبهم[3] لم يُعرَف حاله ولكن ابتدأه جارحان ومزكِّيان، فيقال إذ ذاك للجارحينِ: فَسِّرا ما رميتماه به. أما من ثبت أنه مجروح فيُقبَل قول من أطلق جرحه؛

---

(١) في طبقات السبكي: منا.

(٢) في طبقات السبكي: من ثبتت عدالته.

(٣) في طبقات السبكي: فيمن.

لجريانه علىٰ الأصل المقرَّر عندنا، ولا نطالبه بالتفسير؛ إذ لا حاجة إلىٰ طلبه.

والفائدة الثانية: أنَّا لا نطلب التفسير من كل أحد، بل إنما نطلبه حيث يحتمل الحالُ شكًّا، إمَّا للاختلاف في الاجتهاد أو لتهمة [يسيرة] في الجارح أو نحو ذلك مما لا يوجب سقوطَ قول الجارح، ولا ينتهي إلىٰ الاعتبار به علىٰ الإطلاق، بل يكون بين بين، أما إذا انتفت الظنون واندفعت التُّهَم وكان الجارح حبراً من أحبار الأمة، مبرأً عن مَظانِّ التهمة أو كان المجروح مشهورًا بالضعف متروكًا بين النقاد فلا نتلعثم عند جرحه، ولا نحوج الجارح إلىٰ تفسير، بل طلبُ التفسير منه والحالة هذه طلبٌ لغِيبة لا حاجة إليها.

هذا خلاصة ما ذكره، فافهمه.

* * *

هذا ما تيسر لنا جمعه من أحواله ومشايخه ومَن صحبه وروىٰ عنه أو تفقه عليه، وما يتعلق بكتابه، وما اعتُرض عليه فيه، والجواب عنه علىٰ قدر الإمكان، مع الاختصار الزائد، وعسىٰ إن وقفتُ علىٰ زيادة علىٰ ما ذكرتُ ألحقتُها به.

وقد عَنَّ لنا أن نرخي العنان إلىٰ المقصود الأعظم الذي هو شرح أسرار كتابه المعظَّم، والله أسأل أن يوفِّقني لإتمامه علىٰ نهج يرتضيه أهل الحق، ويستحسنه مَن كُشف له علىٰ الجمع والفرق، وأن يرزقه القبول كأصله، وأن يُوقِعه موقع الرضا عند أهله، إنه بالإجابة جدير، وعلىٰ ما يشاء قدير، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه وأزواجه وذريته وسلَّم.

تنبيه:

اعلم أن مختار السيد الجُرجاني أن أسماء الكتب والتراجم موضوعة للألفاظ باعتبار دلالتها علىٰ المعاني لا المعاني والنقوش؛ لأن النقوش غير متيسِّرة لكل أحد، ولا في كل وقت، فلا يناسب أن تكون مدلولاً ولا جزء مدلول، ككتب العلم المحمولة لأهلها إلىٰ قيام الساعة، ولم تكن للمعاني؛ لأن الغالب فيها أن إدراكها متوقِّف علىٰ إدراك دوالِّها التي هي الألفاظ، فلا تناسب أن تكون مدلولاً ولا جزء مدلول، فتعيَّنَ أن تكون الألفاظ، وإنما قيل «باعتبار دلالتها علىٰ المعاني» لأن الألفاظ وحدها غير مقصودة بالذات[1].

كذا في تقرير شيخنا المرحوم الشيخ عطية الأجهوري في بعض مؤلفاته، وتقرير شيخنا السيد محمد البَلِيدي في أثناء درس البيضاوي، تغمَّدهما الله برحمته.

* * *

(١) انظر: حاشية الجمل علىٰ شرح منهج الطلاب ١/ ٢٠ (ط - دار الفكر ببيروت).

قال المصنِّف رحمه الله تعالىٰ بعد قوله:

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ):

(أحمدُ اللهَ تعالىٰ) اعلمْ أنهم ذكروا[١] أن من الواجب علىٰ كل مصنِّف كتابٍ ثلاثة أشياء وهي: البسملة، والحمدلة، والصلاة. ومن الطرق الجائزة أربعة أشياء وهي: مدح الفن، وذِكر الباعث، وتسمية الكتاب، وبيان كيفية الكتاب من التبويب والتفصيل. فهي سبعة أشياء؛ أما البسملة والحمدلة فإن كتاب الله مفتوح بهما، ولقوله ﷺ: «كل أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه بذِكر الله وببسم الله الرحمن الرحيم أقطع». رواه الحافظ عبد القادر الرُّهاوي في أربعينه. وقوله عليه السلام: «كل كلام لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم». رواه أبو داود[٢] والنسائي[٣]. وفي رواية ابن ماجه[٤]: «كل أمرٍ لا يُبدأ فيه بالحمد أقطع». ورواه ابن حبان[٥] وأبو عوانة[٦] في صحيحيهما. وقال ابن الصلاح: هذا حديث حَسَن بل صحيح.

وأما الصلاة، فلأن ذِكره ﷺ مقرون بذكره تعالىٰ، ولهذا قال مجاهد في تفسير

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني ١/ ٣٥ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٨٩.

(٣) السنن الكبرىٰ للنسائي ٩/ ١٨٤ - ١٨٥.

(٤) سنن ابن ماجه ٣/ ٣٣٨.

(٥) صحيح ابن حبان ١/ ١٧٣.

(٦) المستخرج علىٰ صحيح مسلم لأبي عوانة ١/ ٤٥٣ بلفظ: كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج.

وكلهم رووه من حديث أبي هريرة، واختلف في تصحيحه وتضعيفه ووصله وإرساله، قال الدارقطني: المرسل هو الصواب.

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]: لا أُذكَر إلا ذُكرتَ [معي][1].

ومعنىٰ البسملة[2]: أي باستعانة [اسم] المعبود بالحق الواجب الوجود المطلق المبدِع للعالَم أصنِّفُ هذا الكتاب إجمالاً، وأؤلف بين كل باب وباب تفصيلاً. وفي تأخير المتعلق إيماءٌ لإفادة الاختصاص، وإشعار باستحقاق تقديم ذِكر اسمه الخاص، والابتداء بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة إضافي، وكل حقيقي إضافي، ولا عكس، فبينهما عموم وخصوص مطلق؛ إذ الحقيقي ما لم يُسبَق بشيء أصلاً، والإضافي ما تقدم أمام المقصود، سُبق بشيء أم لا.

ثم الحمد[3] لغوي وعُرْفي؛ فالأول هو: الوصف بفضيلة علىٰ فضيلة علىٰ جهة التعظيم باللسان فقط، والثاني: فعلٌ يُشعِر بتعظيم المنعِم لكونه منعمًا. هَبْهُ فعل اللسان أو الأركان أو الجِنان فهو ينقسم إلىٰ قوليّ وفِعليّ وحاليّ؛ فالقولي: حمدُ اللسان وثناؤه علىٰ الحق بما أثنىٰ به علىٰ نفسه علىٰ لسان أنبيائه ورسله. والفعلي: الإتيان بالأعمال البدنية ابتغاءَ لوجه الله. والحالي: ما يكون بحسب الروح والقلب، كاعتقاد الاتصاف بالكمالات العِلْمية والعَمَلية، والتخلُّق بالأخلاق الإلهية. والشكر اللغوي[4]: فعلٌ يُنبِئ عن تعظيم المنعِم بسبب الإنعام، سواء كان ذِكرا أو اعتقادًا أو محبة بالجِنان أو عملاً وخدمة بالأركان. والعرفي: صرفُ العبد جميعَ ما أنعم الله عليه من السمع والبصر وغيرهما لِما خُلق له.

---

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٤ (ط - دار هجر بالقاهرة). تفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٠ (ط - دار طيبة بالرياض). الدر المنثور للسيوطي ١٥/ ٤٩٧ (ط - دار هجر). دلائل النبوة للبيهقي ٧/ ٦٣.

(٢) جمع الوسائل في شرح الشمائل لعلي القاري ١/ ٣ (ط - البابي الحلبي). والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٣) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف للمناوي ص ١٤٧ (ط - عالم الكتب). التعريفات للشريف الجرجاني ٩٨ (ط - مكتبة لبنان ببيروت).

(٤) التعريفات ص ١٣٣. التوقيف ص ٢٠٦.

وآثر الجملةَ الإنشائية علىٰ الخَبَرية لكونها - لدلالتها علىٰ الحدوث والتجدُّد - تقتضي المثوبة والحسنات المنظور إليها في الأعمال.

قال ابن الهُمَام في بعض رسائله: لو كان الحمد خبرًا محضًا لَمَا لاقَ وحسُن تكرارُه في مجلس واحد؛ لأن مَن كرَّر خبرًا واحدًا في مجلس عُدَّ أحمق ناقص الغريزة، وقد عُلم من السُّنة الشريفة الترغيب في تكرار الحمد والتكبير وغيرهما من الكلمات الصالحات، فيناسب ذلك كله الإنشاء لا الإخبار؛ إذ في الإنشاء تجديدٌ ومغايرات للكلمات يقتضي بحسبها تعدُّد المثوبة والحسنات، ولهذا نقل الشرع كثيرًا من الكلمات اللغوية - كالصلاة والزكاة وغير ذلك - إلىٰ معانٍ أُخَر غير ما وُضعت له في اللغة؛ فإن الصلاة مثلاً وُضعت للدعاء فقط، وقد وضعها الشارع للأفعال المخصوصة مما تدل عليه التجديدات العَمَلية الشرعية، فيكون الحمد كذلك، فكان من باب الإنشاء، فمن قال: خبر، قصر نظره علىٰ اللغة، ومن قال: إنشاء، نظر إلىٰ الشرع، فكان لفظيًّا. ا.هـ.

وجملة «تعالىٰ» فعلية معترضة.

(أولاً)[1] هو نقيض الآخر، وأصله: أَوْأَل، علىٰ وزن «أَفْعَل» مهموز الأوسط، قُلبت الهمزة واوًا وأُدغمت، يدل علىٰ ذلك قولُهم: هذا أَوَّلُ منك. والجمع: الأوائل، والأوالي أيضًا علىٰ القلب. وقال قوم: أصله: وَوْوَل، علىٰ «فَوْعَل»، فقُلبت الواو الأولىٰ همزةً، وإنما لم يُجمع علىٰ «أَواوِل» لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع، وانتصاب «أولاً» وكذلك «ثانيًا» و«ثالثًا» و«رابعًا» علىٰ الظرفية، وأما التنوين في «أولاً» - مع أنه أفعل التفضيل بدليل: الأولىٰ والأوائل، كالفُضْلىٰ والأفاضل - فلأنه هنا ظرف بمعنىٰ «قبل»، وهو حينئذٍ

(١) تاج العروس ٣١/ ٥٦ - ٥٩.

منصرف لا وَصْفيةَ له أصلاً، وهذا معنىٰ ما قال الجوهري في «الصحاح»[(١)]: إذا جعلتَه صفةً لم تصرفه، تقول: لقيتُه عامًا أوَّلَ، وإذا لم تجعله صفة صرفتَه، تقول: لقيتُه عامًا أولاً. ومعناه في الأول: أول من هذا العام، وفي الثاني: قبل هذا العام. أشار لذلك السعد في أوائل «التلويح»[(٢)]، وقد نظر فيه بعضهم فقال: يصير صفة أيضًا، وإنما معناه علىٰ الثاني: أول هذا العام، علىٰ أن يكون منصوبًا علىٰ الظرفية بدلاً منه، فتكون الملاقاة في جزء أول من هذا العام، بخلاف المعنىٰ الأول.

(**حمدًا كثيرًا متواليًا**) أي متتابعًا في كل آنٍ، ليس بين كلٍّ من أفراده ما ليس منه (**وإن كان يتضاءل**) أي يتصاغر، من ضَئِلَ كفَرِحَ[(٣)]: إذا لصق بالأرض من حقارة. وفي الحديث[(٤)]: «إن العرش علىٰ منكب إسرافيل، وإنه ليتضاءل من خشية الله حتىٰ يصير مثل الوصع[(٥)]». أي يتصاغر ويدق تواضعًا؛ قاله ابن الأثير[(٦)] (**دون حقِّ جلاله**) أي ما يليق من عظمته وكبريائه (**حمد الحامدينَ**) ولو

---

(١) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ص ١٨٣٨ (ط - دار العلم للملايين ببيروت).

(٢) التلويح شرح التوضيح للسعد التفتازاني ١/ ٥ (ط - مكتبة صبيح بالقاهرة).

(٣) الذي ذكره الزبيدي نفسه في تاج العروس ٢٩/ ٣٣٩: ضَؤُلَ ككرُم. أي بفتح أوله وضم ثانيه.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٠١ (ط - دار الكتب العلمية) عن ابن شهاب الزهري مرسلا أن رسول الله ﷺ سأل جبريل أن يتراءىٰ له في صورته، فقال جبريل: إنك لن تطيق ذلك. فقال: «إني أحب أن تفعل». فخرج رسول الله ﷺ إلىٰ المصلىٰ في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته، فغشي علىٰ رسول الله ﷺ حين رآه، ثم أفاق وجبريل مسنده وواضع إحدىٰ يديه علىٰ صدره، والأخرىٰ بين كتفيه، فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! ما كنت أرىٰ شيئًا من الخلق هكذا». فقال جبريل: كيف لو رأيت إسرافيل، إن له اثني عشر جناحًا، جناح منها في المشرق، وجناح في المغرب، وإن العرش لعلىٰ كاهله، وإنه ليتضاءل الأحيان لعظمة الله تعالىٰ حتىٰ يصير مثل الوصع حتىٰ ما يحمل عرشه إلا عظمته.

(٥) الوصع، ويعرف بالصعو: اسم يطلق علىٰ مجموعة من الطيور الصغيرة المغردة.

(٦) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٦٩ (ط - المكتبة الإسلامية) وعبارته: أي يتصاغر تواضعًا له.

بلغوا إلىٰ أقصىٰ مراتب الحمد (**وأصلِّي وأسلِّم علىٰ رسله**) لمَّا كان أجل النِّعم الواصلة إلىٰ العبد هو دين الإسلام وبه التوصُّل إلىٰ النعيم الدائم في دار السلام، وذلك بتوسُّط رسله عليهم الصلاة والسلام، وجب إردافُ الصلاة والسلام عليهم بعد الحمد. والصلاة[١] من الله لعباده تزكيته لهم وبركته عليهم، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس الدعاء. وأصل الرِّسْل[٢]: الانبعاث علىٰ تُؤَدة، ومنه: ناقة رِسْلة، أي سهلة الانقياد، وإبل مراسيل [ومنه الرسول المنبعث][٣] ويصدر[٤] منه تارةً الرفق [فقيل: علىٰ رِسْلك، إذا أمرته بالرفق][٥] وتارةً الانبعاث، ومنه اشتُق الرسول، والجمع: رُسُل، بضمتين. ويطلق الرسول تارة علىٰ المتحمِّل بالرسالة، وتارة علىٰ القول المتحمَّل[٦]، وتارةً يطابق ما يُراد به، وتارة يُفرَد وإن أُريدَ به غير الواحد، وقد يُراد بالرسل: الملائكة، وفي الاصطلاح: إنسان بعثه اللهُ لتبليغ الأحكام (**ثانيًا**) منصوب علىٰ الظرفية، كما تقدم (**صلاةً تستغرق**) أي تعمُّ، فالسين ليست للطلب (مع) للمصاحبة[٧]، واختُلف في كونه اسمًا أو حرفَ خفضٍ، وقيل: إن «مَعَ» المتحركة تكون اسمًا وحرفًا، وساكنة العين حرف لا غير، وأنشد سيبويه[٨]:

وريشي منكم وهواي معكم وإن كانت زيارتكم لِماما

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٨٥ (ط - دار المعرفة ببيروت).

(٢) مفردات الراغب ص ١٩٥.

(٣) زيادة من المفردات.

(٤) في المفردات: وتصور.

(٥) زيادة من المفردات.

(٦) عبارة الراغب: والرسول يقال تارة للقول المتحمَّل، وتارة لمتحمِّل القول والرسالة.

(٧) تاج العروس ٢٢/ ٢٠٩ - ٢١٠.

(٨) كتاب سيبويه ٣/ ٢٨٧ ونسبه للراعي النميري، وهو في ملحق ديوانه ص ٣١١ (تحقيق: راينهرت فايبرت). والصحيح أنه لجرير بن عطية الخطفي، وهو في ديوانه ص ٤١٠ (ط - دار بيروت) من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك. وفيه: وهواي فيكم.

وحكىٰ الكسائي عن ربيعة [وغَنْم][١] أنهم يسكِّنون العين في «مع» فيقولون: مَعْكم ومَعْنا، فإذا جاءت الألف واللام أو ألف الوصل اختلفوا فيها، فبعضهم يفتح العين، وبعضهم يكسرها فيقولون: معَ القومِ، ومعَ ابنِك. وبعضهم يقول: معِ القومِ، ومعِ ابنِك. قال: وكلام عامة العرب بفتح العين مع ألف الوصل[٢]، وأما مَن سكَّن فقال: مَعْكم [ثم][٣] كسر عند ألف الوصل فإنه[٤] أخرجه مخرج الأدوات، مثل «هل» و«بل» و«قد» و«كم» فقال: معِ القومِ، كقولك: كَمِ القومُ؟ وقد ينوَّن فيقال: جاءوا معًا؛ نقله الأزهري في «التهذيب»[٥].

وقال الراغب[٦] والسمين[٧]: «مع» يقتضي الاجتماع: إما في المكان نحو: هما معًا في الدار، أو في الزمان نحو: وُلِدا معًا، أو في المعنىٰ كالمتضايفين، نحو: الأخ والأب[٨]، فإن[٩] أحدهما صار أخًا للآخر في حال ما صار الآخر أخاه. وإما في الشرف والرتبة، نحو: هما معًا في العلوِّ. ويقتضي معنىٰ النصرة؛ فإن المضاف إليه لفظ

---

(١) زيادة من التاج.

(٢) عبارة التاج: «أما من فتح العين مع الألف واللام فإنه بناه علىٰ قولك: كنا معا، ونحن معا، فلما جعلها حرفا وأخرجها من الاسم حذف الألف وترك العين علىٰ فتحها فقال: معَ القومِ، ومعَ ابنك. قال: وهو كلام عامة العرب. يعني فتح العين مع الألف واللام ومع ألف الوصل».

(٣) زيادة من التاج.

(٤) في المطبوعة: لأنه. والمثبت من التاج.

(٥) لم أقف علىٰ هذا الكلام في تهذيب اللغة للأزهري، وقد أشار المحقق إلىٰ أن في هذه المادة جزءا مفقودا من المخطوطات التي استخدمت في تحقيق الكتاب. وقد ذكر الزبيدي هذا الكلام في التاج ولم ينسبه إلىٰ الأزهري. علىٰ أني وجدته بنصه في كتاب المحكم لابن سيده ١/ ١١٠ (ط - دار الكتب العلمية).

(٦) المفردات ص ٤٧٠.

(٧) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٤/ ١٠٠ (ط - دار الكتب العلمية) نقلا عن مفردات الراغب.

(٨) في المطبوعة: نحو الأخ مع الأخ. والمثبت من المفردات والتاج وعمدة الحفاظ.

(٩) في المطبوعة: كأنَّ. والمثبت من المفردات وعمدة الحفاظ.

«مع» هو المنصور، نحو قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][١] و﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝﴾ [الشعراء: ٦٢] ونظائر ذلك. ا.هـ. والمراد هنا معيَّة الشرف والرتبة، ولا يلزم منه التساوي في سائر وجوه الشرف، كما لا يخفىٰ علىٰ المتأمِّل.

(**سيِّد البَشَر**) هو نبينا محمد ﷺ، ثبتت سيادته علىٰ البشر بنص الكتاب، وبقوله ﷺ فيما رواه البخاري في صحيحه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»[٢]. وعبَّر عن عالَم الإنسان بالبشر اعتبارًا بظهور جلده من الشَّعر، بخلاف الحيوان الذي عليه نحو صوف ووَبَر[٣] (**سائرَ المرسَلين**) جميعهم أو باقيهم، علىٰ اختلاف مشهور في اشتقاقه[٤].

ثم إني رأيت سياق هذه العبارة التي أتىٰ بها المصنف في جملة الحمد والصلاة في أول الجزء الرابع من «تجريد الصحاح» لأبي الحسن رزين بن معاوية العبدري، فقال ما نصه: أحمدُ الله حمدًا يتضاءل دون بلوغ مداه حمدُ الحامدينَ، وأصلِّي علىٰ سيدنا محمد نبيِّه ورسوله وخيرته من خَلْقه صلاةً تعم مع سيدِ البشر جميعَ الملائكة والنبيين والمرسَلين، صلاةُ الله عليه وسلَّم وعليهم أجمعين، وعلىٰ آله وأصحابه، وعلىٰ التابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدِّين. ا.هـ. فلعل ذلك من وَقْعِ الحافر علىٰ الحافر وتوارُدِ الخاطر علىٰ الخاطر.

(**وأستخيره سبحانه**) أي أطلب منه الخيرة، فالسين والتاء للطلب، وهو أصل هذا الباب، إلا ما شذَّ كـ «استخرج» و«استحجر» و«استحلىٰ»؛ فإنه في الأول بمعنىٰ خرج، وفي الثاني بمعنىٰ الصيرورة، وفي الثالث بمعنىٰ الوجدان. وأتىٰ بصيغة

---

(١) زاد في المفردات: «أي الذي مع يضاف إليه في قوله (الله معنا) هو منصور، أي ناصرنا».

(٢) سيأتي هذا الحديث في كتاب آفات اللسان. ولم يخرجه البخاري في صحيحه كما زعم المؤلف.

(٣) مفردات الراغب ص ٤٧.

(٤) انظر: تاج العروس ١١/ ٤٨٥ - ٤٨٧.

المضارع اتباعًا للجملتين السابقتين؛ ليكون على نسق واحد، وكذا الحكم فيما بعدها، مع الإشارة إلى شدة الاستحضار في الذِّهن. ثم الاستخارة مطلوبة شرعًا، وقد ورد فيها أحاديث سيأتي بيانها. والضمير راجع لله تعالى (**ثالثًا**) منصوب على الظرفية، كما تقدم (**فيما انبعث**) أي تحرَّك وانتشط (**له عزمي**) هو عقدُ القلب على إمضاء الأمر[١] (**من تحرير**) أي تأليف (**كتاب في إحياء علوم الدين**) فيه أربع إضافات، وفيه براعة الاستهلال (**وأنتدب**) أي أُسارع، يقال: انتدب له: إذا أجابه بسرعة، ومنه حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «انتدب الله لمن خرج في سبيله ...» الخ[٢]، أي سارع بثوابه وحسن جزائه، أو أجابه إلى غفرانه، أو أوجب تفضلا أن ينجز له ذلك؛ نقله ابن الأثير[٣] (**لقطعِ تعجُّبك رابعًا أيها العاذل**) أي اللائم، وقد عَذَلَه: إذا لامَه، والاسم: العَذَل، بالتحريك. وقال ابن الأعرابي[٤]: العَذْل: الإحراق، فكأنَّ اللائم يحرق بعَذْله قلبَ المعذول (**المتغالي**) أي المتجاوز عن الحد (**في العذل من بين زُمْرة**) طائفة (**الجاحدين**) المنكرين للحق (**المسرف**) المُبعِد في مجاوزة الحدِّ (**في التقريع**) التعنيف والتوبيخ والعذل. وقيل: هو الإيجاع باللوم. وقيل: هو النصح بين الملأ[٥] (و) على المعنى الأخير، يكون عطف (**الإنكار**) عليه من باب عطف العام على الخاص (**من بين طبقات المنكرين الغافلين**) ثم من قوله «أحمد الله» إلى هنا خمس سَجعات، الأولى متعلقة بالله تعالى، والثانية متعلقة بالنبي ﷺ،

(١) مفردات الراغب ص ٣٣٤.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٨.

(٣) الذي في النهاية ٥/ ٣٤: «أي أجابه إلى غفرانه، يقال: ندبته فانتدب، أي بعثته ودعوته فأجاب». وانظر: تاج العروس ٤/ ٢٥٧. وفتح الباري ١/ ١١٥.

(٤) تاج العروس ٢٩/ ٤٥٧.

(٥) في التاج ٢١/ ٥٤٩: «والتقريع: التعنيف والتثريب، يقال: النصح بين الملأ تقريع، هو الإيجاع باللوم».



والثلاثة بعدهما متعلقات بنفسه، الأولىٰ منها في الابتهال إلىٰ الله تعالىٰ وطلب الخيرة منه وحُسن المعونة، والثنتان في تبكيت الخصم المعاند، وكل واحدة من الثلاثة الأُوَل أشرف مما بعدها، وأشار لذلك بالترتيب. والسجع[1]: توافُقُ الفاصلتين من النثر علىٰ حرف واحد. وفي «الجمهرة»[2]: هو موالاة الكلام علىٰ رَوِيٍّ واحد. كقولهم في صفة سِجِسْتان: ماؤها وَشَل، ولصُّها بَطَل، وتمرها دَقَل، إن كثُر الجيشُ بها جاعوا، وإن قلُّوا ضاعوا؛ نقله الليث[3].

وهو علىٰ أقسام[4]: مُطرَّف ومرصَّع ومُتَوازٍ؛ فالمطرَّف: ما اتفقت فاصلتاه في حرف السجع لا في الوزن، كالرِّمم والأُمَم. والمرصَّع: ما وافق جميع ما في الفقرة الثانية أو أكثره الأولىٰ. والمتوازي: ما رُوعيَ في الكلمتين الوزن وحرف السجع، كالقَلَم والنَّسَم، فتأمَّلْ.

وهنا علىٰ المصنِّف مؤاخذتان:

الأولىٰ: أفرد الصلاة عن السلام، وهو مكروه في مذهبه؛ صرَّح به غير واحد، منهم الإمام النووي.

والجواب: أن المصنف ممن لا يوافقهم علىٰ كراهة الإفراد مطلقًا. علىٰ أن بعضهم حمل الكراهة هنا علىٰ خلاف الأَولىٰ؛ لعدم النهي المخصوص.

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ١٢٢ وعبارته: تواطؤ الفاصلتين من النثر علىٰ حرف واحد في الآخر.

(٢) جمهرة اللغة لابن دريد ١/ ٤٧٤ (ط - دار العلم للملايين).

(٣) وهكذا نقله الشارح أيضا في تاج العروس ٢١/ ١٨٠.
والذي رأيته في بعض المصادر الأخرىٰ أن هذا الوصف لمدينة مكران، ففي معجم البلدان ٥/ ١٨٠.

(٤) التعريفات ص ١٢٢. ولم يذكر النوع الثاني، وقد ذكر البلاغيون له أمثلة من القرآن الكريم، منها قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾.

وأجاب بعضهم فقال: إنه أراد بالصلاة ما يشمل السلام أيضًا، كأنْ يُرادُ مطلَق الإكرام، فيكون من عموم المجاز أو الجمعِ بين الحقيقة والمجاز. وهذا قد ردَّه بعض المحقِّقين فقال: هذا لا يظهر إلا إذا لم تكن الصلاة والسلام من الألفاظ المتعبَّد بها بخصوصها، أما إذا كانا منها - وهو الأظهَر - فلا.

وعبارة النووي في «الأذكار»[1]: إذا صليتَ علىٰ النبي ﷺ فاجمعْ بين الصلاة والسلام، ولا تقتصر علىٰ أحدهما، فلا تقل: صلىٰ الله عليه [فقط][2] ولا: عليه السلام، فقط. ا.هـ.

والصحيح ما ذكره ابن الجَزَري في «مفتاح الحصن»[3] أن الجمع بين الصلاة والسلام هو الأَولىٰ، ولو اقتصر علىٰ أحدهما جاز من غير كراهة، وقد جرىٰ عليه جماعة من السلف والخلف، منهم الإمام مسلم في أول صحيحه وهلم جرًّا حتىٰ الإمام ولي الله الشاطبي في قصيدته الرائية واللامية، وأما قول النووي[4] «وقد نصَّ العلماءُ [أو مَن نص منهم][5] علىٰ كراهة الاقتصار علىٰ الصلاة من غير السلام» فليس كذلك؛ فإني لا أعلم أحدًا نص علىٰ ذلك من العلماء ولا من غيرهم. ا.هـ.

الثانية: لم يذكر الصلاة علىٰ الآل والأصحاب، وقد قال ابن القيم[6]: المختار الذي عليه المحقِّقون أن الصلاة والسلام علىٰ الأنبياء والملائكة وآل

---

(١) الأذكار للنووي ص ٩٨ (ط - مطبعة الملاح بدمشق).

(٢) زيادة من الأذكار.

(٣) نقله علي القاري في جمع الوسائل ص ٥.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١/ ٧٤.

(٥) زيادة من جمع الوسائل لم ترد في شرح النووي.

(٦) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام لابن القيم الجوزية ص ٣٩٤ (ط - مكتبة المؤيد بالرياض).

النبي وأزواجه وذريته وأهل الطاعة علىٰ سبيل الإجمال جائز، ويُكره في غير الأنبياء لشخص مفرد مفردًا بحيث يصير شعارًا ولا سيَّما إذا تُرك في حقِّ مثله أو أفضل منه، فلو اتفق وقوع ذلك في بعض الأحايين من غير أن يُتخذ شعارًا لم يكن به بأسٌ عند عامَّة أهل العلم.

والجواب: أنه أراد من الرسل المعنىٰ الأعم، فدخل فيه الملائكة وسائر الأنبياء وجميع أتباعهم من العلماء والأصفياء، فدخل آلُه ﷺ وأصحابه فيهم دخولاً أوليًّا، فتأمَّلْ ذلك.

(فلقد حلَّ عن لساني عقدة) اسمٌ لِما يعقده العاقد بين الطرفين المفترقين بحيث يشقُّ حلُّها[1] **(الصمت)**: السكوت، وقيل: طوله، ومنهم مَن فرَّق بينهما، كما سيأتي في محلِّه، وضمُّ الصادِ لغةٌ فيه **(وطوَّقَني عهدة الكلام)** أي جعله طوقًا في عنقي **(وقِلادة النطق)** القِلادة - بالكسر - اسمٌ لِما يشتمل علىٰ الشيء ويحيط به[2]، وتطويقها: تعليقُها شِبْه الطَّوق. ومن أشهر الأمثال: «حسبُك من القِلادة ما أحاط بالعنق»[3] **(ما أنت عليه مثابر)** أي مواظِب مُداوِم وحريص ملازم له **(من العَمَىٰ)**

---

(١) التوقيف للمناوي ص ٢٤٤ وعبارته: توثيق جمع الطرفين المفترقين بحيث يشق حلها.

(٢) قال الشهاب الخفاجي: «ذهب بعض علماء اللغة إلىٰ أن هيئات الكلم قد تدل علىٰ معان مخصوصة وإن لم تكن مشتقة، فـ (فعال) بكسر الفاء إن لم تلحقه هاء التأنيث فهو اسم لما يُفعل به الشيء كالآلة كإمام وركاب وحزام، لمن يؤتم به ولما يركب به ولما يحزم يشد به، فإن لحقته الهاء فهو اسم لما يشتمل علىٰ الشيء ويحيط به كاللفافة والعمامة والقلادة، وهذا في غير المصادر».
عناية القاضي وكفاية الراضي وهي حاشية علىٰ تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي ١/ ٢٧٨ (ط - دار صادر بيروت).
وقد نقل الزبيدي كلام الخفاجي هذا في تاج العروس ٩/ ٦٧.

(٣) مجمع الأمثال للميداني ١/ ١٩٦ وفسره بقوله: أي اكتفِ بالقليل من الكثير.
وقال الزمخشري في المستقصىٰ ٢/ ٦٢: «قيل لعقيل بن عُلفة: لم لا تطيل الهجاء؟ فقال ذلك. يُضرب في وجوب الاكتفاء من الشيء بما تتم به الحاجة».

المراد هنا ضد البصيرة وهو الجهل **(عن جَلِيَّة الحق)** أي واضحِه ومكشوفِه **(مع اللجاج)** هو التمادي **(في)** الفساد في الفعل المزجور عنه الذي هو **(نصرة الباطل)** هو بالإثبات له عند التنفير عنه؛ لأنه نقيض الحق، والحق هو الثابت، ويقال ذلك بالاعتبار إلىٰ المقال والفِعال **(وتحسين الجهل)** أي تزيينه، والجهل[١]: التقدُّم في الأمور المنبهمة بغير عِلم؛ ذكره الحَرَالي[٢]. وهو علىٰ قسمين[٣]: بسيط ومركَّب؛ فالبسيط هو: عدمُ العِلم عمَّا من شأنه أن يُعلَم[٤]، والمركَّب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.

وقال الراغب[٥] والسمين[٦]: الجهل ثلاثة:

الأول: خُلوُّ النفْس من العِلم؛ هذا أصله، وقد جعله بعضهم[٧] معنًىٰ مقتضيًا للأفعال الخارجة عن النظام، كما جُعل العلم معنًىٰ مقتضيًا للأفعال الجارية علىٰ النظام.

الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

---

(١) التوقيف للمناوي ص ١٣٣.

(٢) في المطبوعة: الحراني. وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي المغربي: مفسر، أصله من حرالة من أعمال مرسية بالأندلس، وولد ونشأ في مراكش، ورحل إلىٰ بلاد المشرق، وتوفي بمدينة حماة سنة ٦٣٨.
الأعلام ٤/ ٢٥٧.

(٣) التوقيف للمناوي ص ١٣٣. التعريفات للجرجاني ص ٨٤.

(٤) عبارة الجرجاني: عما من شأنه أن يكون عالما.

(٥) المفردات ص ١٠٢.

(٦) عمدة الحفاظ ١/ ٣٥٤ نقلا عن مفردات الراغب.

(٧) في المفردات والعمدة: بعض المتكلمين.

الثالث: فعلُ الشيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل. هَبْهُ[(١)] اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أمْ فاسدًا كتارك الصلاة عمدًا.

والجهل يُذكر تارةً للذم وهو الأكثر، وتارة لا له، نحو: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي مَن لا يعرف حالهم.

ونقل المناوي[(٢)] عن العضُد: أن الجهل البسيط أصحابه كالأنعام؛ لفقدِهم ما به يمتاز الإنسان عنها، بل هم أضلُّ؛ لتوجهها نحو كمالاتها، ويعالَج بملازمة العلماء؛ ليظهر له نقصه عند مماراتهم[(٣)]. والجهل المركَّب إن قَبِلَ العلاجَ فبملازمة الرياضات؛ ليَطعم لذةَ اليقين، ثم التنبيه علىٰ كل مقدمة مقدمة بالتدريج.

(**والتشغيب**) هو تهييج الشر والفتنة والخصام (**علىٰ مَن آثَرَ**) أي اختار (**النزوع**) بالعين المهملة، هو الانتهاء عن الأمر والكفُّ عنه، وما وُجد في بعض النُّسخ بالغين المعجمة خطأ؛ لفساد المعنىٰ (**قليلاً عن مَراسِم الخَلْق**) جمع الرَّسم، علىٰ خلاف القياس (**ومال ميلاً يسيرًا**) أي قليلاً (**عن ملازمة الرسم**) الظاهري (**إلىٰ العمل**) الذي يوصله إلىٰ علوم الآخرة (**بمقتضىٰ العلم**) الذي أوتيه وانكشف له عنه الغطاء (**طمعًا في نيل**) إدراك (**ما تعبَّده اللهُ تعالىٰ به**) أي ألزمه له عبادةً (**من تزكية النفس**) أي تنميتها وتطهيرها من رعوناتها (**وإصلاح القلب**) بتخليته عما سوىٰ الحق (**وتداركًا**) أي تلافيًا (**لبعض ما فَرَط**) أي سبق (**من إضاعة العمر**) فيما لا يجدي نفعًا (**يأسًا**) وهو قطعُ الرجاء (**من تمام التّلافي**) أي التدارُك (**والجَبْر**) وفي بعض النسخ: في الحيرة، وفي بعضها: والحِيَر، بلفظ الجمع (**وانحيازًا**) أي انضمامًا

---

(١) في المفردات والعمدة: سواء.

(٢) التوقيف ص ١٣٣.

(٣) في التوقيف: محاورتهم.

(**عن غِمار**) بكسر الغين المعجمة، جمع غَمرة بالفتح، وهو مُزدحَم الناس (**مَن قال فيهم**) أي في حقّهم (**صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه**) فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان[١] والطبراني في الصغير[٢] وابن عدي في الكامل[٣] بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه: (**أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالِمٌ لم ينفعه الله بعِلمه**) أي[٤] بأن لم يعمل به؛ لأن عصيانه عن عِلم، فهو أعظم جُرمًا وأقبح إثمًا ممن عصاه من غير علم، ولهذا كان المنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار؛ لكونهم جحدوا بعد العلم بالحق؛ قاله المناوي.

وقيل: معناه: لم يوفَّق للعمل به، ومن جملة عملِه: نفعُه غيرَه إن احتاج إلىٰ علمه.

ثم إن لفظ الحديث عند المذكورينَ فيما رأيتُه: «لم ينفعه علمُه». وقد ضعَّف هذا الحديث المنذري[٥] وغيرُه[٦].

وقال الخطيب في كتاب «اقتضاء العلم العمل»[٧]: قال سهل بن مزاحم:

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٣/ ٢٧٤ (ط - مكتبة الرشد بالرياض).

(٢) المعجم الصغير للطبراني ١/ ٣٠٥ (ط - المكتب الإسلامي).

(٣) الكامل في الضعفاء لابن عدي ٣/ ٩١١، ٥/ ١٨٠٧ (ط - دار الفكر ببيروت).

(٤) فيض القدير للمناوي ١/ ٥١٨.

(٥) الترغيب والترهيب للمنذري ١/ ١١٧ (ط - مكتبة المعارف بالرياض).

(٦) قال المناوي: «قال ابن حجر: غريب الإسناد والمتن. وجزم الزين العراقي بأن سنده ضعيف، وسببه أن فيه عثمان بن مقسم، قال الذهبي في الضعفاء: كذبه غير واحد، وأورد الحديث في الميزان في ترجمة عثمان وقال عن الجوزجاني: كذاب، وعن غيره: متروك، وعن ابن عدي: عامة حديثه لا يتابع عليه إسنادًا ومتنًا، لكن للحديث أصل أصيل، فقد روىٰ الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس مرفوعًا: إن أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي، والمصورون، وعالم لا ينتفع بعلمه».

(٧) اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ١٥ (ط - المكتب الإسلامي).

الأمر أضيقُ علىٰ العالِم من عقد التسعين[١]، مع أن الجاهل لا يُعذَر بجَهالته، لكن العالِم أشد عذابًا إذا ترك ما علم فلم يعمل به.

وأخرج أبو نعيم في الحلية[٢] من طريق أبي كبشة السلولي قال: سمعت أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إن من شرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالمًا لا ينتفع بعلمه.

وفيه أيضًا[٣] من طريق إبراهيم بن الأشعث، حدثنا سفيان قال: كان يقال: أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة: رجل كان له عمل[٤] فجاء غيره يوم القيامة أفضل عملاً منه، ورجل كان له مال فلم يتصدَّق منه [فمات][٥] فورثه غيره فتصدق منه، ورجل عالِم لم ينتفع بعلمه فعلمه غيره فانتفع به.

وسيأتي للمصنف[٦] عن أبي الدرداء: ويل للجاهل مرة، وويل للعالِم سبع مرات.

ثم إن من قوله «فلقد حل عن لساني» إلىٰ قوله «جلية الحق» سجعتان متوازيتان، ومن بعده استرسال في الكلام من غير تقييد علىٰ رَوِيٍّ.

(**ولعَمْري**) أقسم بعيشه وبقائه وحياته ودوامه. والعُمْر بالضم لغة فيه، ولكن خُصَّ القَسَم بالمفتوحة (**إنه لا سبب لإصرارك**) أي تماديك ولزومك (**علىٰ النَّكِير**) مصدرٌ بمعنىٰ الإنكار (**إلا الداء الذي عمَّ الجمَّ الغفير**) يقال[٧]: جاءوا جَمًّا غفيرًا،

---

(١) في المطبوعة: من التسعير. والتصويب من الاقتضاء. والمراد عقد الأصابع للإشارة للعدد (٩٠).

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢٢٣.

(٣) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٨. وسفيان هو ابن عيينة.

(٤) في الحلية: عبد. وليس فيه «غيره».

(٥) زيادة من الحلية.

(٦) في كتاب العلم.

(٧) تاج العروس ١٣/ ٢٥١. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

وجمَّ الغفيرِ بالإضافة، وجَمَّاء الغفير، والجماء الغفير، وجماء غفيرًا، ممدود في الكل [وجماء الغفيرَىٰ، بالقصر] وجمَّ الغفيرة، وجماء الغفيرَة؛ الثلاثة ذكرها الصاغاني. والجماءَ الغفيرةَ، وجماءَ غفيرةً [والجم الغفير، ويقال أيضًا: جاءوا] بجماء الغفير والغفيرة: إذا جاءوا جميعًا شريفهم ووضيعهم [ولم يتخلف أحد وهم كثيرون] ولم يحكِ سيبويه[١] إلا «الجماء الغفير»، قال: وهو من الأحوال التي دخلها الألف واللام، وهو نادر. وقال: «الغفير» وصف لازم للجماء، بمعنىٰ أنك لا تقول «الجماء» وتسكت. فهو عنده اسم موضوع موضع المصدر[٢]، وجعله غيرُه مصدرًا، وأجاز ابن الأنباري فيه الرفع علىٰ تقديرهم. وقال الكسائي: العرب تنصب «الجماء الغفير» في التمام، وترفعه في النقصان (**بل شمل الجماهيرَ**) جمع جُمهور بالضم، علىٰ ما هو المعروف، وما حكىٰ ابن التلمساني في شرح «الشفاء» وتبعه شيخ مشايخنا سيدي محمد الزرقاني من أن الفتح لغة فيه - فقد ردَّه الشهاب واستغربه[٣]. ومعناه: جُلُّ الناس (**من القصور**) أي التأخُّر (**عن ملاحظة ذِروة هذا الأمر**) بكسر الذال المعجمة، أي رأسه ومِلاكه (**و**) من (**الجهل بأن الأمر إدٌّ**) بالكسر، أي عظيم، أو فظيع، أو منكَر (**والخَطْب**) هو العظيم من الأمور (**جِدٌّ**) ضد الهَزْل، أي: فينبغي أن يُجتهَد له. وأخرج ابن أبي الدنيا[٤] من طريق إسماعيل بن أمية قال: كان الأسود بن يزيد يجتهد

---

(١) كتاب سيبويه ١/ ٣٧٥.

(٢) بعده في التاج: «أي يُنصَب كما تنصب المصادر التي هي في معناه، أي مررت بهم جموعا غفيرا، كقولك: جاءوني جميعا وقاطبة وطُرا وكافة، وأدخلوا فيه الألف واللام كما أدخلوهما في قولهم: أوردها العراك، أي أوردها عراكا».

(٣) نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض للشهاب الخفاجي ١/ ١٣٩ ونصه: «والجمهور بالضم: كثير من الخلق، جمعه: جماهير، وحكىٰ التلمساني فتح جيمه، وهو غريب».

(٤) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص ٦٣ (ط - مكتبة القرآن بالقاهرة).

في العبادة، ويصوم حتىٰ يخضر جسده ويصفرَّ، فكان علقمة يقول له: كم[١] تعذِّب هذا الجسد. فكان الأسود يقول: إن الأمر جِدٌّ فجدوا[٢].

(**والآخرة مُقبلة**) لا مَحِيدَ عنها (**والدنيا مدبرة**) لا محالة (**والأجَلُ**) المضروب (**قريب**) جدًّا (**والسفر**) إلىٰ الآخرة (**بعيد**) لكثرة عَقَباتها (**والزاد**) المحمول لأجله (**طفيف**) أي يسير، من الطفافة: اسمٌ لِما لا يُعتدُّ به. وفي نسخة: ضعيف، بالضاد المعجمة، أي قليل (**والخطر عظيم، والطريق سدٌّ**) أي مسدود (**وما سوىٰ الخالص لوجه الله**) سبحانه (**من العلم والعمل عند الناقد البصير ردٌّ**) أي مردود، أي: لا يُقبَل من العلوم والأعمال عند الله تعالىٰ إلا ما شابَها الإخلاصُ وحُسنُ اليقين (**وسلوك طريق الآخرة**) باستعمال علومها (**مع كثرة الغوائل**) أي المَهالك، جمع غائلة (**من غير دليل**) هو العلم النافع (**ولا رفيق**) هو العمل الصالح (**مُتعِب ومُكِدٌّ**) عطفُ تفسيرٍ لـ «متعب» (**فأدلَّة الطريق**) جمع دليل، أي أدلة طُرق الحق (**هم العلماء**) بالله خاصةً (**الذين هم**) فيما رواه ابن النجار في تاريخه عن أنس رضي الله عنه رفعه: (**ورثة الأنبياء**) وسيأتي الكلام عليه[٣] (**وقد شَغَر**) كنَصَرَ، أي خلا، من شغرت الأرضُ شُغورًا: إذا خلت من الناس ولم يبقَ بها أحدٌ يحميها ويضبطها، فهي شاغرة[٤] (**منهم الزمانُ**) بموتهم (**ولم يبقَ إلا المترسِّمون**) المتشبِّهون برسومهم (**وقد استحوذ**) أي ساق مستوليًا (**علىٰ أكثرِهم الشيطانُ**) من[٥] حاذَ

---

(١) في المطبوعة: لم. والمثبت من محاسبة النفس.

(٢) بعده في محاسبة النفس: «وقال غيره: قال الأسود: كرامة هذا الجسد أريد».

(٣) في كتاب العلم.

(٤) تاج العروس ١٢/ ٢٠٣.

(٥) تاج العروس ٩/ ٤٠٢.

الإبلَ يَحُوذُها[١]: إذا ساقَها سَوْقًا عنيفًا[٢]. قال النحويون: «استحوذ» خرج على أصله، فمَن قال: حاذَ يحوذ، لم يقل إلا: استحاذ، ومن قال: أحوذَ، فأخرجَه على الأصل فقال: استحوذ[٣] **(واستغواهم)** أي أضَلَّهم **(الطغيانُ)** وهو مجاوزة الحد في كل شيء، وغلب في تزايُد العصيان؛ قاله السمين[٤] **(وأصبح كل واحد)** منهم **(بعاجل حظِّه)** الدنيوي **(مشغوفًا)** أي أصاب حبُّه شَغافَ قلبه، وهو وسطه؛ قاله أبو علي الفارسي[٥]. أو باطنه؛ قاله الحسن[٦] **(فصار يرى المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا)** هذا غاية النَّكير والاستقباح لِما هم عليه، فإن كانت الرؤية اعتقادية فالأمر أعظم **(حتى ظل)** أي صار **(عَلَم الدين)** هو بالتحريك: ما وُضع علامةً للاهتداء به **(مندرسًا)** قد عَفَتْ آثارُه **(ومَنارُ الهدى)** هو كالعَلَم يُهتدَى به، قال امرؤ القيس[٧]:

على لاحب لا يُهتدَى بمناره ... إذا سافه العود النُّباطي جَرْجرا

(في أقطار الأرض) أطرافها **(منطمسًا)** قد خَفِتت أنواره **(ولقد خيَّلوا)** أي أوهموا وأدخلوا في مخيلاتهم **(إلى الخَلْق أنْ لا عِلم)** من حيث هو هو **(إلا فتوى**

---

(١) في المطبوعة: حذا الإبل يحذوها. والتصويب من التاج.

(٢) بعده في التاج: «أو من قولهم: استحوذ العيرُ الأتن: إذا استولى على حاذَيْها، أي جانبي ظهرها».

(٣) بعده في التاج: «وهو من الأفعال الواردة على الأصل شذوذا مع فصاحتها وورود القرآن بها».

(٤) عمدة الحفاظ ٢/ ٤٠٦.

(٥) مفردات الراغب ص ٢٦٣.

(٦) تفسير الطبري ١٣/ ١١٧. بحر العلوم للسمرقندي ٢/ ١٥٩ (ط - دار الكتب العلمية). الكشف والبيان للثعلبي ٥/ ٢١٦ (دار إحياء التراث العربي ببيروت). النكت والعيون للماوردي ٣/ ٣٠ (ط - دار الكتب العلمية). تفسير القرطبي ١١/ ٣٢٦. الدر المنثور للسيوطي ٨/ ٢٣٥. والحسن هو ابن يسار البصري.

(٧) البيت في ديوانه ص ٦٤ (ط - دار الكتب العلمية) من قصيدة أنشأها أثناء توجهه إلى قيصر ملك الروم مستنجدا به على رده ملكه إليه والانتقام من بني أسد.

واللاحب: الطريق الواضح. وسافه: شمه. والعود النباطي: الجمل المسن الضخم. وجرجر: رغا.

حكومة) هو ما يُكتب في أجوبة المسائل في الواقعات والنوازل من الحلال والحرام والإباحة والمنع، والجمع: الفتاوي، بكسر الواو وفتحها **(تستعين به القضاة)** والحكام **(علىٰ فصل الخصام)** أي المخاصمة **(عند تهارُش)** هو الإفساد بين الناس وتحريش بعضهم علىٰ بعض **(الطَّغام)** بالفتح، والغين معجمة، هم الأغبياء والرُّذَّال **(أو جَدَل)** هو[1] القياس المؤلَّف من المشهورات أو المسلَّمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام مَن هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان **(يتدرَّع)** أي يتلبَّس **(به طالبُ المباهاة)** أي المفاخَرة **(إلىٰ الغَلَبة)** في إلزام الخصم **(والإفحام)** أي الإسكات **(أو سجع)** أي كلام مقفًّىٰ **(مزخرَف)** أي مزيَّن **(يتوصَّل به الواعظُ إلىٰ استدراج)** أي خديعة **(العوام)** رُوي عن أبي الهيثم قال[2]: امتنع فلان عن كذا وكذا حتىٰ أتاه فلان فاستدرجه، أي خدعه حتىٰ حمله علىٰ أن دَرَجَ في ذلك **(إذ لم يروا ما سوىٰ هذه الثلاثة)** من الخصال **(مَصِيدة للحرام)** هي كمعيشة: ما يُصاد به، وهو من بنات الياء المعتلَّة، والجمع: المصايد، بلا همزٍ كـ «معايش» **(وشَبَكة)** محرَّكة: شَرَكة الصياد التي يصيد بها في البر، ومنهم مَن خصَّه بمصيدة الماء[3] **(للحُطام)** هو المال الرذل والخبيث والحرام، ودقاق التِّبْر **(فأما عِلم طريق الآخرة)** الذي هو النافع للعبد **(وما دَرَجَ)** سلك **(عليه السلف الصالح)** وهم[4] مَن سلفك[5] من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل [واحدهم: سالف][6]

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٧٨.

(٢) تاج العروس ٥/ ٥٥٩.

(٣) تاج العروس ٢٧/ ٢١٩.

(٤) تاج العروس ٢٣/ ٤٥٥.

(٥) في التاج: تقدمك.

(٦) زيادة من التاج.

ومنه قول طُفَيل الغَنَوي يرثي قومه[١]:

مضوا سلفًا قصدُ السبيلِ عليهمُ وصرفُ المنايا بالرجال تَقَلَّبُ

أراد أنهم تقدَّمونا. والمراد هنا الصدر الأول من التابعين وأتباعهم، والجمع: الأسلاف (مما سماه الله سبحانه) وتعالىٰ (في كتابه) العزيز (فقهًا) في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥] (وحكمةً) في قوله: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] (وعلمًا) في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] (وضياء) في قوله: ﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨] (ونورًا) في قوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥] وقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢] (وهداية) في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ [البقرة: ١٢٠، الأنعام: ٧١] (ورشدًا) في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

أما الفقه فهو أخص من مطلق العِلم.

والحكمة[٢]: معرفة الموجودات وفِعلُ الخيرات، وهذا هو الذي وُصف به لقمان. ثم الحكمة الإلهية[٣] هي العلم بحقائق الأشياء علىٰ ما هي عليه والعمل بمقتضاه[٤]، والحكمة المنطوق بها هي علوم الشريعة والطريقة، والمسكوت عنها

(١) البيت في ديوانه ص ٥٦ (ط - دار صادر بيروت).

(٢) مفردات الراغب ص ١٢٧.

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٩٧.

(٤) أورد الجرجاني قبله تعريفًا آخر وهو: علم يُبحث فيه عن أحوال الموجودات الخارجية المجردة عن المادة التي لا بقدرتنا واختيارنا.

هي أسرار الحقيقة التي إذا اطلع عليها علماء الرسوم والعوام تضرهم أو تهلكهم[١].

والعلم: معرفة الشيء علىٰ ما هو عليه[٢].

والضياء أخصُّ من النور، والنور[٣] هو الضوء المنتشر [الذي يعين علىٰ الإبصار] وهو ضربان: دنيوي وأخروي، ثم الدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة [وهو ما انتشر من الأمور الإلهية] كنور العقل [ونور القرآن] ومحسوس بعين البصر [وهو ما انتشر من الأجسام النيِّرة] كنور الشمس والقمر [والنجوم] وتخصيص الشمس بالضوء والقمر بالنور من حيث إن الضوء نور قوي[٤].

والهداية[٥]: سلوك طريق توصل إلىٰ المطلوب. ويُراد بها تارةً الرُّشد، وتارة

---

(١) عبارة الجرجاني: «هي أسرار الحقيقة التي لا يطلع عليها علماء الرسوم والعوام علىٰ ما ينبغي فتضرهم أو تهلكهم، كما روي أن رسول الله ﷺ دخل منزل امرأة مع أصحابه، فرأوا نارًا مضرمة، وأولاد المرأة يلعبون حولها، فقالت: يا نبي الله، الله أرحم بعباده أم أنا بأولادي؟ فقال: بل الله أرحم، فإنه أرحم الراحمين. فقالت: أتراني أحب أن ألقي ولدي في النار؟ قال: لا. قالت: فكيف يلقي الله عباده فيها وهو أرحم بهم؟ فبكىٰ رسول الله ﷺ وقال: هكذا أوحي إليَّ».

(٢) التعريفات ص ١٦١. وأورد تعريفات أخرىٰ للعلم، وهي:
١ - الاعتقاد الجازم المطابق للواقع.
٢ - حصول صورة الشيء في العقل.
والأول أخص من الثاني.
٣ - زوال الخفاء من المعلوم، والجهل نقيضه.
٤ - صفة راسخة تُدرَك بها الكليات والجزئيات.
٥ - وصول النفس إلىٰ معنىٰ الشيء.
٦ - إضافة مخصوصة بين العاقل والمعقول.
٧ - صفة ذات صفة.

(٣) المفردات للراغب ص ٥٠٨. والزيادات التي بين حاصرتين منه.

(٤) في المفردات: من حيث إن الضوء أخص من النور.

(٥) التعريفات ص ٢٧٧. وقبله تعريف آخر وهو: الدلالة علىٰ ما يوصل إلىٰ المطلوب.

البيان، وتارة الدعاء، وتارة الدلالة[١].

والرشد[٢] يُستعمل استعمالَ الهداية. وقد يُراد به الاستقامة.

وستأتي زيادة إيضاح لكل ما ذكرناه في الباب الرابع.

(**فقد أصبح من بين الخَلْق مطويًّا**) ذكره لعدم ميلهم إلىٰ تحصيله (**وصار نَسْيًا منسيًّا**) أي شيئًا تافهًا لا يُؤْبَهُ له مما حقُّه أن يُنسَىٰ ويُترَك لقلة مبالاتهم به. والنَّسْيُ فَعْلٌ بمعنىٰ مفعول، والمَنْسِيُّ مبالغةٌ فيه، لم يَكْفِه أن وصف تلك الأحوال بكونها تافهة حتىٰ بالَغَ بوصفها؛ لأن النَّسْي يقال لِما لا اعتداد به وإن لم يُنْسَ[٣] (**ولمَّا كان هذا**) الذي ذكرتُ (**ثَلْما**) أي خللاً (**في الدين مُلِمًّا**) أي مقاربًا داخلاً (**وخَطْبًا**) أي أمرًا عظيمًا (**مُدْلَهِمًّا**) أي مظلمًا كثيفًا، شبَّهَ الخَطْب بالليل في إبهامه، ثم أثبت له ما يناسبه من الإظلام وكثافة السواد (**رأيتُ الاشتغال بتحرير**) وفي بعض النسخ: بتجريد (**هذا الكتاب**) يعني الإحياء (**حتمًا**) واجبًا (**مهمًّا**) يُهتَمُّ له ويُعتنَىٰ بشأنه (**إحياءً لعلوم الدين، وكشفًا عن مناهج**) أي سُبُل (**الأئمة المتقدِّمين**) وفي بعض النسخ: المتقين (**وإيضاحًا لمَناهي العلوم النافعة عند النبيين والسلف الصالحين**) وهم أتباع الأنبياء عليهم السلام (**وقد أسَّستُه**) أي الكتاب (**علىٰ أربعة أرباع**) جمع رُبع، بضمتين، أو بضم فسكون. شبَّهَ الكتاب بقَصْر من جهة أن الملتجئ إليه يأمَنُ غوائلَ عدوِّ الدين وعذاب النار، فأضاف المشبَّه به إلىٰ المشبَّه، كما في «لُجَين الماء». والكتاب - علىٰ كثرة ما فيه من الأحكام الشرعية - يرجع إلىٰ أربعة هي أركان ذلك القصر، فذكرها في أثناء الكلام علىٰ الترتيب فقال: (**وهي ربع العبادات**) وقدَّمه علىٰ الذي يليه لشرفها (**وربع العادات**) لأنه إذا تحقَّق بالعبادات

---

(١) انظر تفصيل ذلك في مفردات الراغب ص ٥٣٨ - ٥٤١.

(٢) المفردات ص ١٩٦.

(٣) المفردات ص ٤٩٢.

وأسرارها لم يستغنِ عما تعوَّده مما هو لازم له من حيث قوام المَعاش، فناسب ذِكرُ هذا الربع بعد ربع العبادات. والعادة[١]: ما استمر الناس عليه[٢] وعادوا إليه مرةً بعد أخرىٰ (و) إذا اشتغل بها ربما استولىٰ علىٰ هواه الإغفالُ عن رُعونات النفس وآفاتها فناسب ذِكرُ (**ربع المهلِكات**) لِما فيه من ذِكرِ الآفات التي تهلك صاحِبَها وتلقيه في هوَّة النار (و) إذا تحقق ذلك وتجنب عن تلك المسميات التي في رسمها ناسب ذِكر (**ربع المنجيات**) لِما فيه من ذِكر أوصاف المخلصين التي مَن تحلَّىٰ بها أنجىٰ نفسَه من العتاب والعقاب، فتقديم ربع المهلكات علىٰ المنجيات من باب تقديم التخلِّي علىٰ التحلِّي؛ فإن مَن لم يتخلَّ عن رعوناته كيف يتحلىٰ بحِلية أهل الصدق والصفاء؟

ثم إن تأسيس المصنف كتابه علىٰ هذه الأرباع من باب الحصر الاستقرائي؛ إذ الحَصْر هو: إيراد الشيء علىٰ عدد معيَّن[٣]، والاستقراء هو: الحكم علىٰ كليٍّ؛ لوجوده في أكثر جزئياته[٤]. ولعدده الأربعة سر غريب سار في غالب الممكنات (**وصدَّرت الجملة بكتاب العلم**) في فضله وفضل تعليمه وتعلُّمه (**لأنه**) في الحقيقة (**غاية المهمِّ**) أي غاية ما يقصده الإنسان ويهتم له وينتهي إليه (**لأكشف**) بذِكري ذلك (**أولاً عن العلم الذي تعبَّد اللهُ**) عَزَّوَجَلَّ (**علىٰ لسان رسوله** ﷺ **الأعيانَ**): الأشخاص من أمته (**بطلبه؛ إذ قال رسول الله** ﷺ) فيما رُوي من طُرق عن أنس بن

(١) التعريفات ص ١٥١.

(٢) في التعريفات: علىٰ حكم المعقول. وفي التوقيف للمناوي ص ٢٣٣: عليه علىٰ حكم المعقول.

(٣) التعريفات ص ٩٢.

(٤) التعريفات ص ١٨ وزاد: «وإنما قيل: في أكثر جزئياته لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراءً، بل قياسًا مقسمًا، ويسمىٰ هذا استقراءً؛ لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الجزئيات، كقولنا: كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ؛ لأن الإنسان والبهائم والسباع كذلك، وهو استقراء ناقص لا يفيد اليقين؛ لجواز وجود جزئي لم يُستقرأ ويكون حكمه مخالفًا لم استُقرئ، كالتمساح فإنه يحرك فكه الأعلىٰ عند المضغ».

مالك رضي الله عنه: (**طلبُ العلم فريضة علىٰ كل مسلم**) وسيأتي ما يتعلق به قريبًا (**وأميِّز فيه العلم النافع**) الذي ينفع صاحبه في الآخرة يصحبه معه (**من الضار**) الذي يضر بصاحبه فيكون سببًا لهلاكه (**إذ قال ﷺ**) فيما رواه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حَسن: (**نعوذ بالله من علم لا ينفع**) وفي بعض النسخ: تعوَّذوا، كما عند ابن ماجه من طريق جابر أيضًا، وقد ذكره المصنف أيضًا في الباب الثالث، ونذكر هناك ما يتعلق به (**وأحقِّق ميل أهل العصر**) من المشتغلين برسوم العلم (**عن شاكلة الصواب**) أي ناحيته ووجهته وطريقته (**وانخداعهم بلامع السَّراب**) هو[1] ما لمع في المفازة كالماء، سُمِّي به لانسرابه في رأي العين، ويراد به ما لا حقيقة له[2]. وفي نسخة: ببلاقع السراب (**واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللُّباب**) شبَّهَ العلومَ التي يشتغلون بها بالقشر الذي لا ينتفع به الآكل وإنما جُعل غطاءً وحفظًا لِما في باطنه، وعلوم الآخرة باللُّباب؛ لأنها خلاصة المعارف ونقاوة الأسرار.

(**ويشتمل ربع العبادات علىٰ عشرة كتب**):

الأول: (كتاب العلم) قدَّمه في البيان لشرفه.

الثاني: (كتاب قواعد العقائد) لأن المعلوم إما أن لا يفتقر إلىٰ عمل ظاهر أو يفتقر، فالأول الاعتقاديات، فلذا ذكر قواعدها بعد العلم، والذي يفتقر يأتي ذِكرُه بعد ذلك.

الثالث: (كتاب أسرار الطهارة) لأنه بها يدخل في حضرة الملك، وهي من مقدمات الصلاة.

الرابع: (كتاب أسرار الصلاة) لأنها معراج أهل الله، والديوان العظيم الذي

---

(١) المفردات ص ٢٢٩.

(٢) عبارة الراغب: وكان السراب فيما لا حقيقة له كالسراب فيما له حقيقة.

يحصل للسالك فيه الشهود، ولأنها من آكد العبادات وأعظمها وألزمها، حتىٰ إنها لا تسقط بحال عن المكلَّف ولا بالعجز عن الإيماء ولو بجفون العين، علىٰ رأيٍ.

الخامس: (كتاب أسرار الزكاة) لأنها أخت الصلاة وقرينتها في كتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ.

السادس: (كتاب أسرار الصيام) لِما فيه من المشقة الزائدة علىٰ النفس، والزكاة ماليَّة، والمال شقيق النفْس والروح، فناسب ذِكرُه بعدها.

السابع: (كتاب أسرار الحج) لأن العبادة علىٰ قسمين: سرية وجَهْرية، والصوم عبادة سرية لا يطلع علىٰ كُنْهها من العبد إلا مولاه، والحج عبادة جهرية يُطلَع علىٰ حقيقتها ولا محالة، فقدَّم السر علىٰ الجهر. علىٰ أنه لو قدَّم الحج علىٰ الصوم لكان له أيضًا وجه؛ لِما أن الحج جُعل سببًا للصوم، كحج المتمتِّع والقارن بشرط عدم القدرة علىٰ الهَدْي، والسبب مقدَّم علىٰ المسبَّب وقوعًا، إلا أنه راعَىٰ موافقةَ الفقهاء في وضعِهم كذلك في كتب الفروع الفقهية. ثم وجدتُ مناسبة أخرىٰ لتقديم الصوم علىٰ الحج هي أنه لمَّا كان الحج مشتملاً علىٰ صفات جليلة عظيمة من الخروج عن الديار، ومفارقة الأهل، والتجرُّد عن ثياب الأحياء، وكشف الرأس، والدوران حول البيت كأنه خائف ولهان، وكذا السعي بين المروتين مشابه لحال الهارب المستغيث ... إلىٰ غير ذلك من الأمور الكثيرة المختلفة الحقائق التي لا يهتدي لمعرفتها إلا الفحول من العلماء، بخلاف الصوم فإنه أمر واحد لا يخفىٰ علىٰ العاقل، والأمر الواحد مقدَّم علىٰ الأمور الكثيرة. وأيضًا، فإن رمضان قبل ذي الحجة الواقع فيه الحج، فينبغي أن يقدَّم الصوم وضعًا كما في كتب القوم. وأيضًا، فإن الصوم أعظم اهتمامًا من الحج بواسطة أن الصوم يتكرر علىٰ المكلف بتكرُّر الزمان، فلا يسقط عنه بالكلية كما في الصلاة، والمتكرِّر يُهتَم به للتعليم والتعلُّم.

الثامن: (**كتاب آداب تلاوة القرآن**) لشرفه وتضمُّنِه تلك العبادات المذكورة، فتفهَّمْه حقَّ التفهيم.

التاسع: (**كتاب الأذكار والدعوات**) لكونها مأخوذة من القرآن غالبًا.

العاشر: (**كتاب ترتيب الأوراد في الأوقات**) لأنها من آخر وظائف المتعبدين.

(**وأما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب أيضًا**) رتَّب هذا الربع أيضًا كذلك بترتيب لائق، فقدَّم (**كتاب آداب الأكل**) لكونه مهمًّا؛ إذ به غذاء الأجسام وبقاؤها، ثم (**كتاب آداب النكاح**) لما تنبعث الشهواتُ عقب الأكل، ثم (**كتاب أحكام الكسب**) لاحتياجه إليه حينئذٍ لا محالة، ثم (**كتاب الحلال والحرام**) إذ تلزم معرفتُهما للمكتسِب، ثم (**كتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخَلْق**) لافتقار الكسب إلىٰ مخالطتهم، ثم (**كتاب العُزلة**) لأنها ضد الصحبة، فناسب ذِكرُها بعدها، ثم (**كتاب آداب السفر**) لِما فيه من البعد الظاهري عن الأوطان وفراق الأهل والخلاَّن، ثم (**كتاب السماع والوجد**) لما فيه من التنشيط للأرواح، والإعانة علىٰ التجريد للمسافرين إلىٰ حضرة الله تعالىٰ، ثم (**كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) لِما فيه من إبقاء سلسلة الانتظام، ومنع التعدِّي في الحقوق، ثم (**كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوَّة**) لأنها غاية كل كمال، ونهاية الوصول لأهل الظاهر في الحال والمآل، وهو آخر درجات السالكين.

(**وأما ربع المهلِكات فيشتمل علىٰ عشرة كتب أيضًا**) رتَّبه كذلك علىٰ أبدع أسلوب، فقدَّم (**كتاب شرح عجائب القلب**) لأن بصلاحه صلاح كل الجسد، وعجائبه - في الحقيقة - لا انقضاء لها، ثم (**كتاب رياضة النفس**) لتعلُّقها بالقلب [تعلقًا] شديدًا، ولأن في رياضتها تمام التصفية من الكُدورات، ثم (**كتاب آفات الشهوتين**) لانتشائهما عن النفس، وهما: (**شهوة البطن وشهوة الفرْج**) ثم (**كتاب

آفات اللسان) لأنه ممر شهوة البطن خاصةً، ثم **(كتاب آفات الغضب والحقد والحسد)** لأنها تنشأ غالبًا عن حدَّة اللسان فيبوح بها، ثم **(كتاب ذم الدنيا)** لأنها السبب الأعظم لصدور تلك الآفات، ثم **(كتاب ذم المال والبخل)** لأن المال أعظم متاع الدنيا، والبخل من لوازمه، ثم **(كتاب ذم الجاه والرياء)** لأن الجاه منشؤه المال، والرياء يقع لتحصيله، ثم **(كتاب ذم الكِبْر والعُجْب)** لأنها من لوازم الجاه والمال وما أشبه ذلك، ثم **(كتاب ذم الغرور)** لكونه ينشأ من الكبر والعُجب غالبًا، وهو آخر درجات المتقين.

(وأما ربع المنجيات فيشتمل علىٰ عشرة كتب أيضًا) رتَّبه كذلك علىٰ ترتيب عجيب ووضع غريب، فقدَّم **(كتاب التوبة)** لأنها أشرف أعمال العبد، وأقرب إلىٰ الوصول، وأول فتحٍ للباب، ثم **(كتاب الصبر والشكر)** إذ هما نتيجتها، وهما من علاماتها الدالة علىٰ صحتها، ثم **(كتاب الخوف والرجاء)** لأنهما ينشآن عن الصبر والشكر، ثم **(كتاب الفقر والزهد)** لأنهما رأس مال الخائفين، ثم **(كتاب التوحيد والتوكُّل)** لأن من شأن الفقيرِ الزاهدِ التجرُّد عما سوىٰ الله، فناسبه التوحيدُ والتوكل علىٰ الله، ثم **(كتاب المحبة والشوق والأُنس والرضا)** لأن الموحِّد المتوكل لا يصل إلىٰ مطلوبه إلا إذا كان الحب دليله، والشوق سائقه، والرضا إمامه، ثم **(كتاب النية والصدق والإخلاص)** لتوقُّف كل ما ذُكر علىٰ النية، مع الصدق في ذلك وإخلاصه وإمحاضه، ثم **(كتاب المراقبة والمحاسبة)** إذ هما من نتائج الإخلاص والصدق، ثم **(كتاب التفكُّر)** لكونه ثمرة المراقبة والمحاسبة، ثم **(كتاب ذكر الموت)** وهو آخر درجات المخلصين.

(فأما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها) التي لم يطَّلع عليها غالب العلماء **(ودقائق سُنَنها)** التي خفيت علىٰ أكثرهم **(وأسرار معانيها)** التي استنبطها

العارفون (**ما يضطر**) أي يحتاج ضرورةً (**العالم العامل إليه، بل لا يكون من علماء الآخرة مَن لا يطَّلع عليه**) لكونه من اللوازم الضرورية في حقه (**وأكثرُ ذلك**) مما ذكرتُه (**مما أُهمل في فن الفقهيات**) ولم يُتعرَّض له أصلاً.

(**وأما ربع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخَلْق وأغوارها**) معطوف على «أسرار»، جمع غَوْر، وهو ما خفي من الأمور (**ودقائق سُننها**) المستنبَطة (**وخفايا الورع**) بأقسامه الأربعة (**في مجاريها**) أي تلك المعاملات (**وهي مما لا يستغني متديِّن**) وفي نسخة: متدبِّر (**عنها**) إذ بها كمالُه.

(**وأما ربع المهلِكات فأذكر فيه كل خُلُق مذموم ورد القرآن بإماطته**) أي إزالته (**وتزكية النفس**) أي تطهيرها (**عنه، وتطهير القلب منه. وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حَدَّه**) أي وصفه المحيط بمعناه، سُمِّي الحد حدًّا لكونه مانعًا لفاعله عن معاودة مثله، ولغيره عن سلوك منهجه[1] (**وحقيقته**) هو اسم لِما أُريدَ به ما وُضع له[2] (**ثم أذكر سببه**) هو ما ظهر الحكم لأجله. هَبْهُ شرطًا أو دليلاً أو علةً[3] (**الذي منه يتولَّد**) وينشأ (**ثم**) أذكر (**الآفات التي عليها تترتَّب. ثم**) أذكر (**العلامات التي بها تُتعرَّف، ثم**) أذكر (**طُرق المعالجة التي بها**) أي باستعمالها (**منها**) أي من تلك الآفات (**يتخلص**) فذكر في كل خُلُق من تلك الأخلاق ستة أشياء: الحد، والحقيقة، والسبب الباعث لتولُّد الآفات، ثم ما يترتب عليه من الآفات، ثم العلامات، ثم طُرق المعالجة، وهكذا شأن الطبيب الماهر إذا أراد

---

(١) ذكره الراغب في المفردات ص ١٠٩ بمعناه. وانظر: التوقيف للمناوي ص ١٣٧. وعرَّفه الجرجاني في التعريفات ص ٨٧ بأنه: قول دال على ماهية الشيء.

(٢) التعريفات ص ٩٤.

(٣) التوقيف ص ١٩٠. وذكر قبله تعريفه عند الأصوليين بأنه: ما يضاف إليه الحكم؛ لتعلق الحكم به من حيث إنه معرف للحكم أو غير معرف له.

تخليص مريض من علة يعرِّفه أولاً حد العلة وحقيقتها، ثم يذكر له سببها الذي تولَّدتْ منه، ثم عوارضَها، ثم يستدرج إلىٰ ذِكر علاماتها، فإذا تأمل المريض ذلك كُشف له الحجاب، وطالبته النفسُ بما يزيلها فيردِّد عليه طريق المعالجة، فيتلقاها المريض بقلب سليم، وينجو من تلك العلة سريعًا (**كلُّ ذلك مقرونًا بشواهد الآيات**) جمع آية، تطلق[1] علىٰ جملة من القرآن [دالة علىٰ حكم] سورةً كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورة، ويقال لكل كلامٍ منه منفصلٍ بفصل لفظي: آية، وعليه اعتبارُ آيات السور التي تُعَدُّ بها السورة عند الجمهور (**والأخبار**) جمع خبر، وهو الحديث المنقول، فهو مرادف للحديث عند الجمهور (**والآثار**) جمعُ أثر، هو من اصطلاح الفقهاء؛ فإنهم يستعملونه في كلام السلف، والحديث في خبر الرسول ﷺ، وفي ذلك بحث طويل محلُّه كتب أصول الحديث[2].

(**وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خُلُق محمود**) ورد بمدحه القرآنُ (**و**) كلَّ (**خصلة**) حسنة (**مرغوب فيها**) مطلوب تحصيلها (**من**) جملة (**خصال المقرَّبين**) عند الله في حظائر القدس (**والصِّديقين**) تخصيصٌ بعد تعميم (**التي بها يتقرَّب**

---

(١) المفردات ص ٣٣. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

(٢) قال السيوطي: «أما الحديث فأصله ضد القديم، وقد استُعمل في قليل الخبر وكثيره؛ لأنه يحدث شيئًا فشيئًا. وقال ابن حجر في شرح البخاري: المراد بالحديث في عرف الشرع: ما يضاف إلىٰ النبي ﷺ، وكأنه أريدَ به مقابلة القرآن لأنه قديم. وقال الطيبي: الحديث أعم من أن يكون قول النبي ﷺ والصحابي والتابعي وفعلهم وتقريرهم. وقال شيخ الإسلام في شرح النخبة: الخبر عند علماء الفن مرادف للحديث، فيطلقان علىٰ المرفوع وعلىٰ الموقوف والمقطوع. وقيل: الحديث: ما جاء عن النبي ﷺ، والخبر ما جاء عن غيره، ومن ثم قيل لمن يشتغل بالسنة: محدث، وبالتواريخ ونحوها: أخباري. وقيل: بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل حديث خبر، ولا عكس. وقيل: لا يطلق الحديث علىٰ غير المرفوع إلا بشرط التقييد. والمحدثون يسمون المرفوع والموقوف بالأثر، وأن فقهاء خراسان يسمون الموقوف بالأثر، والمرفوع بالخبر. ويقال: أثرت الحديث، بمعنىٰ رويته، ويسمىٰ المحدث أثريًا نسبة للأثر»، تدريب الراوي ١/ ٢٩.

العبد) في سلوكه **(من رب العالمين. وأذكر في كل خصلة: حدَّها، وحقيقتها، وسببها الذي به تُجتلب، وثمرتها التي منها تُستفاد. وعلامتها التي بها تُعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يُرغب)** ذكر في هذا الربع في كل خصلة ستة أشياء: الحد، والحقيقة، والسبب، والثمرة، والعلامة، والفضيلة. وهي نظير الستة التي ذُكرت في ربع المهلِكات، فقابَلَ الثلاثة الأُوَل بالثلاثة. إلا أن هناك سببُ تولُّدٍ، وهنا سبب اجتلاب، ولا يخفىٰ ما بين التولُّد والاجتلاب من الفرق، وقابَلَ استفادةَ الثمرة بترك الآفة، والعلامة بالعلامة، والفضيلة بالمعالَجة؛ لأن تلك طُرق التخلِّي، وهذه أحوال التحلِّي، ولكل مقامٍ مقالٌ **(مع ما ورد فيها من شواهد الشرع)** الكتاب والسنَّة وأقوال الصحابة ومَن بعدهم **(والعقل)** الأدلة العقلية وما قالته الحكماء الأوَّلون **(ولقد صنَّف الناسُ)** ممن تقدَّم **(في)** تحقيق **(بعض هذه المعاني)** التي ذكرت **(كتبًا)** كقوت القلوب، والرعاية، ومنازل السائرين، والرسالة، والتعرُّف، وغيرها **(ولكن يتميَّز هذا الكتاب عنها)** عن تلك الكتب **(بخمسة أمور:**

الأول: حلِّ ما عقدوه) في كتبهم **(وكشف ما)** ستروه، وتفصيل ما **(أجملوه.**

الثاني: ترتيب ما بدَّدوه) أي فرَّقوه في مواضع شتَّىٰ **(ونظمُ ما فرَّقوه)** أي جمعُه. والجملة الثانية في كل تفسيرٍ للأُولىٰ.

(الثالث: إيجاز ما طوَّلوه، وضبط ما قرَّروه) والمراد بضبط المقرَّر: تفسيره وبيانه، بحيث ينكشف علىٰ مُطالِعِه، وأما الإيجاز فهو: أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارَفة[1].

---

(١) التعريفات ص ٤٢.

(**الرابع: حذفُ ما كرَّروه**) أي[١] أعادوه مرارًا، والتكرار يشبه العمومَ من حيث التعدُّد، ويفارقه بأن العموم يتعدد فيه الحكم بتعدُّد أفراد الشرط [لا غير][٢] والتكرار يتعدد فيه الحكم بتعدُّد الصفة المتعلقة بالأفراد (**وإثبات ما حرَّروه**.

الخامس: تحقيق أمور غامضة) خفية المدرك (**اعتاصت**) ضد انقادت (**علىٰ الأفهام**) أي عسر كشفُها عليها، ومن ثَم (**لم يُتعرَّض لها في الكتب أصلاً**) لصعوبتها، ولهذه الأمور الخمسة التي ذكرها فوائد لا تخفىٰ عند المنصفين؛ أما الأول، فلأن الكلام إذا كان معقودًا لا تظهر ثمرة نفعه. وأما الثاني، فلأن المفرَّق في مواضع يشتِّت أذهان المتأمِّلين. وأما الثالث، فمن التطويل كلَّت الهممُ. وأما الرابع، فلأن المكرَّر من حيث هو مكرَّر مما يملُّ منه ذهنُ السامع. وأما الخامس، فلأن الأمور الخفية الصعبة التي تشتبه علىٰ الأفهام وتلتبس علىٰ الأذهان فإن التعرُّض لها والاهتمام بكشفها أكثر فائدة وأجَلُّ عائدة (**إذ الكل**) من العلماء (**وإن تواردوا**) أي أتوا علىٰ سبيل الموارِدة واحدًا بعد واحد. وأصل الوُرود: ورود الإبل علىٰ الماء، ثم استُعير (**علىٰ منهج**) أي طريق (**واحد فلا مستنكَر**) أي لا إنكار ولا بِدْع (**أن يتفرد كلُّ واحد من السالكين**) ويتميَّز عن غيره (**بالتنبيه لأمر يخصُّه**) فيكشف عنه (**ويغفل عنه رفقاؤه**) والله يختص برحمته مَن يشاء (**أو لا يغفل عن التنبُّه له ولكن يسهو عن إيراده في الكتب**) وهو معذور، ففي الحديث: «رُفع عن أمَّتي الخطأ والنسيانُ وما استُكرهوا عليه» (**أو لا يسهو ولكن يصرفه**) يمنعه (**عن كشف الغطاء عنه صارفٌ**) أي مانع، كعجز العامَّة عن فهمه أو صدور ملام إليه أو شبهه، فقد ورد: «لا تطرحوا الدُّرَّ في أفواه الكلاب»[٣]. وقال أبو هريرة: وأما

---

(١) المصباح المنير للفيومي ص ٢٠٢.

(٢) زيادة من المصباح.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٧/ ٢٦٨٠، والخطيب البغدادي في تقييد العلم ص ١٩٠ (ط - دار الاستقامة بالقاهرة) من حديث أنس بن مالك. وهو حديث موضوع.

الآخَر لو بثثتُه لقطعتم بُلعومي هذا[1] **(فهذه)** الأمور التي ذكرت **(خواص هذا الكتاب)** أي أنه اشتمل علىٰ علوم خفية المجلىٰ يكشف الغطاء عنها مما أغفلها كثير من المصنِّفين أو لم يفسِّروها **(مع كونه حاويًا)** جامعًا **(لمَجامع هذه العلوم)** الظاهرية والباطنية **(وإنما حملني علىٰ تأسيس هذا الكتاب)** ووضعِه **(علىٰ أربعة أرباع أمران)** أكيدان:

(أحدهما، وهو الباعث الأصلي: أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضروري) الذي لا يحتاج إلىٰ إقامة برهان **(لأن العلم الذي يُتوجَّه به إلىٰ الآخرة ينقسم إلىٰ: علم المعاملة، وإلىٰ علم المكاشفة، وأعني بعلم المكاشفة: ما يُطلَب**

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ١/ ٥٩ بلفظ: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين من العلم. فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البلعوم.

قال الحافظ ابن حجر: «وعاءين، أي ظرفين، أطلق المحل وأراد به الحال. أي نوعين من العلم، ومراده أن محفوظه من الحديث لو كُتب لملأ وعاءين، ويحتمل أن يكون أبو هريرة أملىٰ حديثه علىٰ من يثق به فكتبه له وتركه عنده. والأول أولىٰ. ووقع في المسند عنه: حفظت ثلاثة أجربة، بثثت منها جرابين. وليس هذا مخالفا لهذا الحديث؛ لأنه يُحمل علىٰ أن أحد الوعاءين كان أكبر من الآخر بحيث يجيء ما في الكبير جرابين، وما في الصغير في واحد. ووقع في المحدث الفاصل للرامهرمزي من طريق منقطعة عن أبي هريرة: خمسة أجربة. وهو - إن ثبت - محمول علىٰ نحو ما تقدم، وعُرف من هذا أن ما نشره من الحديث أكثر مما لم ينشره. وقوله: قطع هذا البلعوم. كنىٰ بذلك عن القتل، وحمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه علىٰ الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم، وكان أبو هريرة يكني عن بعضه ولا يصرح به خوفا علىٰ نفسه منهم، كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان. يشير إلىٰ خلافة يزيد بن معاوية؛ لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله دعاء أبي هريرة فمات قبلها بسنة. وقال ابن المنير: أراد أبو هريرة بقوله (قطع) أي قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم وتضليله لسعيهم. وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد مع الصنف المذكور ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم في آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به».

فتح الباري ١/ ٢٦٢.

منه كشفُ المعلوم فقط) وهو المعبَّر عنه بعلم الباطن، وسيأتي تفصيله (وأعني بعلم المعاملة: ما يُطلَب منه مع الكشفِ العملُ به) أي من المأمورات والمنهيَّات (والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة التي لا رُخصة) أي لا جواز (في إيداعها) أي وضعِها في (الكتب) لفقدِ الرواية تصريحًا، وإنما تُروَىٰ أحيانًا تلويحًا (وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين، ومطمح نظر الصِّدِّيقين، وعلم المعاملة طريق إليه) أي ودليل عليه (ولكن لم يتكلم الأنبياء عليهم السلام مع الخَلْق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه، وأما علم المكاشفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء علىٰ سبيل التمثيل والإجمال) لأنه من الأمور الوجدانية؛ فإن العاقل تكفيه الإشارة، والغافل لا يفيده صريح العبارة (علمًا منهم بقصور أفهام الخَلْق عن الاحتمال) أي عن احتمال ما يُلقَىٰ إليهم؛ لصعوبتها (والعلماء وَرَثة الأنبياء) وهو حديث أبي الدرداء، وسيأتي الكلام عليه (فما لهم) أي للعلماء (سبيل إلىٰ العدول) والتجاوُز (عن نهج) أي طريق (التأسِّي) اتخاذه أسوةً (والاقتداء) عطفُ تفسيرٍ.

(ثم إن علم المعاملة ينقسم إلىٰ علم ظاهر، أعني العلم بأعمال الجوارح؛ وإلىٰ علم باطن، أعني العلم بأعمال القلوب. والجاري علىٰ الجوارح إما عادة وإما عبادة، والوارد علىٰ القلوب التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس) الظاهرية (من عالم المَلَكُوت) هو عالم الغيب المختص بأرواح النفوس (إما محمود وإما مذموم، فبالواجب انقسم هذا العلم إلىٰ شطرين: ظاهر وباطن، والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلىٰ عادة وعبادة، والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلىٰ مذموم ومحمود، فكان المجموع أربعة أقسام، ولا يشذ) أي لا يخرج (نظرٌ في علم المعاملة عن هذه الأقسام) فالحصر استقرائيٌّ.

(الباعث الثاني) في تأسيس هذا الكتاب على الترتيب المذكور: **(أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقةً في الفقه الذي صلح عند مَن لا يخاف الله سبحانه وتعالىٰ للتدرُّع به)** أي التلبُّس **(إلىٰ المباهاة)** أي المفاخرة **(والاستظهار)** أي الاستقرار **(بجاهه ومنزلته في المنافسات)** وهي مجاهدة النفس للتشبُّه بالأفاضل واللحوق بهم من غير إدخال ضرر علىٰ غيره[1] **(وهو مرتَّب علىٰ أربعة أرباع، والمتزيِّي بزِي المحبوب محبوبٌ)** أي المتشبِّه، والزِّيُّ بالكسر: البِزَّة الحَسنة، والآلات المجتمعة **(فلم أبعد)** في المرمىٰ **(أن يكون تصوير)** هذا **(الكتاب)** أي تنزيله بهذه الصورة الموجودة **(بصورة)** تنزيل كتب **(الفقه تلطُّفًا)** أي أخذًا باللطافة **(في استدراج القلوب)** أي خديعتها والدخول إليها درجةً درجة **(ولهذا تلطَّفَ بعضُ مَن رامَ)** أي طلب من الحكماء **(استمالةَ قلوب الرؤساء)** أي الأمراء **(إلىٰ علم الطب)** لمَّا رأىٰ عدم اشتغالهم به، ونزوع أنفسهم إلىٰ علم النجوم **(فوضعه علىٰ هيئة تقويم النجوم)** التي يألفونها **(موضوعًا في الجداول)** جمع جدول، وهي الخطوط المتعارضة بعضها علىٰ بعض **(والرُّقوم)** جمع رقم، والمراد به الحساب الهندي **(وسماه: تقويم الصحة)** وكأنه عنىٰ به كتاب المختار بن الحسن[2] ابن عبدون المتطبب؛ فإنه سماه كذلك[3]، وعلىٰ نهجه بنىٰ ابن جَزْلة[4] وابن البَيْطار كتابيهما **(ليكون أُنسهم بذلك الجنس)** وميلهم له **(جاذبًا)** مشوِّقًا **(لهم إلىٰ المطالعة)**

---

(١) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٤/ ٢٠٥.

(٢) في المطبوعة: المختار لأبي الحسن. وهو خطأ. وهو طبيب نصراني من أهل بغداد، ورحل إلىٰ مصر والقسطنطينية، ودخل أنطاكية فترهب وسُمي: يوانيس، ومات فيها سنة ٤٥٨. الأعلام ٧/ ١٩١.

(٣) كشف الظنون ١/ ٤٦٩.

(٤) أبو علي يحيىٰ بن عيسىٰ بن جزلة البغدادي، إمام الطب في عصره. كان نصرانيًا، وأسلم سنة ٤٦٦. توفي سنة ٤٩٣. وكتابه المشار إليه هو «تقويم الصحة بالأسباب الستة». وله أيضـًا كتاب «تقويم الأبدان».

فيه **(والتلطُّف في اجتذاب القلوب)** وصرفِها **(إلىٰ العلم الذي يفيد)** ويُكسِب **(حياة الأبد)** في الدنيا والآخرة **(أهم)** وأَعْنَىٰ **(من التلطُّف في اجتذابها إلىٰ)** علم **(الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد)** فقط، ولا ينظر إلىٰ ما دون ذلك **(فثمرة هذا العلم)** الذي هو علم الآخرة **(طبُّ القلوب)** لمعرفة عجائبها وما يطرأ عليها **(والأرواحِ)** بتزكيتها وتنميتها **(المتوصَّل به إلىٰ)** حد **(حياة)** حقيقةً **(تدوم)** وتستمر **(أبد الآباد، فأين منه)** علم **(الطب الذي تعالَج به الأجسادُ)** الظاهرية بمعرفة الأمزجة وتراكيب الأدوية **(وهي)** أي الأجساد **(معرَّضة بالضرورة للفساد)** أي يَعْرِض لها الفساد والهرم والموت. ثم إن شرف الطب بحسب موضوعه، وشرف العلم بالله بحسبه وبحسب ثمرته، والجامع بين الشرفينِ يُهتَمُّ لتحصيله أكثر مما فيه شرف واحد **(في أقرب الآماد)** جمع أَمَد: الغاية. قال الراغب[1]: الأمد والأبد متقاربان، لكن «الأبد» عبارة عن مدة الزمان التي لا حد لها، ولا يتقيد [لا يقال: أبد كذا] و«الأمد» مدة لها حد مجهول إذا أُطلق، وقد ينحصر فيقال: أمد كذا، كما يقال: زمن كذا.

(فنسأل الله سبحانه التوفيقَ للرشاد والسَّداد، إنه هو الكريم الجواد) وبه تم شرحُ خطبة الكتاب، والحمد لمولانا الوهاب.

---

(١) المفردات ص ٢٤. والزيادة التي بين حاصرتين منه.

فهرس الموضوعات